محمد فريد أبو حديد



أنا الشعب

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

أنا الشعبْ

محمد فريد أبو حديد

أنا الشعب



ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

حياتنا سلسلة من حوادث صغيرة ليس لواحدة منها فى ذاته ما يسترعى انتباهنا فى اللحظة التى تمر بها ، ولكنا إذا بعدنا فى الطريق ، وأصبح من المحال أن نعود أدراجنا تبين لنا أن بعضها هو الذى يقرر مصائرنا . ولو كنا نفطن إلى هذه الحوادث الصغيرة الخطيرة فى اللحظة الحاسمة لحرصنا على توخى الحكمة وتجنب الأخطاء ولكنا بشر نكتب بأخطائنا سلسلة القصة البشرية . والحوادث التى تمر بنا تخلف فينا آثاراً لا تمحى بعضها حائل يسنح لنا فى ذكريات عابرة ، وبعضها عميق يشبه ندوب الجراح بعد التئامها ، وهذه الخطوط العميقة هى التى توجه تفكيرنا وتقود مشاعرنا وتحرك إرادتنا . هذا هو ما بدا لى على الأقل وأنا فى غرفتى الصغيرة من سجن الاستئناف أجول بخيالى فى عالم الذكرى لأسجل ما أظنه جديراً بالذكر من حوادث حياتى .

لم تكن طفولتى متميزة بشىء يستحق أن أقف عنده طويلا حتى وقع الحادث الأول الذى زلزل وجودى وغير اتجاه حياتى وهو وفاة والدى .

كنت عند ذلك فى نحو السابعة عشرة من عمرى وكنت أستعد لامتحان شهادة الثقافة العامة ، ووقعت الصدمة علىّ فجأة فشعرت كأنى أهوى فى فراغ لا قرار له . كان أبى والداً وصديقاً يملأ كل حياتى وما كان

يخطر لى أنه إنسان زائل قد ينتزع من الوجود فى لحظة . فلما عدت من المدرسة ذات يوم ووجدته مسجى فى سريره والجميع يبكون من حوله وقفت أنظر إليه بغير أن أرى وجهه المغطى ، وأخذت أتامل الوجوه الحزينة التى حوله وأنا ذاهل ، فما راعنى إلا أن الجميع ازدادوا صراخاً وعويلا عندما رأونى فاندفعت نحوه لأرفع عنه الغطاء وأناديه لأوقظه، فبادر من هناك إلى ودفعونى وأخرجونى من الغرفة قسراً . لم تكن فى عينى دموع بل كان قلبى يفيض غيظاً لأنهم حالوا بينى وبين أبى ،ولم يحاول أحد منهم أن يتمسك به بل سلموا بأنه قد مات وانتهى بغير مجادلة . ثم رأيته بعد حين يحمل فى نعشه ويتجهون به إلى المقبرة كالأموات جميعاً ، وسرت مع السائرين حتى وقفنا إلى جانب حفرة ، ورأيت جثمانه يدلى فيها وكل من هناك جامد فى مكانه يبكى بغير أن يحاول أن يتمسك به ، فاندفعت كالمجنون وأردت أن أتعلق به . ولكن الناس اجتمعوا حولى وأمسكوا بى قسراً وجعلوا يواسوننى بكلام لم أفهم معناه فانفجرت باكياً كما لم أبك يوماً فى حياتى . ولما عدنا آخر الأمر إلى البيت وحدنا شعرت بحزن لا يشبه الحزن، وبلوعة لا تشبه لوعة الصبى فى فقد أبيه ، بل هى أقرب إلى حسرة المقهور العاجز أمام قوة جبارة تتقاذف به فى قسوة . وكانت صورة أبى تتمثل لى لا تفارقنى فى ساعات اليقظة ولا فى مناظر الأحلام ، واعترانى شعور يشبه الحقد والعداوة لكل ما يذكرنى بفقده ، ولهذا لم أذهب مرة لزيارة قبره ، بل لقد كنت أتحاشى الاقتراب منه أو السير فى الطريق المؤدية إليه .

وامتلأ قلبى بوحشة شديدة فخيل إلى أن الحياة خالية خاوية ليس فيها ظل من فوقى ولا قرار من تحتى ، وحببت إلىّ العزلة ونفرت من

كل مجلس حتى لقد لزمت غرفتى فى البيت كلما عدت من المدرسة ، وكانت أمى تأتى أحياناً لتؤنسنى فتجلس إلى جنبى وترقبنى فى عطف حزين فلا يزيدنى ذلك إلا وحشة وأحس أن الحياة رهيبة .

وشيئا بعد شىء بدأت أضيق بالجو الرهيب الذى خيم على فصرت أخرج وحدى إلى الحقول القريبة من البيت أجول فيها بغير قصد سوى السير فى الهواء الطلق ويدور ذهنى حول نفسه فى أثناء سيرى فى أفكار غامضة يشوبها حزن غامض ، حتى إن الحقول نفسها كانت تبدو فى عينى فى إطار كئيب مع أنها كانت تتبرج فى حلة الربيع . وكنت أحياناً أجلس فى مكان منعزل فأكتب شيئاً يشبه الشعر أنفس به عن أفكارى الحزينة الغامضة ، فاذا قرأت ما كتبت بادرت بتمزيقه إذ كان يزيدنى كآبة لأنه يدور حول معنى واحد — معنى زوال الحياة التى تحملنا برغمنا وتقذف بنا حيث تشاء . وكانت أسئلة واحدة تتخلل كل ما أكتب — لم جئت إلى هذه الحياة ؟ ولم أبقى فيها ؟ وأين نذهب إذا خرجنا منها ؟ وما هو قصدها ؟ وماذا يستحق فيها أن أجعله غايتى؟ ومما زادنى شعوراً بالرهبة أنى بدأت أرى أمى تعانى فى حياتنا ضيقاً تحاول أن تخفيه ولكنه كان يظهر واضحاً فى كل ما حولنا . صارت لا تعطينى النقود التى تعودت أن أنفقها فى (الشبرقة) مع رفاقى بالمدرسة حتى صرت لا أقدر على مجاراتهم ، ولا تشترى لى ولا لأختى الصغيرة ما تعودنا انتظاره من الهدايا الصغيرة ، ولما جاء العيد لم تشتر لنا الملابس الجديدة ، وشعرت بالذلة عند ما رأيت كل زملائى ينظرون إلى بدلتى التى يعرفونها . وأذكر أنى ذهبت إلى أمى يوماً فسألتها :

ـــ ماذا تقولين يا أمى فى أن أشتغل بعمل أتكسب منه ؟

فقالت فى دهشة : أى عمل يا سيد ؟

فقلت : أى عمل أقدر عليه ، كما يعمل أولاد حارتنا .

فقالت : تحب أن تكون مثل حمادة الأصفر مثلا ؟

وكان حمادة الأصفر ولداً من صبيان الحارة يعمل مع أبيه البقال فى دكانه .

فقلت : ولم لا ؟ أما يكسب حمادة شيئاً ؟

ففزعت أمى لذلك السؤال ولامتنى لوماً شديداً فى سخرية مرة وقالت :

ـــ أهذا هو أملى فيك ؟ لم لا تنظر إلى أبناء أعمامك وأخوالك ؟ فهل فيهم من يشبه حمادة ؟

ولم أفهم قولها فقلت لها :

ـــ وماذا أعمل إذن ؟

فقالت : تأخذ الشهادة العليا وتكون رجلا محترماً .

وكنت عند ذلك فى السنة الرابعة الثانوية ففكرت فى نفسى كم سنة يجب على أن أبقى فى المدارس حتى آخذ تلك الشهادة العليا ، وبدت لى مرحلة طويلة شاقة لا طاقة لى بها . وانصرفت عنها ضائقاً حائراً وبدأت تستولى على حالة من الفتور جعلتنى انصرف عن التفكير فى المستقبل وعن كل رغبة فى الاتجاه إلى غاية . وزادنى ضيقاً على ضيق أننى باعدت أصدقائى وبدأت أحس أنهم جميعاً ينظرون إلى من بعيد بنظرات فاحصة ويتهامسون على بهمسات خافتة ، وصرت أرقبهم كذلك من بعيد وأنا معتزل عنهم وأترجم أقوالهم وإشاراتهم على أنها سخرية وأننى أنا المقصود بها .

٩

وبدأت أتعمد مخالفة آرائهم إذا دارت مناقشة فى أثناء الدرس ، لا أقصد سوى أن أظهر مخالفتى لهم واستعلائى عليهم . وبعد بضعة أشهر من هذه العزلة الصارمة لم أطق وحدتى فاتجهت إلى خلق صداقات جديدة مع زملاء آخرين كنت من قبل لا أرضى أن أصاحبهم ، فكنت أتعمد اختيار من هم مثلى أو أقل منى فى مظهرهم ، وبدأت أتزعم حركة التمرد فى الفصل حتى أصبحت موضع الشكوى والعقوبة . وما زلت أتمادى فى ذلك حتى أصبحت قبل آخر العام زعيم حركات الاضطراب فى المدرسة وكان يلذ لى أن أتحين كل فرصة لأظهر مقدرتى على إحداث الفوضى . ولست أدرى مع هذا كله كيف نجحت فى امتحان الثقافة العامة آخر العام ، وزادت دهشتى عندما عرفت أنى لم أكن من المتخلفين فى النجاح بل كدت أكون بين السابقين فى المدرسة .

ولكن ذلك النجاح لم يعد إلى صدرى الانشراح بل سألت نفسى وما فائدة هذا ؟ وإلى متى أستمر فى هذه الدراسة الطويلة ؟

وجاءت أيام العطلة فزادت حالى سوءاً لأنى اتخذت بعض رفاق من أبناء الحارة وهم من صبيان العمال أو أبناء صغار التجار ، وكانوا خليطاً عجيباً من طباع مختلفة لا يجمع بينهم شىء سوى اللعب والمزاح الخشن والمشاجرات العنيفة .

وقد وجدت فى صحبة هؤلاء الزملاء فرصاً كثيرة للمصادمات كى أظهر امتيازى ، وكانت جولاتى معهم تنتهى فى كثير من الأحيان بمعركة أصيب فيها غيرى أحياناً بجراح أو كدمات ، كما كنت أعود منها إلى منزلى أحياناً بثياب ممزقة ، وخدوش كثيرة . وكنت فى أول الأمر

أتسلل إلى غرفتى عند عودتى إلى البيت حتى لا أتعرض للوم أمى ، ولكنى بعد أن تعرضت للومها مرة بعد مرة صرت لا أرهب شيئاً ولا أبالى لوماً . وما أزال إلى الآن أشعر بالخجل كلما تذكرت كيف كنت أقف أمام أمى عند ذلك وأجادلها وأراجعها وأتحداها بغير تجمل .

وكان من بين صبيان الحارة اثنان استمرت صلتى بهما مدة طويلة فيما بعد ولهذا أرى أنهما جديران بأن أذكرهما ، وأولهما (حمادة الأصفر) الذى ذكرته لى أمى على سبيل اللوم عندما أفضيت إليها برغبتى فى العمل .

كان حمادة فتى ضئيل الجسم أصفر اللون يعرفه صبيان الحارة جميعاً بالمكر والخبث ولكنهم مع هذا يعجبون بمهارته فى اختراع الألاعيب وتدبير المكائد . وكان يمتاز بجرأة عظيمة فى الكلام ، وله أسلوب فكه ساخر لاذع ، ولكنه لضعف جسمه لا يحب المصادمة . وكانت له مقدرة على التفنن فى الصفير العالى بأن يضع إصبعيه فى فمه وينفخ فيخرج أصواتاً يتحكم فيها كما يشاء ، فيقلد صوت القاطرة البخارية أو العصافير ، أو يقطع الصفير فى مقاطع تجعله يشبه النطق إذا أراد أن يدعونا من منازلنا بأسمائنا . وكان هو زعيم الصبيان فى الحارة قبل أن أدخل فى زمرتهم فلما اتصلت بهم شعرت أنه غير مرتاح إلى وجودى معهم منذ أول يوم لأنه وجدنى غير مستعد لقبول زعامته .

ولم تمض سوى بضعة أسابيع على وجودى مع الزمرة حتى وجدت الجميع يقاطعوننى ويباعدوننى ، فاعتزلتهم ولمت نفسى لوماً شديداً على انحدارى إلى مصاحبتهم ، واقتصرت على الخروج وحدى إلى الحقول القريبة لأتنزه وأكتب بعض خواطرى . ولكن الزمرة لم تدعنى

وحدى فى سلام بل أخذ أفرادها يتعرضون لى فى ذهابى وإيابى ويقذفون بعض ألفاظ التعريض نحوى من بعيد ، فكنت أتجاهل أمرهم لأظهر مقدار هوانهم عندى .

وكان من بينهم ولد من أبناء التجار اسمه (حمادة البارودى) وهو قزم قصير ذو رأسين ، ولكن لسانه كان طويلا فصيحاً ، وله مقدرة كبيرة على السخرية اللاذعة . فكان كلما رآنى قذفنى بألفاظه الساخرة ، المضحكة وما يزال كذلك حتى أغيب عن بصره وأنا أسمع ضحكاته وضحكات أصحابه فأتقد غيظاً . ولما رأت الزمرة أنى لا أعيرهم التفاتاً زادوا جرأة على ، وأخذوا يسيرون ورائى ليطيلوا مدة اضطهادهم إياى وكانوا يرسلون أمامهم حمادة البارودى ليكون طليعة ، ويسيرون من خلفه صفاً يصفقون ويضحكون ، وحمادة الأصفر يصفر لهم صفيراً مختلف النغمات والنبرات . ولما زاد غيظى من ذلك عزمت على أن أواجههم فى موقعة حاسمة . فما كادت الزمرة تسير من خلفى كعادتها ذات يوم وما كاد حمادة البارودى يسير فى طليعتها ويصيح بأول كلمة ساخرة ، حتى عدت أدراجى حانقاً وخاطبت القزم قائلا :

ــ أتقصدنى بما تقول ؟

فأرتد حمادة البارودى إلى الوراء صامتاً ونظر إلى ورائه ، ولكنى لم أدع له فرصة لكلمة أخرى وأمسكت ذراعه فهززتها فى عنف قائلا :

ــ أتريد أن تكون عدوى ؟

فلما رأى أن أصحابه لا يسرعون لنجدته أجاب قائلا :

ــ أنا مصالحك !

ثم انحاز إلى جنب ووقف ينظر ماذا أفعل . واندفعت مسرعاً نحو الجماعة المنتظرة .

وقصدت عامداً إلى زعيمهم حمادة الأصفر فلم أخاطبه بكلمة ، بل لكمته فى صدغه لكمة شديدة جعلته يترنح ويضع يده على وجهه صارخاً فعاجلته بلكمة أخرى سقط منها على الأرض يصرخ ويبكى ويشتمنى . فجذبته من يده حتى أوقفته أمامى كأنه طفل مذنب ، وأخذت أشتمه وأهدده . وفى لحظة قصيرة انقلب أفراد الزمرة من عداوة متحمسة إلى صداقة متحمسة وأخذوا يصفقون لى ، وجاء حمادة البارودى يشارك فى الملهاة الجديدة ، فأخذ يصيح بطريقته الساخرة المضحكة :

— مالك يا حمادة يا أصفر ! حرام عليك يا سيد . تاب والله العظيم ! جدع يا سيد . هيه يا حمادة !

وكان الجميع يضحكون ويصفقون ، وكان خذلان حمادة الأصفر حاسماً ، فعزل نفسه عن زعامته من ذلك اليوم وتركنى زعيما للزمرة وحدى ، ولم يظهر بعد ذلك بيننا عدة أسابيع ثم عاد إلينا خاضعاً مسالماً .

وأما الصبى الثانى فهو مصطفى عجوة ، وكان هو المهرج المضحك بعد اعتزال حمادة الأصفر . كان ولداً ضخم الجسم له وجه غليظ أحمر قاتم وفيه آثار من الجدرى تبدو من بعيد كأنها زرقاء ، وتعلو وجهه دائما لمعة كأنه مدهون بزيت . وكان له صوت مجوف غليظ وينطق بألفاظه فى بطء فيثير الضحكات عند كل كلمة . وكان يجمع بين السذاجة التى تقرب من البلاهة وبين الميل إلى الدس والنميمة ، وله مقدرة عظيمة على اختراع الأكاذيب التى يسعى بها بين رفاقه . فإذا عرف

زملاؤه حقيقة أكاذيبه لم يخجل ولم ينكر بل ينطق ببعض ألفاظه البلهاء ثم يضحك ضحكة طويلة ويتحمل ما يوجه إليه من الشتائم . وكان يغيظنى كثيراً ببلادته وخبثه ولكنى لم أجد عليه سبيلا لأنه لم يحاول مرة من المراث أن يتحدى أو يقاوم عند ما كنت أقتص منه على أكاذيبه .

وهو يتيم الأبوين ، يقيم مع جدته العجوز ويعولها بما يكتسب من عمله فى محلج السيد أحمد جلال تاجر الأقطان ، الذى كان من قبل من سكان الحارة ، وهو دائماً يباهى بأن السيد أحمد يعرف جدته عندما كان يقيم فى حارتنا ، كما يباهى بأنه يأخذ ستة جنيهات مرتباً شهريًّا .

وقد حدث فى يوم من الأيام أن ذهبنا إلى مولد سيدى (عطية أبو الريش) وأخذنا نلعب الكرة فى ساحة قريبة من مكان المولد واجتمع من حولنا عدد كبير من النظارة . وقد أحسنت فى اللعب فى ذلك اليوم وكنت اللاعب الأوسط فى الهجوم ، فأخذ النظارة يهتفون باسمى حتى داخلنى زهو كبير . وجاءت فترة الراحة بين دورى اللعب فذهبت لأشرب كوباً من الخروب ، ومررت فى طريقى بحلقة كانت تحيط بمصطفى عجوة وتضحك منه . وسمعت صوته الأجوف ينطق باسمى فى عبارة تهكم انفجرت على أثرها ضحكة عالية ، فشعرت بحنق شديد عقب الزهو الذى امتلأت به فى أثناء اللعب ، واندفعت نحو مصطفى عجوة بغير تفكير فأهويت على وجهه السمين بكل قوتى بصفعة رنت عالياً ثم أتبعت ذلك ببضع شتائم شديدة .

ولم يحاول مصطفى أن يرد على الاعتداء بمثله ، مع أنه كان فى مثل طولى ، وأضخم منى جسماً ، بل رفع ذراعه إلى رأسه ليحمى وجهه وأخذ

يصيح قائلا « شاهدين يا جماعة ؟ »

وتعالت الأصوات مختلطة ، وتقدم أفراد كثيرون ليحجزونى عنه وشهدوا علىّ بالاعتداء وألزمونى أن أسقيهم جميعاً كؤوساً من شراب الخروب ففعلت.

هكذا انحدرت مع هذه الزمرة إلى حياة مضطربة مدة الصيف كله ، وعزفت نفسى عن مواصلة الدراسة عند ما بدأ العام الدراسى الجديد وعزمت على الانقطاع لأبحث عن عمل أتكسب منه . وأعلنت لأمى فى صراحة أننى لن أطيق الاستمرار فى الدراسة ، ولم أعبأ بالحزن الشديد الذى أصابها .

ولما رأت أمى أننى ركبت رأسى صرفت وجهها عنى ولزمت الصمت حتى صارت لا تخاطبنى فى شىء .

ولكن ذلك لم يزدنى إلا عناداً . وعزمت فيما بينى وبين نفسى على أن أظهر لها أننى لست طفلا وأننى أستطيع أن أثبت وجودى وأشق طريقى فى الحياة ، ولكنى عند ما بدأت أفكر فى البحث عن عمل لم أجد أمامى باباً أستطيع أن أطرقه ، لأنى كنت قليل الخبرة لا أكاد أعرف عن الوظائف شيئاً . وكان أول ما خطر لى أن أشتغل بالتحرير فى الصحف وذلك لأنى كنت فى المدرسة عضواً فى لجنة المجلة ، وكان التلاميذ والمدرسون يسموننى « الكاتب الصغير » ويطلبون منى أن أقرأ عليهم القطع التى أكتبها ويظهرون الإعجاب بها . وخيل إلىّ أننى إذا أرسلت مقالا من إنشائى إلى إحدى الصحف لم ألبث أن أتلقى الرد محتوياً على بضعة جنيهات أذهب بها إلى أمى لأقول لها « انظرى كيف أكسب ! » وقضيت بضع ليال فى الكتابة حتى أتممت بضع مقالات وكتبتها بخط حسن فى

ورق جيد وبعثت بها إلى الصحف المعروفة ، ولم أنس أن أبعث بإحداها إلى جريدة « النبراس » فى دمنهور .

ولا حاجة بى إلى أن أقول إن انتظارى قد طال عبثاً ولم أجن من وراء مقالاتى إلا خسارة أثمان الصحف التى كنت أشتريها كل يوم أو كل أسبوع لأرى هل نشرت شيئاً من كتابتى . هذا فوق ما خسرته فى ثمن الورق والظروف وأثمان طوابع البريد وزجاجة من الحبر الممتاز .

وكدت يوماً أطير فرحاً عند ما قرأت مقالة باسمى فى جريدة « النبراس » ولكنى لم أتلق الخطاب المنتظر الذى يحتوى على الجنيهات .

ولما يئست من التكسب بالتحرير فى الصحف فكرت فى الاشتغال بالأعمال الكتابية فى الوظائف الحكومية ، فبعثت إلى مصالح كثيرة أعرض عليها استعدادى للعمل ، وكلفنى هذا أيضاً ما يزيد على خمسين قرشاً فى أثمان الورق وطوابع التمغة وطوابع البريد ، وانتظرت أسبوعاً بعد أسبوع متلهفاً على الردود ولكن لم يصل إلى رد منها .

وبدأت أحس بالضيق من البطالة فوق إحساسى بالخجل والخيبة لأنى لم أثبت وجودى . ومر الخريف والشتاء وبدأ الهم يثقل على صدرى ، فكنت أخرج إلى الريف المجاور للمدينة لأفرج عن نفسى بالنزهة بين الحقول فى مطالع الربيع . وكان جمال منظر حقول القمح وهى تختلف من الخضرة إلى الصفرة يأخذ بمجامع قلبى ، فأجلس بينها وأكتب ما يخطر لى من الأفكار ، أو أؤلف ما يجيش فى صدرى من الأشعار ، وكان أكثر ذلك تعبيراً عما كان يجثم على قلبى من الضيق والحيرة .

ورأيت فى يوم من الأيام إعلاناً عن وظيفة بمجلس المديرية فكدت

أطير فرحاً وخيل إلىّ أن الأقدار قد ساقت إلى تلك الوظيفة عمداً واختارتها فى دمنهور من أجلى . وكتبت طلباً تأنقت فى إنشائه وجودت خطه ، وذهبت لأقدمه إلى رئيس المكتب بنفسى حتى لا أضيع يوماً فى إرساله بالبريد . ولما ذهبت إلى ديوان المجلس أخذت أسأل عن رئيس المكتب ، فدلنى أحد الحجاب على حجرته وهو يبتسم ، فاستبشرت بالخير ودخلت إلى الغرفة وكان فيها ثلاثة يجلس أحدهم فى الصدر خالعاً طربوشه ويأكل من طبق أمامه فيه بقية من الفول المدمس . فعرفت أنه الرئيس وتقدمت نحوه مترفقاً وقلت :

— حضرتكم الرئيس ؟

فنظر إلى نظرة فاترة وهو يمضغ ثم قال :

— ماذا تريد ؟

فمددت يدى إليه بالورقة ولكن يده كانت ملوثة بالزيت فتردد لحظة ثم مد إصبعى يده اليسرى وأخذها منى فنظر فيها لحظة ثم قال :

— هذا خطك ؟

فقلت مسروراً : نعم .

فوضع الورقة إلى جانب وأخذ لقمة كبيرة اشتملت على بقية ما فى الطبق ثم فرك يديه وسألنى من بين أضراسه :

— شهادة الثقافة ؟

فأجبت فى شىء من الزهو : نعم .

فقال : وأين هى ؟ وما أدرانى أن هذا صحيح ؟

فقلت : أحضر لك إقراراً من المدرسة بأنى ناجح فى الثقافة وأتعهد

بإحضار الشهادة عند استلامها .

فتبسم قائلا : حسن جداً ، أين القهوة يا قرنى ؟

ووجه الكلمة الأخيرة إلى الحاجب الذى كان واقفاً ورائى وهو الذى دلنى على الغرفة . ثم اتجه إلىّ قائلا :

ــ طيب ! تفضل الآن .

وكنت أود أن أسأله عن رأيه ، وهل هناك أمل فى قبول طلبى ، ومتى أعود إليه مرة أخرى ، وما هى الوظيفة ، وما أجرها ، ولكنه نظر إلىّ نظرة فاحصة كأنه يقول لى « أنصرف من هنا »

فانصرفت صامتاً حتى لا أغضبه وخرجت من الباب فوقفت لحظة متردداً . وجاء الحاجب قرنى فوضع يده على ذراعى قائلا فى همسة :

ــ اسمع يا أفندى !

واستمر بعد أن نظرت إليه :

ــ تعال هنا غداً وأنا أساعدك . أنا ضامن لك الوظيفة إذا سمعت نصيحتى .

وكان رجلا سميناً تلوح عليه الطيبة فقلت له :

ــ أشكرك جداً .

فقال : لا شكر على واجب . أنت شاب طيب ويظهر أنك نبيه . المنافع متبادلة يا أبنى أنفعك وتنفعنى . أ أنت من دمنهور ؟

فقلت : نعم .

فقال : وأنا مستعد لأى خدمة . فى الحقيقة لا أريد أن أطلب شيئاً لنفسى ، ولا غرض لى إلا تمهيد السبيل لك . أتفهمنى ؟ أنا أقدر

أن أجعله يقبل . أنا وحدى .

ورفع يده ففرق أصابعه الخمسة تحت عينى فى السر وهمس قائلا :

ــ خمسة فقط . والباقى بعد القبض .

فهززت رأسى مستفهما .

فقال : خمسة جنيهات !

فسقط قلبى فى صدرى . خمسة جنيهات والباقى بعد القبض ؟ وأين لى خمسة جنيهات ؟ أأذهب إلى أمى لأطلب إليها ذلك المبلغ ؟

فقلت له : ماذا تقصد ؟

فنظر إلى كأنه يشتمنى وارتسمت على وجهه ابتسامة خاوية ، ثم رفع رأسه فجأة متطلعاً إلى أقصى الممر المجاور للغرفة وصاح ينادى عامل القهوة !

ــ أين فنجان القهوة المضبوطة يا زفت !

وصاح العامل : حالا يا عم قرنى !

ووقفت ثابتاً كالأبله لا أدرى ماذا أصنع .

فالتفت الحاجب نحوى قائلا : أنت حر !

وتركنى ليأخذ القهوة من الصبى الذى جاء مسرعاً بها . فسرت أجر قدمى فى الطريق كالمذهول ، حتى وصلت إلى جانب الترعة وكان مس الهواء يلطف حرارة وجهى المتقد ، وما زلت أسير حتى عدت إلى بيتى متعباً بعد دورة طويلة حول المدينة .

وبعد نهار قلق وليلة مضطربة قمت فى الصباح الباكر ذاهباً إلى ديوان مجلس المديرية عازماً على مقابلة السيد رئيس الكتبة لعله يكون

أرفق من الأمس ، ولكنى ما كدت أقترب من الباب حتى استوقفنى عم قرنى قائلا :

— ممنوع يا أفندى !

ونظر إلى نظرة جامدة كأنه لم يرنى من قبل .

فوقفت لحظة أنظر إليه وكدت أقول له كلمة أسترضيه بها ، وحدثت نفسى أن أعده بما يرضيه إذا قبضت المرتب ، ولكنه لم يعطنى فرصة للكلام بل أعاد كلمته قائلا :

— قلت لك ممنوع يا أفندى !

واقترب منى كأنه يريد أن يدفعنى عن الباب .

فشعرت بصدرى يزدحم بالغيظ ، وتمنيت لو دفعنى لأجد سبباً يجعلنى أفرغ فيه حنقى بلكمة فى صدغه ولكنه أدار لى ظهره وأمسك بأكرة الباب .

فلم أجد لى سبيلا إلا أن أبلع غيظى وأنصرف وفى قلبى بركان يفور .

وزاد ضيقى بالحياة وبدأت أسأل نفسى عن قيمتها وتفاهتها ، وزادنى ضيقاً أننى بدأت أندم على إنقطاعى عن الدراسة وإغضاب أمى ، وبلغ بى الحنق على نفسى وغيرى أن انقطعت عن الناس كافة وصرت أقضى أكثر أوقاتى هائماً فى الحقول مثل طفل ضال ، لا أجد شيئاً أفرج به عن نفسى إلا أن أكتب قطعاً حانقة باكية من النثر أو الشعر ثم أمزقها بعد أن أقرأها.

وكنت أحياناً أرى فى الطريق بعض زملائى القدامى فى المدرسة فتصيبنى غصة ، وألفت بصرى عنهم حتى لا أحييهم أو أكلمهم ،

شاعراً نحوهم بشيء يشبه البغض أو الحقد ، فإذا عدت إلى بيتى تسللت إلى غرفتى لأقضى أكثر الليل ساهداً مع خواطرى السوداء .

هكذا مرت بى الأيام بطيئة كئيبة حتى جاء الصيف وامتحن رفاقى فى البكالوريا ، فانهارت مكابرتى وصرت أبكى فى غرفتى كلما خلوت فيهـــا .

وجاءنى حمادة الأصفر ذات ليلة من الليالى الحارة ، وكنت لم أره منذ أشهر طويلة . فتعجبت من زيارته ولكنى شعرت بشيء يشبه الابتهاج بها لأنها أدخلت على شيئاً من التغيير . وكان وجهه أصفر كعادته وظهرت النقط السود التى فوقه كأنها نمل صغير يتحرك . وابتسم لى عن أسنانه الصفر (المشرشرة) كأنه لم يكن بيننا ما يعكر الصفاء من قبل .

وقال لى مبادراً : ما رأيك ياسى سيد ؟

وكان واقفاً على أرض الحارة وكنت فوق عتبة الباب ، فظهر لى كأنه طفل ضئيل الجسم وأحسست نحوه لوناً من العطف ممزوجاً بالاحتقار وقلت له :

ــ ماذا تريد يا حمادة ؟

فقال : ما رأيك فى فرقة تمثيل ؟

فصحت : ماذا ؟

فقال مبتسما : فرقة تمثيل . فرقة أصدقاء الفن . ألا تذكر ؟

وكانت فرقة من الممثلين قد زارت دمنهور فى مولد (أبو الريش) وذهبت إليها مع زمرة أصحابى ، ولا أنسى تلك الليلة التى بكيت فيها بكاء مرّاً عندما شاهدت رواية « عواطف البنين » ، وكان مصطفى عجوة

جالساً بجانبي ، فأخذ يضحك مني ويدفعني بيده قائلا « إنه تمثيل يا عبيط ! » ووقف حمادة ينتظر جوابي وأنا أنظر إليه فى عجب ولا أدرى ماذا يقصد .

فعاد قائلا :

ـ أنت تعرف أنى اشتركت مع هذه الفرقة ، وكان الجمهور يصفق لى كلما ظهرت . لماذا لا نكسب كما كانت تلك الفرقة تكسب ؟ ولماذا لا نكون نحن « أصدقاء الفن » ؟ ثلاثين جنيها نربحها فى الليلة الواحدة . لا تفكر فى شيء لأنى ضامن لك أنت عشرين جنيهاً . ستكون أنت رئيس الفرقة يا سيد أفندى وسأكون أنا أمين الصندوق فقط . سأذهب إلى هؤلاء الأغنياء لأبيع لهم التذاكر بنفسى ، وإذا رفض أحدهم أن يشترى عرفت كيف أخلص منه ، لا تفكر أنت فى شيء . الفرقة كاملة . لا تنتظر إلا أن تقبل أنت الرياسة . فما رأيك ؟

وكدت أضحك من الفكرة ولكنى قلت له :

ـ يعنى أنك تريد أن أمثل معكم ؟

فأجاب فى جد : أنت رجل أديب يا سيد أفندى ، كل الناس يقولون هذا . رأيت أسمك بعينى فى النبراس والأعيان كلهم يحسبون حسابك إذا عرفوا أنك معنا . كلمة واحدة فى جريدة النبراس تقلب البلد على رأس أكبر عظيم هنا . عشرين جنيهاً يا سيد أفندى تقبضها مقدماً . ما رأيك ؟

ومع كل ما كان فى نفسى من السخرية ومن سوء الظن بهذا الصاحب القديم ، وجدت نفسى أفكر فى الجنيهات العشرين ، وتصورت نفسى

وأنا أحمل هذا المبلغ الضخم إلى أمى قائلا لها « انظرى كيف أستطيع أن أكتسب بعملى ! »

وسألته : أأنت جاد فيما تقول ؟

فقال مؤكداً : جاد ؟ وهل جئت لأمزح ؟ لا تفكر فى شىء واترك لى تدبير الأمر كله . الرواية حاضرة والملابس كاملة والمناظر مجهزة . رواية عظيمة . وملابس بالقصب ، والضحك لا ينقطع .

وشادر البطيخ يتسع لألف شخص . ألف فى عشرين قرشا على الأقل ، كم يا سيد أفندى ؟

فقلت ساخراً : مائتان .

فقال جاداً : بالضبط . والمقاعد الأمامية بثلاثين قرشاً . وكل المقاعد بالثمن . لا هدايا ولا مجاناً ولا مجاملة . الجد جد . الاجتماع غداً فى الساعة العاشرة صباحاً فى وابور الطحين بجوار ضريح سيدى (أبو طاقية) ما رأيك ؟ — أنصار الفن أو المسرح الوطنى ؟

ففكرت قليلا ثم قلت : المسرح الوطنى .

فصفق قائلا : أديب عظيم والله ! المسرح الوطنى يا أستاذ سيد . انتهينا !

ولم أجبه بكلمة لأن ذهنى كان مشغولا بأسئلة كثيرة عن حقيقة الجنيهات العشرين فهل يدفعها لى مقدماً كما يقول ؟ ولكنى خجلت من سؤاله حتى لا أظهر لمفتى ، وجعلت أفكر فى إمكان بيع التذاكر كلها .

ولما رأى حمادة أنى صامت قال لى .

ـ قلت لك لا تفكر . رواية مدهشة . كلام نهائى ؟ فى الساعة العاشرة صباحاً ؟

وتركنى بعد أن هز يدى فى صفاء ومودة ، وعدت إلى غرفتى مستبشراً أعيد ما سمعت من حمادة حتى غلبنى النوم وأنا أناجى أملى .

واجتمعنا فى اليوم التالى فى (وابور الطحين) ، وكانت الفرقة هى الزمرة القديمة مع زيادة بعض أشخاص آخرين للقيام بالأدوار الثانوية . وقرأنا القصة فوجدناها مدهشة حقاً . رجل من كبار الأغنياء يتزاحم الشبان على خطبة ابنته ويرفض أن يزوجها لأحد منهم ، ثم يأتى إليه سمسار يوهمه بأنه رسول من قبل أحد الأعيان فى مدينة مجاورة لخطبة ابنته ، وكان متآمراً مع وكيل الدائرة على تزويج الفتاة من رجل مفلس من أسرة معروفة طمعاً فى الحصول على ثروة والدها .

ثم تنكشف المؤامرة بعد كتابة العقد ، فيغضب والد الفتاة ويريد التخلص من العقد ، وبعد مراجعات كثيرة ومصادمات ومضاربات مضحكة يرضى الزوج المفلس بأن يفسخ العقد بعد أن يأخذ تعويضاً مالياً كبيراً .

وتم الاتفاق بيننا على توزيع الأدوار فكنت أنا سعادة البك وحمادة الأصفر الشيخ منصور السمسار ، ومصطفى عجوة وكيل الدائرة ، وحمادة البارودى ابنة البك وهكذا . ولم نختلف إلا على شىء واحد وهو الطريقة التى يضرب بها وكيل الدائرة وجه سعادة البك رداً على الصفعة التى يوجهها إليه البك فى أثناء المشادة التى تحتدم بينهما . ولما لم أرض أن يضربنى مصطفى عجوة بحال من الأحوال ، تم الاتفاق بيننا بعد أخذ

ورد طويلين على أن يقنع مصطفى وكيل الدائرة بالتهجم على البك من بعيد .

وبعد بضعة أيام جاء حمادة الأصفر ليسألني هل حفظت دوري ، وكنت أتقنت حفظه ، وتمرنت عليه حتى رضيت عن نفسي ، ودفع لي حمادة جنيهين مقدماً عند ما رفضت أن أشتغل إلا إذا نفذ الشرط المتفق عليه . ووعدني بأن يدفع الباقي في ليلة الحفلة .

وجاءت الساعة الموعودة وبدأ الاحتفال في شادر البطيخ ، ورأيت النظارة يملؤون المقاعد عند ما نظرت إليهم من ثقب الستارة . ولم أرد أن أعكر صفاء الحفلة بالإصرار على أخذ باقي العشرين جنيهاً لأني شعرت بالاطمئنان إلى أن الربح سيكون كافياً الجميع .

وسارت الرواية سيراً حسناً وكان إعجاب النظارة ظاهراً من تصفيقهم وصفيرهم وخبطهم بالأرجل على الأرض ، وكان حمادة يذهب ويجيء من وراء المسرح وهو بادي السرور ، وكلما جاء دوره ذهب ليؤديه أداء طبيعياً كسمسار خبيث حقاً .

ثم جاء منظر مصطفى عجوة وكيل الدائرة بعد أن كشفت خيانته فجعلت أشتمه وأهدده وصفعته على وجهه صفعة شديدة كما يحتمه الموقف في الرواية بحسب الاتفاق ، فما كان منه إلا أن أدى دوره الأصلي كما هو مكتوب في الرواية ورفع يده الضخمة على غير انتظار مني وضربني على وجهي ضربة شديدة ترنحت من ثقلها . فما كان مني إلا أن هجمت عليه ولكمته على وجهه لكمات متعاقبة وأنا أشتمه وألعنه حتى وقع على الأرض وبركت فوقه أكيل له اللكمات في غيظ والناس يضجون بالضحك

والتصفيق والصفير . وأرخى الستار واضطرب الشادر وجاء حمادة يجرى نحوى ويلطم وجهه قائلا « ضعنا ! »

ولم أهتم بقوله ولا بأقوال الزملاء الآخرين وانصرفت ذاهباً إلى بيتى فأغلقت على بابى وأخذت أبكى بكاء مراً . وكان شعورى بالخزى يخيل إلى أن أذهب إلى أمى لأوقظها من النوم وأقبل رأسها وأعتذر إليها وأسألها الصفح عنى . ألم يكن كل ما أصابنى نتيجة لغضبها ؟

ولما طلع على الصباح سارعت إليها وقبلت رأسها وأخذت أعترف لها بسوء مسلكى وبكل ما حدث لى وسألتها مخلصاً أن تصفح عنى وتدعو لى بالهداية . وشعرت عند ما مسحت على رأسى بيدها وأخذت ترقينى أنى ألوذ بالملجأ الوحيد الذى أستطيع أن ألجأ إليه دائماً وأجد الأمن فى ظلاله .

٢

كانت أمى تحاول أن تخفى تأثرها وأنا أحدثها عن محاولاتى فى البحث عن العمل وما لقيته فيها من الخيبة ، ولكن عينيها الرطبتين كانتا تدلان على مقدار رثائها .

وقلت لها فى تردد :

— ولا بد لى من أن أعيد الكرة مرة أخرى ، فالمدرسة أصبحت مستحيلة .

فقالت : لا أحب أن أعارضك يا سيد ففكر فى مستقبلك كما تحب .

فقلت : يمكننى أن أتقدم للامتحان من منزلى ، المهم أن الوظائف تحتاج إلى الواسطة . كل شىء فى هذه الأيام يحتاج إلى الواسطة .

فقالت : أتذهب لعمك ؟

ولم أكن أنتظر منها أن تفكر فى هذا لأنى أعرف أن عمى كان على خلاف شديد مع أبى قبل وفاته حتى أنه لم يحضر إلينا عند موته .

وقلت لأمى : لا أذهب إليه أبداً ، وماذا لو تخلى عنى ؟ أظنك تعرفين السيد أحمد جلال .

قلت ذلك لأنى تذكرت أن السيد أحمد جلال جارنا القديم كان كلما رآنى يبدأنى بالسلام وكان من أول من زارنا للتعزية وكرر على أن أزوره إذا احتجت إلى مساعدة .

فقالت أمى مرتاحة : جارنا القديم والله يا سيد ، لا مانع أبداً . هو صاحب كلمة مسموعة والست نور الله يحميها . والله كان من الواجب أن أزورها من زمن .

واتفقنا على أن نقوم من ساعتنا إلى بيت السيد أحمد جلال وكان قد انتقل من حارتنا منذ عشر سنوات إلى بيته الجديد فى حى (أبو الريش)

وكان السيد أحمد جلال فى مبدأ أمره تاجراً صغيراً ، ثم اتسعت تجارته وأنشأ محلجاً عظيما ، وأصبح فى مدة الحرب الأخيرة أكبر تاجر قطن فى المدينة . وكان صديقاً لأبى ، وكثيراً ما كان أبى يبعثنى إليه بخطاب لآخذ منه سلفة على القطن فى مدة الصيف كما هى عادة الزراع .

وعندما كان يقيم فى حارتنا كانت أمى تزاور إمرأته السيدة نور وكنت كثيراً ما أذهب معها . وكانت ابنته منى طفلة صغيرة ظريفة

تشبه الدمية ذات الشعر الأصفر ، فإذا ذهبت إلى هناك أسرعت تجرى نحوى وطلبت منى أن أركبها فوق كتفى كأنى حصان ، ثم تدلى رجليها من أمام صدرى وتهزها فأجرى بها مقلداً وثبات الخيل وأصهل كما يصهل الحصان فتضحك مكركرة وتطلب أن أعيد الجرى والصهيل مرة أخرى . وأذكر أنى ذهبت مع أمى للزيارة مرة فى يوم من أيام الشتاء وكانت أختى منيرة معنا وكانت طفلة فى مثل سن منى فى حوالى الثالثة أو الرابعة ، وركبت منى فوق كتفى كعادتها وطلبت منى أن أجرى ، وكانت الحارة زلقة على أثر مطرة ثقيلة فانزلقت بها ووقعنا معاً فى بركة من الطين ، فبكت منى وأخذت منيرة تبكى هى الأخرى وهى واقفة على الرصيف ، وتحملت وحدى فى ذلك اليوم لوماً شديداً من أمى لأنى تسببت فى وقوع منى .

ومع أنى أنا الذى اقترحت على أمى أن تذهب إلى السيد أحمد جلال فإنى شعرت بضيق شديد عند ما نزلنا متجهين إلى منزله ، لأنى استصعبت أن أطلع ذلك الجار القديم على أنى تلميذ خائب قطعت دراستى ، ولم أجد عملا حتى لجأت إلى مساعدته ليجد لى وظيفة أتكسب منها .

ولكنى تغلبت على نفسى وجاهدت شعور المرارة الذى غمرنى ، ولم أنطق بكلمة حتى وصلنا إلى البيت ، وكان بناء فخماً تحيط به حديقة يانعة واسعة . ودخلت أمى إلى الدار وذهبت أنا إلى جناح الضيوف . وكان من حسن حظى أن السيد كان هناك ، فاستقبلنى مرحباً ، وأذهبت سماحته ما كان فى نفسى من الانكسار ، وطلب لى شراباً من المنجة ، وأخذ يحدثنى حديث جار قديم لا تكلف فيه . ولأول مرة بدأت أعرف الرجل لأنى كنت لا أراه قبل ذلك إلا من بعيد كما يرى الطفل رجلا ،

وشعرت بشيء كثير من الرضى عند ما بدأ يحدثني كرجل .

وكان حديثه سهلا شائقاً يجرى هنا وهناك فى مواضيع شتى ، فحدثنى عن أبى وعن عمى الذى كان من قبل حكمداراً فى دمنهور ، كما حدثنى عن نفسه عند ما كان صغيراً فقيراً . وتعجبت من أنه لم يشعر بشيء من الأنفة عند ما قال أنه بدأ حياته عاملا عند الحاج على مطاوع تاجر الغلال ، وأنه اقتصد من أجره بضعة جنيهات بدأ بها تجارة صغيرة ، فاشترى بعض قناطير من القطن كان يجمعها من الفلاحين رطلين أو بضعة أرطال فى كل صفقة . ثم حمل ما أشتراه على عربة نقل فكان يسير إلى جانبها حيناً ويركب عليها حيناً آخر حتى وصل إلى الإسكندرية وباع ما اشتراه بربح كبير شجعه على الاستمرار فى التجارة . ونظر إلىّ بعد ذلك قائلا :

— إذا شئت يا سيد أفندى أن تنجح فى الحياة فلا تتعلق بالمظاهر .

وارتحت عند ما سمعته ينادينى « يا سيد أفندى »

وشجعنى ذلك على أن أفاتحه بأنى أريد أن أجد وظيفة فى الحكومة فأجابنى قائلا :

— لماذا تريد أن تتوظف فى الحكومة ؟ إنها لا تعلم إلا الكسل والغرور .

فقلت له : أريد عملا أتكسب منه ، لأنى فقير .

ولم أشعر بالخجل أن أقول له إنى فقير بعد أن سمعته يقول إنه كان فى صغره فقيراً هو الآخر .

فتبسم قائلا : هذا حسن ، وأنا فى حاجة إلى شاب مثلك للعمل

هنا . ولكن على شرط ، ليس هنا مكاتب ولا سعاة ولا أجراس ولا أوامر . هنا عمل إذا كنت حقًّا تريد العمل . العمل من الصباح إلى المساء ، والأعمال كلها سواء . ليس هنا عمل مهم وآخر تافه . كل شيء مهم كالآخر ، كتابة النيشان على البالات مثل أمانة الخزانة ، كلها تحتاج إلى الأمانة والدقة والجد .

وكانت طريقته فى الكلام بسيطة ولكنها حاسمة فقلت له : يسرنى أن أعمل معك .

فتبسم ابتسامة لم أفهم معناها ولكنها تشبه قوله : سنرى .

وقال : سأنتظرك إذا شئت فى الصباح . الساعة الثامنة تماماً يبدأ العمل . وأنا هنا منذ الساعة السابعة والنصف .

فشكرته مخلصاً وكان قلبى يخفق سروراً . هكذا وجدت العمل فى لحظة ولم تعد بى حاجة إلى الوساطة للبحث عن وظيفة فى الحكومة .

ولما استأذنت لأدعو أمى لننصرف دعانى السيد أحمد لأجول معه جولة فى أنحاء الحديقة وكانت منى تلعب هناك ، فلما رأتنى عرفتنى من أول نظرة ولكنها لم تجر نحوى ولم تطلب أن تركب فوق كتفى . كانت عند ذلك فتاة فى نحو الحادية عشرة أو الثانية عشرة . واتجهت نحوى فسرت إليها لأحييها وكان وجهها ما يزال وجه الطفلة التى تشبه الدمية — شعرها الأصفر وعيناها الزرقاوان وابتسامتها الوديعة والغمازتان اللتان فى وجنتيها . وأخذها والدها تحت إبطه وجعل يداعبها ويسألها هل تعرفنى . فهزت رأسها باسمة ولم تنطق بكلمة .

فطلب منها أن تصعد إلى الدار لتدعو والدتى فأسرعت تجرى وشعرها

الذهبي يهتز على كتفيها .

وجاءت بعد قليل تسير هادئة إلى جنب أمي ممسكة بيدها فقبلتها أمي من جبينها وسلمت على السيد .

فقلت لها :

— سأحضر إلى هنا فى الصباح يا أمى ، تفضل السيد فوجد لى عملا .

فقال السيد أحمد : لم أتفضل بشيء لأنى محتاج إلى عملك .

فشكرته أمى وأكثرت له الدعاء وهى خارجة ، وكان قلبي ما يزال يخفق عند ما سرنا فى الطريق وأخذت أحدث أمى عما قاله السيد لى . وكان ذلك أول يوم سعيد مر بنا منذ وفاة أبى .

وفى اليوم التالى بكرت إلى المحلج فى الساعة السابعة والنصف فوجدت السيد أحمد قائماً فى فناء المحلج كأنه ينتظرنى ، فلما سلمت عليه أخذنى من يدى حتى دخلنا إلى المكتب ولم يضع وقتاً فى تحية أو مجاملة بل أشار إلى علبة صغيرة فيها لون أحمر ومعها (فرشة) صغيرة لأكتب بها الأرقام على بالات القطن .

ونحن إذا تأملنا الأمور بعقولنا وقبلناها لا نعرف دائماً حقيقة مشاعرنا ، فمنذ أخذت العلبة وسرت إلى مخزن القطن لأبدأ عملى بدأت أسأل نفسى أسئلة خانقة . ولا أظن أحداً يستطيع أن يعرف ما يبعثه مثل هذا العمل من الشعور بالصغر إلا إذا جربه بنفسه . أخذت أكتب الأرقام وأتحرك بين البالات الضخمة شاعراً بأنى شخص تافه . ومضى اليوم الأول طويلا وعدت إلى بيتى حانقاً على نفسى ساخطاً على قضائى . وأخذت ألوم نفسى أشد اللوم على أنى قطعت دراستى وأضعت مستقبلى ، ولكنى

عدت بعد حين أراجع حنقى وسخطى عند ما تذكرت ما حدث لى فى مدة السنة الماضية التى قضيتها عاطلا عن العمل . وبعد أن أمضيت بضعة أيام فى المحلج بدأت أستقر أو بقول آخر بدأت أرضى عن عملى . وعند ما جاء أول الشهر أعطانى السيد مرتبى عن الأيام العشرة التى عملت فيها عنده فى الشهر الماضى وكانت أربعة جنيهات ، فعرفت أن المرتب الشهرى الذى قدره لى يصل إلى اثنى عشر جنيهاً ، وهو مبلغ لم أكن أحلم به . وكان أول ما فعلت أن اقتطعت من الجنيهات الأربعة جنيهاً لأشترى به كتباً أقرؤها لأنى شعرت بحنين شديد إلى القراءة .

وكان لقراءتى أثر عظيم فى تخفيف شدة الشعور بالتفاهة وهو الشعور الذى كان ما يزال يعاودنى ، وذلك لأنى كنت عندما أقرأ أحس كأنى انتقلت إلى عالم آخر غير البالات والأرقام . ولهذا كنت أضع الكتاب الذى أقرؤه قريباً منى لأعود إليه كلما وجدت فراغاً من العمل حتى أخرج به حيناً عن عالم البالات . وقد استمر دأبى على هذه العادة الجديدة فصرت أقتطع فى كل شهر جنيهاً أو جنيهين لأشترى كتباً جديدة كأنها جزء من عدة عملى .

وبدأت أتعرف على من هناك من العمال والموظفين وأنست إلى أكثرهم ما عدا مصطفى عجوة فقد كنت أحس فى قرارة نفسى شعوراً عميقاً بالكراهة له وسوء الظن به ، مع أنه كان يقذف نفسه على ويتودد إلى بطريقته السمجة التى تدعو إلى زيادة النفور .

وكان السيد أحمد يتلطف بى ويترفق بى معاملتى ولا يخاطبنى إلا باسم سيد أفندى ، وكثيراً ما دعانى إلى الجلوس معه فى مكتبه ، وهذا شرف

لا يناله فى المحلج أحد غيرى . كان مصطفى عجوه يدخل إليه فى المكتب فيقف إلى جانب حتى يتلقى أمره ثم يخرج ، وأما الموظفون الآخرون فكانوا لا يجرؤون على الدخول إلى مكتبه .

ولكنه كان أيضاً يكلفنى فى بعض الأحيان أعمالا تشبه الخدمة الخاصة فيبعثنى إلى البيت لأحمل إليه فاكهة أو لأوصل إليه رسالة أو نقوداً ، فكانت نفسى فى أول الأمر تثور على ذلك وكدت مرة أرفض طلبه لولا أن ملكت شعورى حتى لا أغضبه . ولكنى كنت أجد ترضية كافية تنسينى غضبى إذا صادفت منى فى الحديقة ، حتى صرت فيما بعد أشعر بالارتياح كلما كلفنى القيام بخدمة أذهب فيها إلى البيت . وكنت أجدها فى كثير من الأحيان تلعب مع بعض صاحباتها إذ يقفزن فوق الحبل أو يلعبن (الأولى) أو لعبة الانتباه ، فإذا رأتنى أسرعت إلى وأصرت على أن ألعب معها دوراً . وكان هذا يؤخرنى أحياناً ويعرضنى للوم السيد أحمد فلا أجرؤ على أن أقول له السبب فى تأخرى. وقد تعرضت مرة لموقف محرج من جراء إصرار (منى) على مشاركتها اللعب ، إذ ذهبت يوماً كالعادة إلى البيت أحمل فاكهة وتمسكت بى (منى) لألعب معها لعبة (الانتباه) وذلك بأن أحجل على رجل واحدة وهى تجرى أمامى فى حدود مربع مرسوم على الأرض . وأخذت أحجل بحماسة وهى تجرى وتزوغ منى حتى أكاد أقع واستمر الدور أكثر من عشر دقائق حتى استطعت أن ألمس كتفها . ولما التفت إلى ورائى وأنا ألهث من التعب وجدت السيد أحمد جلال واقفاً من بعيد ينظر إلينا ، فارتبكت ارتباكاً شديداً وشعرت بأن وجهى يتقد وذهبت نحوه أجرر قدمى ولا أدرى

ماذا أقول له . ولكن متى صاحت بى غاضبة تدعونى إلى إتمام الدور الثانى لتنتقم منى . فلما رأت والدها أسرعت إليه تطلب منه فى حماسة أن يتركنى حتى ألعب الدور الثانى فتبسم السيد وأخذها من يدها متجهاً نحو ميدان اللعب وقال لى « أكمل دورك يا سيد أفندى . وهذا جنيه يا منى للفائز منكما . » فصفقت منى مسرورة وبدأنا اللعب ولكنى لم أتحمس . فصاحت منى غاضبة وساعدها أبوها قائلا « يجب أن تبذل جهدك حتى يكون الانتصار حقيقياً » . فاندفعت فى اللعب بكل قوتى حتى تعبت منى ووضعت قدمها الثانية على الأرض بغير أن تمسنى . وسلمنى السيد الرهان وكان سرور منى بفوزى أضعاف سرورها بانتصارها على فى المرات السابقة . وقد عرفت فيما بعد أن مصطفى عجوة هو الذى سعى عند السيد أحمد جلال وجعله يتبعنى إلى المنزل ليرى أن سبب غيابى هو انشغالى باللعب مع منى ، فإنى عندما عدت مع السيد إلى المحلج سمعته يستدعى مصطفى عجوة ويشتمه بصوت مرتفع ويلعنه ويأمره بألا يرى وجهه مرة أخرى .

وجاء مصطفى عجوة بعد تلك المقابلة العاصفة وجعل يتودد إلىّ ويحلف لى أنه يحمل لى إخلاصاً لا حد له .

على هذا استقر عملى بالمحلج ، وزال عنى كثير من الشعور بنفسى وبضآلة وظيفتى ، وكان العمال والموظفون الآخرون يأنسون إلى كما صرت آنس إليهم ، لا يشذ منهم سوى مصطفى عجوة ، إذ كان يذكرنى دائماً بأنه ما زال الصبى الخبيث الذى كان يملؤنى غيظاً عندما كنا معاً فى زمرة حارة (أبى طاقية) .

وكان من عادة السيد أحمد جلال أن يحتفل فى كل عام فى شهر رمضان بإطعام العمال والفقراء وتوزيع الملابس عليهم فى ليلة العيد ، فلما مرت السنة الأولى من عملى بالمحلج عهد إلى السيد أحمد أن أقوم على تدبير ما يجب تدبيره لذلك الشهر من طعام وكسى ، بعد أن كان يكل ذلك إلى مصطفى عجوة .

فوضعت لذلك خطة توفرت على إحكامها ، وأظن أن السيد ارتاح إلى عملى فصار يعهد إلى بذلك فى كل عام كلما أقبل رمضان ، وكنت أجد فى قيامى به ارتياحاً شديداً لما فيه من البر ، كما كنت أغتبط بما فيه من دلالة على ثقة السيد بى واعتماده علىّ ، ولم أفطن إلى أن عملى هذا يثير على غيظ مصطفى عجوة إلا بعد عدة سنوات عندما وقعت حادثة صغيرة فى شهر من شهور رمضان المتعاقبة ، كان لها على صغرها أثر كبير فى تغيير اتجاه حياتى .

أقبل شهر رمضان فى أحد الأعوام المتتالية وأعددت العدة لما يجب له من كل شىء ، مهتدياً بتجاربى السابقة ، وتحريت أن أطرف العمال والفقراء بين حين وآخر بأنواع من طرف الطعام لأدخل على قلوبهم السرور . وكنت أقضى بعد الظهر من كل يوم فى تدبير شئون المطبخ ثم أمكث حتى الغروب فى خدمة الطاعمين حتى يفرغوا من الإفطار وأذهب بعد ذلك إلى بيتى لأفطر . وقد أتاحت لى ساعات وجودى معهم فرصاً كثيرة للاستماع إلى ما يقولون ولا سيما بعد أن صاحبتهم سنة بعد سنة وأنسوا إلى مودتى .

وبدأت أحاديثهم الصريحة عند ذلك تطلعنى على جانب عجيب من

الطبيعة الإنسانية لم أفطن لها من قبل وبدأت أتعلم حقًّا أن الناس كما يقولون « صناديق مقفلة » تخفى فى كثير من الأحيان ما فيها من الحقائق .

كنت يوماً أجلس فى حلقة من العمال حول إحدى الموائد بقصد مؤانستهم فسمعت أحدهم يتحدث ساخراً بالسيد أحمد جلال .

فقلت له فى رفق : إنه لا يستحق منك هذا يا صديقى .

فأجابنى فى دفعة : أتقصد أنه يطعمنا ؟

فقلت : لا أقصد ذلك بل أقول لك إنه صديق يعمل دائماً على إظهار مودته لنا . وما هذه الموائد إلا لفتة كريمة لا تستحق إلا الشكر .

فقال مستمرًّا فى سخريته : أى شكر يا عم ؟ هو يقطع من لحمنا ليطعمنا ، فدعنا نأكل لحمه ونقطع فروه .

وانطلقت عند ذلك ضحكة عالية من الحلقة كلها ، وكان لها وقع بشع فى نفسى . فقمت من بينهم وقلبى ثائر وصدرى منقبض حتى وصلت إلى بيتى فأفطرت بشىء يسير وأنا كاسف البال . وفى الليالى التالية عزمت على أن أسبر غور الحلقات الأخرى فكنت أستمع إلى فكاهاتهم ومناقشاتهم وتبينت أن السيد أحمد جلال لا يطعم إلا بطوناً جائعة . كانت قلوب الجميع لا تحمل له مودة ولا تجزيه فى قرارتها إلا بالسخرية أو الحقد .

وذهبت ذات ليلة كعادتى إلى بيت السيد أحمد جلال لأقضى السهرة بعد أن فرغت من تعهد إفطار الفقراء ، وكان السيد جالساً فى حلقة ضيوفه المعتادة . وسمعت أول ما سمعت من حديث الجالسين قول الشيخ القرش : ما رأيكم فى أن نسمى السيد أحمد جلال حاتم دمنهور ؟

فتعالت الأصوات بالموافقة وأخذ السيد أحمد يقول فى تواضع :
— أستغفر الله !

وكنت أعرف الشيخ القرش منذ نشأتى وهو تاجر عجيب الطباع بدأ حياته فلاحاً فقيراً ، ثم صار طالب علم بالأزهر ، ولكنه قضى عشر سنوات فى دراسة لم تفده شيئاً سوى عمامة كبيرة ، فاشتغل بالتجارة ، واتخذ لنفسه دكاناً صغيراً فى السوق يجمع فيه أنواعاً من البضائع لا صلة بينها ، من الطعام والبقول والملابس والأوانى ، كما جعل عند مدخله صندوقاً لبيع السجائر وآخر للمرطبات المثلجة . وكان يضع أمام دكانه بعض الكراسى ويجمع عليها بعض أصحابه فإذا جاء وقت الصلاة قام ليصلى بهم جماعة فوق الرصيف . وكان من أقواله المأثورة « القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود » كما كان يقول دائماً إذا سئل عن أصله « أصلك قرشك » . لهذا سماه الناس بالشيخ القرش وكان معروفاً بينهم بالحماقة والشراهة والرياء .

ولا شك أن وجهى كان ينم عن الغيظ عند ما سمعته يستمر قائلا قائلا للسيد أحمد .

— لسنا وحدنا نقول هذا ، لهؤلاء المئات من الفقراء يقولونه وهم يأكلون طعامك .

وكنت منذ أيام أفكر فى أن أتحدث إلى السيد أحمد فى إبطال هذه المآدب التى يقيمها ولا يجزى عليها بالشكر واقترح عليه أن يزيد فى أجور عماله بمقدار ما ينفقه عليها من الأموال ، فلما سمعت قول الشيخ القرش نظرت إليه حانقاً .

وأحس الرجل بمعنى نظرتى فاتجه إلى قائلا :

ـــ ما رأيك يا سيد أفندى ؟

فشعرت بأن لسانى يلتصق فى سقف حلقى ؛ وأن الدم يصعد إلى وجهى . أ أكذب وأوافقه ؟

ولما رأى الشيخ ترددى صاح فى حماقته :

ـــ هل يجرؤ أحد أن يكابر إلا أن يكون أعمى ؟

وانتهز مصطفى عجوة الفرصة فقال : العمى كثيرون يا مولانا .

فصاح الشيخ يخاطبنى فى غضب : أتنكر فضل السيد أحمد جلال ؟

فاندفعت قائلا فى غيظ : من الذى ينكر ؟ وما معنى هذا الغضب يا مولانا ؟

فاستمر قائلا : أهذا هو إخلاصك ؟

فشعرت بما يشبه الوخزة فى صدرى وقلت غاضباً : ما لك أنت وإخلاصى؟ أظن السيد يعرف المخلصين وغير المخلصين. ولكنك تريد أن تخدعه بهذا الملق يا سيدى الشيخ . كنت أتمنى او لم أكن هنا ولو لم أسمع كلامك هذا ، أو على الأقل كنت أتمنى ألا توجه إلىّ هذا القول الذى لا معنى له .

واتجهت إلى السيد أحمد قائلا :

ـــ ومع هذا فإنها مناسبة حسنة يا سيدى لأن أقول لك كلمة . أنت تعرف أنى أجلك كوالدى ، ولكنك لا تعرف حقيقة ما فى نفوس هؤلاء الذين تطعمهم بالمئات فى فناء محلجك . والفرق بين الذين يجلسون هنا والذين يجلسون هناك هو أن هؤلاء يتكلمون أمامك والآخرون يتكلمون

من خلف ظهرك . وأما أنا فإنى أسمع ما يقول الجميع .

وكان مصطفى عجوة جالساً فى ركن بعيد فسمعت صوته الأجوف يقول : ماذا تريد أن تقول يا سيد أفندى ؟

فغاظنى صوته أكثر مما غاظنى سؤاله ، واندفعت قائلا :

— لست أوجه إليك كلامى .

وقال الشيخ القرش : يريد أن يقول إن كل الناس كذابون .

فقلت مستمراً : لم أقل هذا يا سيدى الشيخ ، ولكنى قلت إن هناك من يقولون غير ما تقوله أنت وأصحابك لأنهم ينطقون بما فى نفوسهم بغير رياء .

فصاح مصطفى عجوة : فلسفة !

وقام الشيخ هائجاً وقال : بل وقاحة !

فلم أعبأ بما سمعت منهما وقلت مستمراً :

— هذا الإحسان الذى تقدمه يا سيدى طعاماً للناس يجعلهم يأكلون وهم يشعرون بسطوتك . هم يعرفون أنك تتفضل عليهم لكى يشكروك ، ولكنهم لا يحسون فى نفوسهم شكراً صادقاً ، بل أقول لك بالصراحة إنهم يقولون من وراء ظهرك مالا يقول هؤلاء أمام وجهك .

فعاد الشيخ إلى ثورته وجعل يهز ذراعه مهدداً وصاح متفجراً : هل جئت هنا لتشتمنا وتسفه أحلامنا وتتهمنا بالرياء ؟

فانفجرت كذلك قائلا : لست أجيب على هذه الألفاظ الرخيصة لأنها لا ترهبنى . أبطل يا سيدى هذه المآدب والولائم وإذا أردت الإحسان الصحيح فاجعل ثمن هذا كله زيادة فى أجر عمالك . دعهم يذهبوا إلى

بيوتهم ليأكلوا مع أولادهم ونسائهم وهم يشعرون أنهم مدينون لعملهم وحده. سيحرصون على عملك عند ذلك ويشكرونه لك كما يشكر الرجل الحر صاحبه .

الذين يركعون تحت قدميك ليشكروك على عطائك لا يحملون لك غير الرهبة . حرر قلوبهم من أسر الإحسان المذل ، ولا تستعبدها .

وكان وجه السيد أحمد يدل على شدة ضيقه وارتباكه وبدأت أشعر بأنى أسأت إليه إساءة كبرى . وغمرنى الخجل لأنى عرضته لمناقشة عامة لا شك فى أنها مست صميم كبريائه .

ووجدت أن بقائى هناك لا يزيد موقفى إلا حرجاً فقلت معتذراً :

ـــ أنا آسف يا سيدى على هذا الحديث كله وكنت أتمنى لو لم أتدخل فيه .

والتفت مسرعاً لأخرج وفى داخلى مرجل يغلى وعلى جسمى فيض من العرق .

ولما خلوت فى غرفتى تلك الليلة أخذت أفكر فيما أفعل فى الصباح التالى . أ أذهب إلى عملى أم أنقطع عنه ؟ وكان أول رأيى أن أنقطع لأن السيد أحمد لا بد أن يكون غاضباً على بعد ما حدث منى ، وحزنت حزناً شديداً لتورطى فى شأن كنت فى غنى عن التورط فيه .

ولكنى عدت إلى نفسى بعد قليل وقلت إنى لم أقترف فى حق السيد أحمد جريمة ألوم نفسى عليها . فقد كنت أحمل له إخلاصاً وولاء لا شائبة فيهما ،وأعرف أنه صاحب الفضل على وأنه يكرمنى ولاينبغى لى أن أحزن من أجل نصيحة صريحة قلتها له أبتغى بها مصلحته . لم أكن

متهما أمام ضميرى ولهذا عزمت على أن أخوض المعركة حتى نهايتها . واستقر رأيى على أن أبقى فى خدمته وأواصل عملى حتى يبدأ هو بالتخلى عنى إذا شاء .

وصاحبنى فى تلك الليلة إحساس قوى بالاعتزاز بأنى إنسان أستطيع أن أجهر برأيى ولا أتردد فى الثقة بنزاهة ضميرى . وكلما مرت بذهنى ذكرى هذه الليلة عرفت أنها كانت من اللحظات السريعة التى تمر بنا فلا نفطن إليها فى وقتها ولكنا نعرف فيما بعد أنها كانت لحظة خطيرة فيها مفرق من مفارق الطرق فى الحياة . بدأت أشعر منذ تلك الليلة بأن لى وجوداً وإن كنت لا أزيد على موظف بمحلج يكتب الأرقام على بالات القطن .

٣

عند ما ذهبت فى اليوم التالى إلى المحلج وجدت السيد أحمد جلال على عادته مهذباً سمحاً كأن لم يحدث شىء فى الليلة السابقة . فحمدت الله على الرأى الذى اهتديت إليه وزادت ثقتى فى الرجل وزاد شعورى بالولاء له . واستمر السيد فى تكليفى القيام بتدبير الطعام للعمال فى الأيام الباقية من رمضان ولم يكن لى أن أراجعه فى ذلك فما كان ينبغى له أن يقطع عادته فى أثناء الشهر بعد أن بدأها .

وبقيت فى عملى بعد ذلك شهراً بعد شهر لا أكاد أفطن إلى مرور الزمن إلا فى أول كل شهر إذا قبضت مرتبى . وقد زاد السيد أحمد ذلك

المرتب بعد بدء الموسم الجديد فجعله خمسة عشر جنيهاً ، وجعلنى وزاناً فاختفى شعورى بالصغر والتفاهة شيئاً بعد شيء .

وكان العمل فى أيام الخريف والشتاء لا يدع لى فرصة كبيرة فى القراءة لأنى كنت أعمل طول النهار إلى المساء بغير راحة إلا ساعة قصيرة عند الظهر . وصار السيد أحمد لا يكلفنى الذهاب إلى البيت لقضاء الخدمات الصغيرة فلم أذهب إلى هناك إلا مرة واحدة فى مطالع الربيع لأحمل هدية جاءت إليه من أحد أصدقائه فى الإسكندرية ، وهى علبة بديعة الصنع من قطيفة الحرير يدل مظهرها على أنها تحتوى على حلية ثمينة . وذهبت إلى البيت وكنت لم أقابل منى منذ شهور وكان يوماً من أيام مارس والهواء الدافئ يعلن أن الحياة بدأت تدب فى الكون . كانت أعواد الأشجار وأوراقها الرطبة والأزهار المتبرجة بألوانها الزاهية وروائحها العطرة تقول « هذا هو الربيع » . وكانت الطيور المرحة كذلك تتواثب وتزقزق وتغنى قائلة إن الحياة تجدد شبابها . ورأيت منى فى الحديقة تتمشى فى ساعة العصر بين ظلال الشجر وحدها . لم تكن تلعب كما اعتادت ولم تسرع إلىّ صائحة مرحبة كما كانت تفعل من قبل . كانت فى ذلك اليوم مثل زهرة الفول الأنيقة الناضرة إذا بللها الندى فى الصباح . وكان عليها ثوب من الحرير الأبيض ووجهها البارع الحسن يزينه كأنه جوهرة . كان لون وجهها الوردى ولون عينيها اللازوردى وشعرها المتموج الذهبى ، كان كل ذلك يبدو أروع من كل مناظر الربيع الجديد . ولما رأتنى أحنت رأسها بابتسامة صغيرة فذهبت إليها لأحييها ، ومدت إلى يدها فى هدوء ، ولأول مرة نظرت إلى وجهها متأملا .

رأيتها مثل وردة كانت في المساء ناعسة فى كمها ثم تفتحت فى الصباح عن تمامها وزينتها أسرار الطبيعة المتفننة فى الإبداع . وجدتها أمامى فجأة وهى فتاة لا طفلة ، وكانت نظرتها صريحة كالعادة ، ولكن عينيها كانتا فى لون البحر الصافى العميق . فوقفت أمامها مبهوتاً أتأمل صورتها كأنى لم أرها من قبل . ولما مددت إليها يدى بالهدية التى أحملها ، لم ابتسم ولم أنطق بكلمة بل إنى لم أجب على سؤالها « ما هذا » ؟ ، وارتبكت وخشيت أن تسمع دقات قلبى . وما كادت تأخذ العلبة وتفتحها حتى هممت بالانصراف . ونظرت منى إلى الحلية ونطقت بصيحة إعجاب خافتة ، ثم نظرت إلى لتشكرنى . وشعرت بأن وجهى يتقد حمرة ، ولم أجد وسيلة للخلاص من ارتباكى إلا بأن أنطق بتحية قصيرة ثم انصرفت ووليتها ظهرى. وما كدت أصل إلى الباب حتى هبت على عاصفة شديدة من الحنق على نفسى ، ولم أعد أرى شيئاً أمامى . وسرت فى الطريق كأننى هباءة تضل فى فراغ حتى عدت إلى المحلج وأغرقت نفسى بين أكياس القطن فى شىء يشبه الحنق وأخذت أكتب الأرقام تارة وأزن الأقطان تارة أخرى لا أدع لنفسى فراغاً حتى أظلمت الدنيا .

ولما ذهبت إلى بيتى فى تلك الليلة شهدت معركة من أعنف المعارك التى اضطربت فيها خواطرى ، كيف وقفت أمام منى هكذا كالصنم الأبكم لا أنطق ولا أتحرك ؟ أليست هى منى الصغيرة التى كنت ألعب معها لأدخل السرور إلى قلبها . ولكن ما لقلبى كان يخفق كالمجنون وأنا أنظر إليها ؟ وكانت صورتها تتمثل لى وعطرها ينفذ إلى أعماق صدرى وعيناها تشعان بالنور فى خيالى ، وأصداء صوتها الهادئ تتردد فى سمعى

مثل أنغام الموسيقى . وخطر لى سؤال عجيب فى ثنايا خواطرى « ليت شعرى كيف أبدو فى عينيها ؟ » ثم حنقت على نفسى وعدت إليها ألومها على ذلك السؤال الأحمق ، وحاولت أن أصرف ذهنى إلى شىء يشغله عن تلك الخواطر العقيمة فأخذت أقرأ ، ولكنى لم أفهم سطراً مما قرأت . ثم أخذت أكتب أشعاراً ولكنى كنت أسرع إلى تمزيقها ساخطاً على حماقتى

وطلع علىّ الصباح بعد إغفاءة قصيرة فى آخر الليل وكنت أكثر هدوءاً ، ولكن إحساساً جديداً أو قلقاً جديداً دب إلى نفسى وهو الرغبة فى أن أترك الخدمة بالمحلج . وقضيت سائر اليوم غائباً فى أحلام اليقظة ، أفكر فيما يمكن أن أشتغل به من الأعمال إذا تركت عملى بالمحلج وتساءلت مراراً « لماذا لا أستقل بتجارة أكون فيها صاحب عمل لا موظفاً صغيراً فى محلج ؟

لماذا لا أكون مثل السيد أحمد جلال الذى بدأ حياته فقيراً مثلى ، ثم استطاع بكده أن يبنى لنفسه تجارة عظيمة ؟ .

وقد استولت على هذه الفكرة الجديدة فصارت أمنية دائمة منذ ذلك اليوم ، تخبو أحياناً وتبدو أحياناً ولكنها دائماً هناك فى أعماقى .

وكنت أترقب بعد ذلك أن يبعثنى السيد أحمد إلى بيته لتأدية خدمة لعل عينى تقع مرة أخرى على منى ولكنه لم يطلب إلى خدمة لمدة أشهر طويلة حتى شق الأمر على مع كل ما حاولته من صرف فكرى عن تلك الأمنية وتسخيفى لها . كنت دائماً أذكر منى وهى تسير تحت ظلال الشجر فى ساعة العصر وشعرها الذهبى يشبه أشعة الشمس المضيئة .

ومرت أيام الموسم من ذلك العام فاتسع وقت فراغى واشتدت على

وطأة الفكر ، فكنت أقرأ كثيراً وأكتب كثيراً وأخرج إلى الحقول لألهو عن التفكير فى منى ، ولكنى كنت دائماً أخرج من الميدان منهزماً . وكثيراً ما كان قلبى يحملنى على الحماقة فأتعمد المرور من أمام بيت السيد أحمد فى ذهابى إلى خارج المدينة لعلى ألمح منى من بعيد ، فكنت إذا لمحتها يوماً عدت إلى بيتى كأننى أطير على الهواء وأتصبر بالسعادة التى فزت بها عدة أيام ، وأما إذا لم أفز بتلك اللمحة ذهبت إلى الحقول كئيبا لأنفس عن قلبى بجولة طويلة .

وحدث يوماً أننى خرجت إلى شمال المدينة فمررت بمنزل أنيق له سور من أشجار شائكة تتسلق عليها أعواد مزدهرة ذات أزهار بديعة الأشكال والألوان . وهزنى ذلك المنظر حتى وجدت نفسى أسبح فى خيالى فلم أتنبه إلا على صوت بوق يصيح من ورائى ، فالتفت فإذا هى عربة كبيرة تكاد تدوسنى . فأسرعت إلى جانب الطريق فى شىء من الغيظ ولكنى ما كدت أبصر من فى داخل العربة حتى وثب قلبى دهشة وسعادة . كانت منى هناك تبتسم ولوحت لى بيدها ، ثم انطلقت بها العربة وأنا ثابت فى مكانى . كانت هناك مثل الأزهار التى بدت لى منذ لحظة فوق السور العالى الشائك ، تبتسم ولا أستطيع أن أصل إليها . وتعلقت عينى بالعربة حتى اختفت عنى ثم سرت على الطريق وقلبى يدق عنيفاً وأنفاسى تضطرب . وعادت العربة بعد حين وأنا ما أزال فى طريقى ، فلما اقتربت منى هدأت سرعتها فاتجهت إلى منى وكانت لحظة من أسعد لحظات حياتى ، إذ رأيتها تلوح بيدها نحوى وتبتسم فى مرح . وقد بقيت هذه الصورة عالقة بخيالى لا أنساها ، وهى ما تزال محفوظة عندى فى القطعة

الشعرية التى ألفتها تلك الليلة بعنوان « زهرة السور العالى » .

ومر على ذلك الصيف فى غمرة لا أكاد أتنبه فيها إلى شىء غير صورة منى ، حتى بدأ الموسم الجديد وبدأت أعود إلى أكياس القطن المكدسة فى المحلج ، وعاد إلى قلقى وضيقى من العمل الرخيص الذى حبست نفسى فيه ، وهل أهون من وزان فى محلج ؟ كانت هذه الفكرة تعذبنى فى الصباح والمساء وتزداد بى قسوة كلما اقترنت بها صورة منى .

وفى يوم من الأيام طلب منى السيد أحمد أن أحمل إلى البيت مبلغاً من الجنيهات (الفكة) ، وكان الوقت ظهراً والجو مطيراً فكنت واثقاً أن منى لا تكون فى مثل هذه الساعة فى الحديقة ومع هذا فإنى كنت سعيداً بأن أذهب إلى البيت ولو لم أرها . ودققت الجرس عند باب المنزل الداخلى ، لأدعو الخادم ، وانفتح الباب ، وظهرت أمامى منى نفسها . وكان وجهها يضىء بابتسامة هادئة وعيناها تشعان بالنور الصافى الذى أعرفه وصاحت صيحة خافتة : سيد !

ولم يسعفنى النطق لأن دقات قلبى عوقت لسانى فمددت كلتا يدى نحوها قائلا :

ــ مفاجأة سعيدة .

ثم أرتج على فلم أجد كلمة أخرى ، فأخرجت ظرف النقود من جيبى وقدمته إليها .

فقالت ضاحكة وهى تأخذ الظرف :

ــ هى حقاً مفاجأة سعيدة ، هذا إسعاف أشكرك عليه لأنى مفلسة ، واليوم عيد ميلادى ، وعندى وليمة لبعض صاحباتى .. وكنت أسأل نفسى

من ذا يشترى لى فاكهة ممتازة فهل تحسن الاختيار يا سيد ؟

فقلت سعيداً : ليس أخبر منى بأصناف الفواكه يامنى . وكانت دقات قلبي قد هدأت قليلا واستطعت أن أستمر قائلا :

— وأرجو أن تقبليها هدية منى لعيد ميلادك .

فقالت فى بساطة : أشكرك . لسنا عدداً كبيراً . أقة واحدة من التفاح وأخرى من الكمثرى ، وبعض وحدات من البرتقال . دعنى أذهب لأدرك الكعكعة قبل أن تشيط .

وأحنت رأسها باسمة ثم انصرفت مسرعة . ولو كانت السماء مفتوحة عند ذلك لانطلقت إليها لأن الأرض كانت لا تسعنى . وسرت فى الطريق والهواء البارد يرحب بى ونور السماء الخافت يبتسم لى والرذاذ المتساقط يرف على وجهى رفيقاً والكون كله يغنى . وكان المطر يتزايد وأنا سائر حتى صار يهطل عند ما وصلت إلى السوق . وملت على دكان فاكهى فأخترت أحسن ما عنده وبعثت به الصبى إلى بيت السيد أحمد بعد أن نفحته بقطعة من ذوات القرشين وطلبت منه أن يعود إلى فى القهوة المجاورة بعد أن يوصل الفاكهة إلى البيت . وكانت تلك القهوة مكاناً مختاراً لكثير من زملائى فى المحالج ورأيت جمعاً منهم يضحكون بأصوات عالية حول اثنين منهم يلعبان النرد . وكان جو القهوة خانقاً ولكنه كان دافئاً فخلعت سترتى ونصبتها على كرسى لتجف من أثر المطر ثم جلست وحدى على منضدة بعيداً عن الزحام ، وطلبت فنجاناً من الشاى لأستدفئ . وبعد قليل عاد صبى الفاكهى وأعطانى ورقة صغيرة فيها كتابة باللغة الفرنسية : « ألف شكر » وتحتها الاسم العزيز « منى » . وقرأت الورقة مراراً ثم

دسستها فى جيبى وأعطيت الصبى قطعة أخرى من ذوات القرشين ففرح بها وابتسم بسمة عريضة ورفع يده إلى طرطوره مسلماً وجرى خارجاً . فأخرجت الورقة من جيبى وجعلت أنظر فيها وكان خطها أنيقاً نظيفاً واضحاً صريحاً أو هكذا تصورته وأنا أرى فيه صورة منى كأنها زنبقة . وأخذت أشرب من الشاى الساخن وأنا أردد بصرى فى الورقة مستغرقاً فى تأملها حتى تنبهت على حركة فى الناحية الأخرى من المنضدة فالتفت فى غير اهتمام لأرى أمامى وجه مصطفى عجوة باسماً بسمته الكالحة فانقبض صدرى وأسرعت إلى دس الورقة فى جيبى وعدت أشرب من الشاى فى صمت . وكنت لم أجتمع به منذ ليلة رمضان العاصفة ، فخطر لى عند ما وقعت عينى عليه أن أسرع فى شرب الشاى ثم أنصرف إلى منزلى لأتغدى ثم أعود إلى المحلج .

ولكنه شرع يحدثنى فقال :

ـــ أأنت غاضب منى ؟

فلم أجبه ، وأخذت أرشف بقية الشاى ، ولكنه لم يخجل وعاد يحدثنى مخلطاً بأقوال شتى تافهة لا تعنينى . ومن العجيب أنى بدأت أستمع إلى أقواله بشىء يشبه الرضى أو الارتياح إلى استطراده من موضوع إلى آخر . وأعجب من ذلك أنى بدأت أرد عليه وأبادله الحديث بعد دقائق . وكان منظر وجهه الغليظ الأزرق بما فيه من حفر صغيرة يشبه فى عينى قطعة عجيبة من صنع الطبيعة وخيل إلى أنه من قبح تفاصيله يستهوى البصر فى مجموعه . وما زال يستدرجنى فى الحديث حتى سألنى :

ـــ أتعرف محمود بن محمد باشا خلف ؟

وكان سؤالا غريباً لا موضع له ولكن غرابته جعلتني أتطلع لما بعده .

فأجبته قائلا : «كان تلميذاً معي في المدرسة.» وكان محمود هذا صبياً سخيفاً مغروراً غبياً ، تعود أن يرشو جيرانه ليملوا عليه الإجابة ، وكان كلما قابلنا فتح لنا كفيه قائلا : «انظروا إلى هذا الوسخ الذي في يدي . إنه صدأ الذهب الذي في خزانة أبي.» فكنا كلما لقيناه بدأناه قائلين : «أرنا كفيك يا محمود» فيفتحهما ويعيد كلمته المعروفة . وكنا نضحك منه كثيراً وهو مغتبط بضحكنا . وكان ثرثاراً كثير الادعاء يفاخرنا دائماً بأنه يأخذ كل يوم دروساً خاصة في منزله . وكنت أتمثل صورته باسماً عند ما قال مصطفى :

ــ حظوظ يا سيد أفندي . الدنيا حظوظ .

وخبط بيده على المنضدة كأنه حانق .

فقلت له : ماذا تقصد ؟

فقال في همس : ألم تسمع بما حدث ؟

فثار تلهفي على السماع وقلت في اهتمام : ماذا حدث ؟

فقال وهو يصرف وجهه عني : النهاية يا سيد أفندي . لا فائدة .

فزاد قلقي وقلت في ضيق : ماذا حدث ؟

فقال محدقاً في وجهي : مني !

وكانت مفاجأة غير منتظرة ، وكان الخبيث يرقب كل حركة من حركاتي وانفلتت مني شبه صرخة وارتسم على وجهه ما يشبه التشفي واستمر قائلا :

ــ ما لنا نحن يا سيدي ؟ أما قلت لك إنها حظوظ ؟

وحاولت التراجع فتمالكت نفسى بعد أن أحسست بما فرط منى ولكن الخبيث استمر يتحدث كأنه يتعمد إثارتى فقال :

ـ محمود الذى خرج من المدرسة قبل الابتدائية ! محمود الذى يعرف الجميع أنه لا يساوى مليما ، محمود الذى لا يعرف من الدنيا شيئاً سوى اللعب والنزهة ! يا سلام يا ناس ! مصائب يا سيد أفندى ، والدنيا حظوظ . نولد للهم والغم والتعب ومحمود للعز والسيادة والنعمة ويتزوج منى بنت السيد أحمد جلال !

فصحت فى غيظ : من قال هذا ؟

فاستمر يقول : يا سيدى قلت لك حظوظ فلنكن نحن فى حالنا . نحن نكسب لهم وهم يركبون ظهورنا .

أنت تعجبنى والله يا سيد أفندى لانك تعرف كيف تكلم هؤلاء بالصراحة . أعجبتنى عند ما تكلمت مع السيد أحمد جلال فى رمضان . معلوم كلهم أنذال وعصابة منافقين . ولكن مالنا نحن ؟ النهاية هذه فرصة لأقدم لك اعتذارى لأنى كنت أحب أن أقدم لك هذا الاعتذار من قبل العيد . تقول جبان ، تقول منافق كما تشاء ، ورزقى على الله . ولكنى والله مخلص لك ، ولولا أنى سمعت الخبر بأذنى . . . . . سمعته بأذنى عند ما كان الباشا فى المنزل . كانت البنت الفلاحة تحمل القهوة وسمعت هذا الكلام ، ونقلته إلى حرفياً . أراك مهموماً يا سيد أفندى .

فقلت متزعجاً : ماذا تقصد ؟ ولماذا أكون مهموماً ؟

فقال ضاحكاً فى خبث : على أنا يا سيد أفندى ؟ معذور والله إذا كنت تحزن .

فقلت فى دفعة : وماذا يهمنى ؟

فقال : أنت تسىء الظن بى دائماً . أنا أتمنى لك خدمة وأنت لا تثق فى أبداً . ولو كان غيرك ما كنت أهتم أبداً ولكنك لا تصدق . السيد أحمد جلال يقدرك يا سيد أفندى ولو كان غيرك قال كلمة واحدة من كلامك فى ليلة رمضان . . . . كان طار فى ساعتها . هو يحبك بالتأكيد ويثق فيك وهو على حق. وهى أيضاً بغير شك يا سيد أفندى .

وشعرت كأن حجراً صدمنى وعجبت كيف ساقنى هذا الخبيث إلى هذا المدى فى الحديث . وتمنيت لو أننى انكمشت حتى أختفى من وجهه السمج أو أن أقوم مسرعاً وأتركه ورائى ولكنى مع ذلك بقيت جالساً مهتماً بسماع كل ما عنده ، كأن شيئاً يمسكنى برغمى . ولست أدرى ما الذى سل منى الإرادة وعقد لسانى فلم أتحرك ولم أتكلم بل نظرت إلى وجهه الغليظ جامداً كأنى فى كابوس ثقيل . وأعاد كلمته قائلا :

— قلت لك الدنيا حظوظ . دعنا نحن فى بؤسنا .

ووجدت نفسى أندفع قائلا :

— اسمع أيها الوغد . أعرف أنك لا تريد إلا أن تملأ قلبى غيظاً بهذا الحديث وأحب أن أملأ قلبك الأسود غلا وحقداً ، اعلم إنى لا أهتم بشىء مما تقول ولا أعبأ بمحمود ولا بغير محمود ، وأشعر بأنى لا أقل عن أحد ولا يهمنى ما تقول إن الدنيا حظوظ . قل عن نفسك ما تشاء ولكن لا تحشرنى معك . هل تظن أنى أقل من أحد ؟

ما معنى حظوظ وغير حظوظ ؟ لو كنت أريد . . . . وترددت فلم أنطق بما كنت أريد .

فقال مصطفى : الحق على يا سيد أفندى . هذا جزاء المودة والإخلاص الحق على يا سيدى والناصح دائماً مكروه .

فقلت : ما الذى جعلك تتكلم عن محمود خلف ؟ ولماذا تقول لى إن الدنيا حظوظ وإننا بؤساء . كن بائساً أنت إذا شئت ولكنى لا أرى أنى أقل من أحد . وهل يبعد أن أصير غنياً أنا الآخر ؟ لماذا لا أكون غنياً مثل السيد أحمد نفسه .

فضحك ضحكة عالية وقال فى وقاحة :

— قريباً يا سيد أفندى . لا مانع أبداً . تشجع وأسرع قبل فوات الوقت .

ولولا أنى خشيت من لفت أنظار من فى القهوة ومن تناقل الأحاديث الكاذبة وإثارة قصة طويلة فى المدينة ، لقمت إلى ذلك الوغد وأفرغت فيه غيظى بطريقة لا ينساها ، ولكنى بلعت شتائمى وكتمت حنقى وقمت من مجلسى مسرعاً فلبست سترتى وخرجت بغير أن أنظر إليه . وكان المطر ما يزال يقطر فسرت فى الطريق لا أحس برداً ولا أبالى المطر ولا الوحل وفى عقلى سؤال واحد منشعب وهو « أحقاً خطبها محمود خلف ؟ وهل يرضى أبوها ؟ هل ترضى هى ؟ أهى جارية تباع من أجل ثروة الباشا ؟ » .

ولما صرت فى غرفتى أخرجت من جيبى قصاصة الورق التى بعثتها منى وأخذت أقرؤها وأعيد قراءتها وأنا حزين بائس . ثم قبلتها ووضعتها مترفقاً فى ظرف وجعلتها فى مصحف صغير أضعه فى درج مكتبى .

وجاءت أمى تدعونى للغداء فكذبت عليها قائلا إنى أكلت ، وقمت

إلى سريرى فأستلقيت متعباً مضطرباً فى حالة بين النوم واليقظة تشبه الذهول أو الدوار . وأخذت الرؤى تتوالى على كأنها حقائق . فرأيت كأنى أعوم فى بحر صاف أشق ماءه فى رفق وهدوء ، ثم كان البحر يتحول فجأة إلى هواء أسبح فيه مثل الطير ويملؤنى شعور بالاستعلاء وأنا أشرف على الأودية والجبال فى اطمئنان ثم تهب عاصفة فأجد نفسى أجاهد فى موج عال له رؤوس بيض تشبه أكوام القطن وتعلو فى أنفى رائحة عطنة تشبه الروائح التى أعرفها فى حارات دمنهور بعد نزول المطر ، فأكاد أختنق وأقوم من غفوتى لاهثاً . ولكنى لا ألبث أن أرى كأنى فى براح واسع فى آخره حديقة مزدهرة أريد أن أذهب إليها فإذا لصوص يخرجون على ويهاجموني ويتقدم منى أحدهم بوجه غليظ يريد أن يطعنى بخنجره ويحاول أن يأخذ منى الورقة التى بعثها منى ، فأهجم عليه وأنزع منه الخنجر وأرفعه لأضربه فيصيح صيحة عالية بصوت مصطفى عجوة فأقوم منزعجاً . ثم أعود مرة أخرى فتبدو لى منى من بعيد فأسرع نحوها لأعتذر إليها ولا أدرى لماذا أعتذر فأقف أمامها صامتاً أمد إليها يدى ولكنها تختفى فأشرد وراءها فى اتجاهات شتى حتى أرى باباً مغلقاً فارتد عنه حانقاً ولكنى أجد الأرض زلقة فأحاول أن أقفز منها إلى سطح رخامى أسفل منى بنحو مترين فأرى كلاباً غريبة الشكل مخيفة تنظر نحوى مهددة فاستيقظ وقلبى يخفق خفقاناً شديداً . وكان المساء قد بدأ يهبط بظلامه فوثبت من سريرى لأوقد المصباح وسمعت صوت أمى تنادينى :

— أصحوت يا سيد ؟

وفتحت الباب قائلة :

ـ قم لتذوق الكعكة التى أرسلتها منى . يارب يا ابنى أعيش حتى أرى لك عروساً مثلها . قم معى فقد جهزت الشاى حتى لا يبرد .

فقمت آخذاً بذراعها وكنت سعيداً لأقوم من غفوتى على هذه البشرى . هدية منى ؟

وقلت لأمى : أنت أجمل الأمهات جميعاً .

وأنحنيت لها باسماً ، وأشرت إليها إشارة متأنقة لتجلس فى صدر المائدة . فجلست تضحك ضحكتها الطيبة وجسمها يرتج وأخذت تدعو لى

وقلت : أين منيرة ؟

فقالت : نسيت أن أقول لك . ذهبت مع منى .

فقلت فى دهشة : منى ؟

فقالت أمى وهى تضحك : والله يا ابنى أصبحت مثل أمى المرحومة : أقول أول الكلمة وأنسى آخرها . أما قلت لك إن منى جاءت إلى هنا ؟ ولما رأتنى انحنت على يدى وطلبت أن تذهب منيرة معها . قلت لها « هى أختك يا حبيبتى » وذهبت معهما لأوصلهما إلى العربة عند أول الحارة .

وكانت سعادتى بهذه الزيارة التى لم أنتظرها تعادل أسفى على أنى لم أكن متيقظا لأستقبل منى .

ومددت يدى بالطبق لتقطع لى أمى نصيباً من الكعكة ، وذهب عنى أثر تلك الأحلام المزعجة التى أفزعتنى . وكانت الكعكة من ألذ ما ذقته فى حياتى كما كان الشاى عطراً منعشاً ، وجاءت منيرة قبل أن نقوم عن المائدة فأخذت تقص علينا حديث الحفلة التى دعيت إليها ، وكانت هى

الأخرى سعيدة بأن جددت عهدها بصديقة طفولتها .

وذهبت فى اليوم التالى إلى عملى فى المحلج بقلب خفيف وكان ضغط العمل شديداً ولكنى لم أشعر منه بتعب ولا ضيق . ولم أعبأ بمصطفى عجوة الذى كان فى ذلك اليوم على غير عادته يتظاهر بالسلطان ويسير هنا وهناك بين بالالات القطن صائحاً بالعمال شاتماً مؤنبا كأنه يريد أن يقول « أنا هنا » .

ولما أوشك عمل الصباح أن ينتهى جاء مصطفى إلى ووجهه يلمع أكثر من عادته وقال لى بصوته المجوف :

ــ ألا تحب أن تشرب معى كوباً من الشاى ؟

وكان أول خاطر هم بنفسى أن أقول له « امش من هنا » ولكنى لم أجبه ومضيت فى عملى صامتاً . فعاد قائلا : عندى كلام هام أريد أن أقوله لك » . فثار الفضول فى نفسى برغم اشمئزازى منه وقلت له :

ــ ليس عندى غير ربع ساعة .

فقال ضاحكاً : بركة . يكفينى الشرف يا سيد أفندى .

وانتظر حتى فرغت مما فى يدى وسار معى واضعاً يده تحت ذراعى كأحسن ما يكون الأصدقاء . ولما دخلنا إلى قهوتنا المعتادة صاح بالخادم :

ــ اتنين شاى !

وجلست إلى الجانب الآخر من المنضدة متحفزاً له بكل أعصابى كأنى أعتزم منازلته .

وبدأ قائلا : عندى لك نصيحة يا سيد أفندى .

فصحت متعجباً : هل جئت معك لأسمع نصائحك ؟

فقال باسماً : لا تغضب قبل أن تسمع . هى نصيحة إذا أردت وإلا فهى بشرى . خبر سار تعمدت أن أقوله لك لأبرهن لك على صدق مودتى وإن كنت أعرف أنك لا تصدقنى . النهاية اعمل الجميل وارمه فى البحر . على فكرة . لماذا لم تقل لى السلام عليكم وأنت منصرف بالأمس

وضيقت عينى وأنا أنظر إلى وجهه فاحصاً ولم أنطق بحرف واستمر هو يقول :

ـــ النهاية يا سيدى على رأى الشاعر « تظهر لك الأيام ما كنت جاهل » .

وضحكت برغمى قائلا : وتحفظ الشعر أيضاً ؟ قل لى أولا ما هى نصيحتك يا مصطفى .

فقال : عند ما تركتك بالليل كان قلبى يتألم من أجلك وإن كنت تركتنى بغير سلام . ما علينا . وفكرت طول الليل فى شأنك والطريقة التى يمكن بها أن أخدمك وأزيل ما عندك من سوء الظن بصديقك . الشاهد أنى عند ما جئت اليوم فى الصباح كان كل ذهنى يفكر فى مسألة سيد أفندى .

فقلت ساخراً : مسألتى ؟ وما هى ؟

وجاء الخادم عند ذلك يحمل كوبين من الشاى فاتجه إليه مصطفى وطلب منه قطعتين أخريين من السكر وكوباً من الماء . ثم أخذ يقلب الشاى بالملعقة فى بطء وذاق منه رشفة قبل أن يتكلم .

قال : أنت تعرف أنى الساعد الأيمن للسيد أحمد جلال .

وانتظر ليسمع رأيى فلم أجد ضرورة لتكذيبه .

فاستمر قائلا : أنا هنا فى المحلج من عشر سنوات قبل أن تدخله أنت . ولولا ملاحظتى ومراقبتى وخوف العمال منى كان الناس أكلوه وشربوه .

ورشف رشفة طويلة من كوب الشاى كأنه يقول « شربوه هكذا »

ثم قال : والسيد أحمد يثق بى ثقة تامة لأنه يعرف أنه يضيع لو ترك أعماله لغيرى : هو يعلم أنى أخدمه مجاناً . نعم مجاناً . ستة جنيهات فى الشهر لا تساوى ثمن عشرين رطل قطن يأخذها أحد العمال فى جيبه . الشاهد ! انتهزت فرصة جلوسه وحده فى المكتب وأخذت أجس لك نبضه .

ففزعت وقلت فى دفعه : لماذا ؟

فرشف رشفة أخرى من الشاى ثم قال :

— هل يغضبك أن أجس لك نبضه من أجل منى ؟

فوثبت قائماً من الغيظ وقلت : هذا لؤم .

فقال غاضباً : عدنا إلى الشتم ؟ الحق على ياسى سيد ولا داعى للكلام .

وهم بالقيام .

فقلت له فى دفعه : من أذن لك أن تتكلم عنى ؟

فقال : لم أتكلم عنك يا سيدى . اجلس من فضلك وأسمع أولا . وأى عيب فى أن أتكلم عنك ؟

ووجدت أن الأمر أخطر من أن أغضب هكذا وأنصرف بغير أن أعرف قرار هذا الخبيث ومدى ما دبره لى من الكيد

فجلست عازماً أن أملك نفسي حتى أعرف كل ما عنده .

وبدأ يتكلم : ألم تقل لى يا سيد أفندى إنك لا تقل عن محمود خلف ألست ترى أنك لست أقل من أحد وأنك أولى بها ؟ لماذا لا تكون فى يوم من الأيام مثل محمود خلف وأحسن منه ؟

وهل من العجب أن تحب منى وتريد أن تتزوجها ؟ الحق على يا سيد أفندى وسأتعلم أن أكون فى حالى ولا أهتم بأحد .

وكاد قلبي ينفجر من الغيظ ولكنى لم أتكلم . وأخذت كوب الشاى لأشغل نفسى به حتى لا أظهر اضطرابى .

ومضى هو يقول : قلت للسيد إنك شاب طيب ومن أسرة طيبة والسيد أحمد نفسه يقول أنه يعرف والدك وعملك ، الذى كان حكمدار المديرية . هل كنت أنا أعرف هذا ؟ فقلت إنها فرصة لأودى لك خدمة وأظن أنى نجحت . قلت له إن الفقر والغنى من الله . وأنك ستكون غنياً فى يوم من الأيام ولم لا ؟ ألم يكن هو الآخر فقيراً . ولما وجدت أنه لم يغضب قلت له أيضاً إنك تحمل شهادة الثقافة ولمحت له أن الزواج يجب أن يكون على أساس المحبة .

فوثب قلبي إلى حلقى وقمت واقفاً وقلت له :

ــ اسمع يادون ، لا تحسب أنك طعنتنى أو قدرت لى على أذى . وأحب أن أقول لك كلمة أخرى لعلهاتنفعك إذا نقلتها للسيد أحمد جلال .

وبدلا من أن يغضب مد يده إلى القطعة الباقية من السكر ووضعها فى فمه وشرب عليها بعض الماء وجعل يمصها وهو يقول : « عجيبة يا سيد أفندى » ولولا خشيتى من أن أحدث فضيحة لهشمت أنفه الغليظ بقبضة يدى وقلت له :

ـ أعلم أن إيقاعك عند السيد أحمد لا يهمني . ولن أدافع عن نفسى وسأنتظر صامتاً حتى أرى النتيجة . أنت تريد أن توقع بيني وبين الرجل لأمر فى نفسك . هذا خبث قديم لا أجهله . ولكن قد ينفعك أن تعرف أنى لست عبداً مثلك . ولو صدق هذا الدس الذى تدسة لى لكنت سعيداً أن أترك محلجه . ولن أبقى فى محلج السيد أحمد جلال يوماً واحداً إذا صدق كلامك ، أهذه أقوال تنفعك ؟

ونظرت إليه نظرة نارية وانصرفت من القهوة وقلبى يغلى . واتجهت إلى منزلى فلم أعد إلى المحلج حتى أنتظر النتائج بغير أن أحرك ساكناً . وقلت لنفسى أن أكبر ما أخشاه أن يطردنى السيد أحمد . ولمحت فى قلبى لوناً من السرور عند ما فكرت فى هذا لأتخلص من عملى فى المحلج بغير أن أكون أنا البادئ بالقطيعة . فلماذا لا أبدأ بالتجارة وقد تجمع لى أكثر مما كان عند السيد أحمد عند ما بدأ بالتجارة ؟ وقضيت ذلك اليوم والليلة التى بعده أحاول أن أشغل نفسى بشيء عن التفكير فى نفسى . فأخذت أقرأ حيناً وأكتب حيناً آخر ولكن فكرى كان دائماً يعود إلى التجارة . لماذا لا أبدأ من الغد بأن أشق طريقى فى الأسواق ؟ عند ذلك فقط أستطيع أن أتقدم إلى السيد أحمد جلال وأقول له ما أشاء . ولكن ألم يخطبها محمود خلف ؟ هل خطبها حقاً ؟ وهل يمكن أن تحدث خطبتها هكذا بغير أن يعرف عنها أحد شيئاً سوى مصطفى عجوة ؟ وجعلت أستعرض المشروعات التى يمكن أن أبدأ التجارة فيها. جنيهات قليلة هى التى فى يدى . وماذا تكفى ؟ هل أذهب إلى الأسواق لأشترى بعض القطن بالرطل والرطلين والعشرة ثم أبيعها ؟ كان هذا ممكناً منذ خمسين سنة

وكان كافياً ليصبح السيد أحمد جلال غنياً . ولكن لماذا لا أحاول ؟ ومن يدرى ؟

وخرجت من منزلى هائماً فى المدينة وما حولها متلفتاً حولى إلى المتاجر وإلى وجوه المارة . لماذا لا أضرب فى الحياة مثل هؤلاء ؟ هل كل هؤلاء يعملون فى المحالج ؟ ونمت فى آخر الليلة نوماً عميقاً بعد أن تعبت من السير وسررت عند ما قمت فى الصباح هادئاً نشيطاً .

وذهبت إلى المحلج بغير تردد متوقعاً أن يكون مصطفى قد وجد الفرصة الكافية لإتمام مكيدته : وكان كل همى أن أستطلع ما يخبئه لى اليوم من المفاجآت .

ولكن السيد أحمد اسقبلنى كالعادة سمحاً مهذباً وقال :

ـــ لا بأس عليك يا سيد أفندى ؟ لم تحضر بالأمس بعد الظهر .

فقلت له : أشكرك يا سيدى . كنت متوعكاً قليلا .

وبدأت أحسب أن كل ما قاله مصطفى عجوة كان ادعاء وكذباً لا يريد به إلا أن يملأ قلبى غيظاً ، وأقبلت على عملى منشرحاً وكان الزحام حولى على أشده لأنى لم أحضر بالأمس بعد الظهر . ولم أجد وقتاً للذهاب فى ساعة الظهر للغذاء فبعثت أشترى رغيفاً وقطعة جبن وأكلت وأنا أعمل . ولم يتركنى مصطفى بل جاء إلى قبل الغروب ووقف قليلا إلى جنبى ولاحظت أنه كان يقرأ الأرقام التى أكتبها وينظر إلى الميزان ، وكانت هذه أول مرة أراه يقترب منى هكذا ليراقب عملى ولكنى لم أعبأ به ولم أوجه إليه كلمة تجاهلا منى له .

ولم أره بعد ذلك حتى ساعة الانصراف فجاء إلى وقال فى مرح :

— سأسقيك شاياً على حسابى .

فقلت فى دفعة : امش من هنا .

فأجاب هادئاً : إذن نتكلم فى الطريق .

فقلت : قلت لك امش .

فقال معاتباً : أنت غريب الأطوار .

فقلت : لا داعى للكلام .

فأجاب جاداً : إذن فليكن حديثاً رسمياً . عندى لك كلام يتعلق بالمصلحة .

فوثب جوابى : ومالك أنت ؟

فقال فى زهو : بأمر السيد أحمد .

فتركته بغير جواب ولبست معطفى وطربوشى . وسرت بغير أن أنظر إليه ولكنه سار إلى جنبى حتى خرجت ثم وضع ذراعه تحت ذراعى وقال فى هدوء :

— اسمع يا سيد أفندى . هى كلمة واحدة وأنت حر .

فقلت فى فتور : ما هى ؟

فقال : هل هذه طريقة الوزن يا سيد أفندى ؟ لم أعرف أنك تفعل هذا وكدت ألطم وجهى اليوم . فهل كنت دائماً تفعل هكذا ؟

فقلت : وما دخلك أنت ؟ هل رأيتنى أسرق ؟

فقال فى وقاحة : ما دخلى ؟ لو سرقت كان أهون . ما معنى هذا ؟ ما دخلى ؟ ما دخلك أنت ؟ أنا أكلمك باسم المحلج وباسم عيشى وعيشك وباسم المصلحة . المحلج الذى يطعمنى ويطعمك .

فصحت غاضباً : قلت لك ابعد عنى .

فأجاب وهو ينزع يده من تحت إبطى ؛ ما هذا الكلام الفارغ ؟ إذا كان لا يعجبك أحد فما معنى بقائك معنا ؟

فصحت : اخرس .

فقال غاضباً لأول مرة : اخرس أنت . لو كان كل الوزانين مثلك ما بقى محلج السيد أحمد جلال .

فقلت حانقاً : لأنى أسرق ؟

فقبض على ذراعى وهزها قائلا : أنت أبله . أنت لا تفهم . أنت تشخط وتنتر كأنك السيد والناس جميعاً الخدم . من أين يدفع السيد أحمد مرتبك ومرتبى ومصاريف المحلج والولائم والإحسان ؟ هل يأتى بأموال من النزعة الخطابية ؟ من أين يدفع أثمان القطن الغالية وأنت تعرف أن ثمن محلجنا أعلى الأسعار فى دمنهور . ؟

فقلت فى نغمة ساخرة : ماذا تقصد ؟

فقال : ماذا تقصد أنت ؟ ما معنى هذه الطريقة فى الوزن ؟ قنطارين وعشرين رطلا . عظيم ! ثلاثة قناطير وأربعة أرطال ونصف ! ملك !

فقلت متحدياً : وماذا كنت تريد ؟

فأجاب : إذا كنت لا تعرف فاسأل . اسأل أهل العلم يا أخى .

فصحت فى غيظ : أمسك لسانك : سألت عقلى وضميرى وسألت قلبى وواجبى .

فقال فى سخرية : وماذا قال هؤلاء ؟ : قالوا لك اخرب بيت السيد أحمد جلال ؟

فقلت منفجراً : اسمع أيها الرجل . إذا كان عندك كلمة فقلها لغيرى ولا تصدع رأسى بهذا الهراء . ما ذا تريد ؟ هل تريد أن أسرق ، وبدلا من كتابة قنطارين وعشرين رطلا أكتب قنطارين . أهذا ما تريد ؟

فقال فى وقاحة : هل تخيفنى بهذا ؟

فقلت : قل باختصار ، هل هذا رأيك أنت أم هو رأى السيد أحمد ؟ هل هذه رسالة ؟

فأمسك ذراعى قائلا : من قال إنها رسالة؟ أنا أكلمك كصديق أنا أنصحك لله فى لله . أنا أعرف السيد أحمد جلال ولو عرف أن هذه طريقتك لم تبق فى المحلج يوماً واحداً . أنا أعرف أنه لا يشبه الناس . لا يمكن أن يقول لك كلمة . هو بئر عميقة وداهية كبيرة . يلتفت هنا أو هنا لليمين والشمال وتحت قدميه ويخطو أول خطوة فى بطء كأنه يجس الأرض ثم يندفع كالسهم . لا تغتر بأنه لا يقول لك كلمة . لا مؤاخذة إذا كنت أعرض نفسى مع علمى لسوء ظنك . والحق علىّ لأنى لا أتعلم .

فصحت : كذاب . أنت تريد أن تجد باباً جديداً للدس . ومع ذلك فاعلم أيضاً أن كل هذه المحاولات لا تهمنى . اعلم أنى سأستمر على طريقتى التى أملاها على ضميرى .

فقال وهو يهز رأسه آسفاً : لقد نصحتك والسلام يا سيد أفندى . وكان وجهه المبهوت فى نظرى مضحكاً ولا أدرى لماذا ، فضحكت برغم غيظى مقهقهاً ، ولم أنتظر أن أسمع الكلمة التى رأيته يفتح فمه بها وقلت له فى سخرية : سلام عليكم !

وسرت عنه مسرعاً ، وكان قلبى يفيض سروراً لأنى استطعت أن أدخل

على قلبه شيئاً من الغيظ آخر الأمر .

ولما ذهبت فى اليوم التالى إلى المحلج كنت مطمئناً ولكنى كنت أشعر بشى يشبه الشعور بالإهانة . وكنت متحفزاً لأسمع كلمة ولو يسيرة من السيد أحمد جلال تشير إلى طريقتى فى الوزن حتى أقول له ما فى نفسى صريحاً . ولكن السيد أحمد جلال لم يكن فى ذلك اليوم أقل تلطفاً مما كان فى أى يوم آخر . وكانت الجموع التى حولى تتزاحم علىّ وتصيح بى تستعجلنى ، وتحريت فى ذلك اليوم تحرياً شديداً فى أن يكون وزنى صحيحاً . ولم أفق من غمرة عملى إلا فى الساعة الواحدة بعد الظهر ، فأسرعت خارجاً لآكل لقمة . وخطر لى أن أغسل يدى ووجهى أولا كالعادة ، وكانت دورة المياه على مقربة من الباب المؤدى إلى بناء آلات الحلاجة . وفيما كنت أجفف وجهى سمعت لغطا بعيداً يشبه صوت العراك فى داخل عنبر الآلات . فذهبت لأرى ما هناك فإذا جمع كبير من العمال يضطرب ويموج فى داخل العنبر حول مصطفى عجوة . فأسرعت لأعرف السبب ودخلت بين العمال كما يدخل الطفل الغرير فى المآزق التى لا يعرف خطرها واقتربت من مصطفى عجوة لأسأله ما الخبر . وما كاد يرانى حتى ثار ثورة شديدة وجعل يسب العمال ويصرخ فيهم مهدداً ، ودفع أحدهم بيده فى صدره فاتقدت حماسة زملائه وصاحوا هائجين ورفع أحدهم يده فلطم بها وجه مصطفى وأخذ الآخرون يشتمونه ويلعنونه .

وزاد مصطفى هياجاً وتهديداً وقال إنه سيبلغ الأمر إلى السيد أحمد جلال ليخرب بيوتهم .

فما كاد العمال يسمعون ذلك حتى اندفعوا يشتمونه ويشتمون السيد

أحمد جلال ثم أخذوا يلكمونه بقبضات أيديهم ويركلونه بأقدامهم حتى كاد يهلك بينهم وهو مع ذلك لا ينقطع عن السب والتهديد وتصايحوا يحرض بعضهم بعضاً على تدمير المحلج . فصحت بأعلى صوتى قائلا « اسمع انت وهو ! » والتفت الجميع نحوى ومضت لحظة هدوء قصيرة انتهزتها لكى أخاطبهم قائلا : ما هذا أيها الإخوان ؟

وكان فيهم وجوه كثيرة أعرفها فأخذت أخاطبهم بأسمائهم فى نغمة عتاب ألين فيها حيناً وأعنف حيناً وأقبلوا على يشكون لى ما أصابهم من مصطفى عجوة .

وصاح مصطفى :

ـ أتفتح أذنك لهؤلاء وأنت تسمع شتائمهم .

واندفع غاضباً يشق الزحام خارجاً وهو يهددنى معهم فشيعه العمال بضحكة عالية ساخرة من ألفاظ السباب المقذع . فقلت لهم :

ـ أيليق بكم أيها الإخوان أن تسبوا رجلا غائباً لم يسئ إلى أحد منكم؟ ألا تعرفون عطف السيد أحمد عليكم حتى تجازوه بمثل هذه الشتائم ؟

فصاح أحدهم وهو أكبرهم : هو يسلط علينا شيطانه هذا يعذبنا كل يوم ، ويذلنا و . . .

وصاح آخر : وذنبنا أننا فقراء يعنى ؟ وهذا المصطفى العجوة يعاقبنا لأن المطر يؤخرنا فى الصباح ؟

وصاح ثالث : ولو قطع القرشين وذهب فى داهية لكان أهون من لسانه المر . لسان يقطر السم .

وقال رابع : كل يوم شتيمة وإهانة ـ « السيد أحمد يطعمنا والسيد

أحمد يكسونا ؛ كأنه يقول لنا بالسم الهارى » .

وصاح كبيرهم الأول : أحب أن أفهم الداهية التى يهددنا بها سى مصطفى عجوة كل يوم . هل الدنيا فوضى ؟ نروح فى داهية لأنه يشكونا للسيد أحمد ؟ لأ يا سيدى . نكسر دماغ سى مصطفى ونروح فى داهية بحق .

وصاح آخر : والدولاب يقطع أجسامنا مجاناً . وأولادنا تموت ولا يعجب سى مصطفى أن نحزن . وإذا مرضنا رمونا فى الطريق .

وصاح شاب إلى جنبى : وهذا الصبى ما ذنبه ؟ هذا المسكين يقطع منه مصطفى خمسة قروش لأنه تأخر ربع ساعة ؟

وكان الصبى الذى أشار إليه لا يزيد عن طفل فى سن العاشرة ووجهه النحيل الأصفر يزداد اصفراراً من الدموع المنحدرة على خده .

فناديته — تعال يا أخى :

ووضعت ذراعى حول عنقه . وكان منظره محزناً حقاً عند ما بدأ يسعل وزادت دموعه انحداراً .

ومسحت على رأسه قائلا :

— ماذا جرى لك ؟ ما اسمك ؟

فقال بصوت خافت : عمر .

فقلت فى عطف : عيب يا سيد عمر . لا تبك كالطفل .

فقال وهو يجفف دمعه : قطع عم مصطفى منى خمسة قروش .

فقلت له مضاحكاً : فداك يا أخى .

وكادت الدموع تفر من عينى من أجله . كان جسمه يختلج

وهو يسعل كأنه عود فى عاصفة .

وصاح عامل من الخلف : لو كان الولد يخوفه لقطع منه قرشين فقط . أمه مريضة وأبوه ميت . حظه أسود منيل . ياابنى الحق بالوالد أحسن من العذاب .

وساد صمت رهيب على الجميع ومسحت مرة أخرى على رأس الصبى وقلت له :

ــ تعال معى يا عمر . يلا يا جماعة ؛ سأذهب إلى للسيد أحمد وأعتذر إليه بالنيابة عنكم . يلاّ للغداء وارجعوا لأعمالكم وانسوا هذه الغضبة .

تعال معى يا سيد عمر .

وأخذت الصبى فى يدى وسرت وأنا أسمع همهمة خافتة من ورائى ، وتدفق العمال من العنبر خارجين يدعو بعضهم بعضاً فى مرح كأن شيئاً لم يحدث .

وفى أثناء السير عرفت من الصبى أن أمه مريضة تسعل وتبصق الدم وهو يشترى بأجره الطعام والدواء ولن يقدر على شراء ذلك بعد خصم القروش الخمسة .

وكانت الساعة قد بلغت الثانية فأعطيت الصبى ما كان فى جيبى إلا قرشين أبقيتهما لأشترى رغيفاً وقطعة من الجبن ، وكنت سعيداً عند ما نظر إلىّ الصبى باسماً ومسح دموعه . المسكين ؛ إننى ما أزال أتذكر نظرته .

٥

فى الساعة الثالثة عدت إلى المحلج وبدأت عملى ونسيت فيه كل ما حدث فى ساعة الظهر . ولكنى تنبهت على صوت حاجب مكتب السيد أحمد يدعونى إليه .

وكانت المسافة بينى وبين المكتب تزيد على مائة متر فأخذت أجمع شوارد أفكارى حتى أحدثه عما وقع بين العمال وبين مصطفى عجوة ليعمل على إزالة ما يدعو إلى إثارة نفوسهم عليه وعلى عمله .

ورأيت مصطفى عجوة واقفاً إلى جانب المكتب ويداه مضمومتان إلى صدره من أمام ولونه قاتم يكاد يكون أسود . وبادرنى السيد قائلا :

ــ سلم عهدتك يا سيد أفندى .

فوقفت أمامه لحظة وأنا دهش كأنى لم أسمع قوله . لم أتوقع هذه النهاية فى تلك الساعة بالذات ، ولو طردنى السيد أحمد فى اليوم السابق أو الذى قبله أو فى صباح ذلك اليوم نفسه لما وجدت فى ذلك شيئاً يدعو إلى الدهشة أو السخط ، وأما فى تلك الساعة فإنى كنت أنتظر منه كلمة شكر على ما صنعت له . كان العمال على وشك تدمير المحلج بغير شك لولا وجودى ، ولم يكن فيما فعلت شىء يستحق غير الشكر . أيطردنى بعد أن أخمدت ثورة كان يشعلها هذا المصطفى عجوة الواقف إلى جانبه ينفخ الهواء من أنفه الضخم ؟ أيطردنى لأنى أزلت ما فى نفوس عماله من الحنق عليه وقلت

لهم إنى سأعتذر إليه بالنيابة عنهم ؟ ولو كنت عند ما ذهبت إلى السيد أحمد أتوقع أن يفاجئنى بهذه الكلمة بغير مقدمات لأعددت نفسى لذلك وراجعته لأبين له أنه مخطىء أو أن الذى بلغه كذب . ولكنها كانت مفاجأة أحدثت فى نفسى صدمة مست صميم كبريائى ، ولهذا أبيت أن أراجعه بكلمة مع إنى كنت أقول فى سرى « أهذا جزائى ؟ »

وأدرت ظهرى له صامتاً وخرجت من المكتب لأسلم عهدتى . وما هى عهدتى ؟ بضع دفاتر وأوراق وأقلام ودواة وعلبة نيشان وفرشة بقيت عندى منذ كنت أرقم البالات . هذه كانت عهدتى ، وكان شعورى وأنا خارج من المكتب لا يزيد على شعور رجل تسأله « كم الساعة الآن » لم يكن فى نفسى ذرة من الأسف فى تلك اللحظة .

وخرجت من المحلج حاملا معطفى القديم وأنا عالى الرأس يخيل إلى أنى أنا الذى أطرد المحلج ومن فيه .

وسرت فى الطريق متجها حيث تقودنى قدماى — شارع (أبو الريش ، والسوق ، وعرجت إلى اليمين هابطاً نحو خارج المدينة ، ولما وصلت إلى جانب الترعة بدأت أفكر أنى لم أترك المحلج فقط بل قطعت صلتى أيضاً بالسيد أحمد جلال والد منى . وسرت أجرر قدمى بقلب مظلم كسير . عند ذلك فقط بدأت أشعر بأنى خسرت خسارة فادحة .

وعرجت إلى اليمين بغير أن أعرف أن هذا الجانب أفضل من الآخر وكان الجو بارداً ولكن السماء كانت صافية والشمس تميل إلى الغرب فى موكب رائع من الألوان البديعة . وشعرت بوجهى المتقد يلذ مس الهواء وصدرى الضائق يرحب بالهواء الطلق . وكانت الحقول تمتد تحت بصرى

خضراء رطبة ترتاح العين إلى الانسراح فيها . وكانت الدواب محملة بأحمال مختلفة ومن ورائها قطعان الماشية تعود إلى بيوتها قبل الظلام . فجعلت أنظر إليها متأملا أشكالها وأحجامها وأقايس بين ألوانها وملامحها . وذهني يدور كأنه منفصل عني . هذا شاب بقر قوى يظهر عليه العنف وينظر نحوى بمؤخر عينه ويطأطىء رأسه مهدداً . ووجهه يشبه ملامح مصطفى عجوة عند ما كان واقفاً إلى جنب المكتب . وهذا حمار أعجف يحمل حملا ثقيلا من البرسيم ويزحف تحته مطرقاً . ويلوى رأسه لعله يقدر أن يصل بفمه إلى قضمة من أعواد البرسيم الذى فوق ظهره ، ولكنه لا يصل إليها . ما أشبهه بالصبي المسكين عمر غير أنه لا يبكى . وهكذا سرت هائم سالفكر حتى وجدت نفسى مرة أخرى عند (كوبرى) (أبو الريش) فعرجت إلى اليمين وسألت نفسى « إلى أين ؟ » ولما اقتربت من الفضاء الذى يبدأ منه الطريق إلى محلج السيد أحمد جلال كان الظلام قد هبط على الأرض وتبينت فى قرارة نفسى أمنية غامضة وهى أن أصادف السيد أحمد جلال خارجاً من المحلج . واقتربت من ركن مستور عند مدخل الطريق ووقفت أفكر ، كأنى أريد أن أتذكر شيئاً نسيته . ومر وقت طويل وأنا هناك ذاهل عن كل شىء ولا أدرى ماذا أريد . وظهر شخص مقبلا من بعيد فى الطريق المظلم فخطر لى أنه « هو » . لم يعد الأمر خافياً علىّ فإنى كنت هناك انتظر السيد أحمد جلال . وما كان سيرى على الترعة وكل دورانى ولفى إلا بقصد خفى أن أعود إلى المحلج لعلى ألقى الرجل . ولكن ذلك الشخص لم يكن « هو » فتداريت فى ظل الجدار حتى لا يرانى وبقيت واقفاً هناك مستنداً إلى الجدار وأنا فاتر الذهن لا أدرى إلى متى

أبقى واقفاً هناك . وكدت أثب فى مكانى عند ما رأيت السيد أحمد يَخرج من باب المحلج فى الموعد الذى تعود أن يذهب فيه إلى بيته . ولما اقترب منى أسرعت إليه كما يسرع الصديق إلى صديقه يحاول أن يزيل عنه جفوة طرأت على علاقتهما . ولم يظهر على وجهه عند ما رآنى شىء يدل على الغضب أو الرضى أو الدهشة كأنه كان ينتظر أن يجدنى هناك . وسلم على فى بساطة قائلا : « تعال معى يا سيد أفندى . » فخفق قلبى سروراً واستبشرت بكلمته ، وسرت وراءه بخطوة قصيرة ، ولكنه دعانى لأسير إلى جنبه . وتمنيت بكل قلبى أن أقدر على إزالة ما عنده من الغضب علىّ ولم أشعر بشىء من الذلة أو الامتعاض لأنى كنت عالماً أنى برىء وأنه لم يعرف حقيقة ما عندى .

ولما وصلنا إلى البيت دخلنا إلى غرفة المكتب ، وأخرج السيد أحمد سيجارة فأشعلها ثم جلس وأشار إلى كرسى قريب منه لأجلس عليه . ثم صفق وأمر الخادم أن يأتى لنا بفنجانين من القهوة .

ثم التفت إلىّ قائلا :

— هيه يا سيد أفندى .

فقلت فى تردد :

— لست أدرى السبب فى طردى يا سيدى ، ولم أجرؤ أن أراجعك عند ما كنت غاضباً . والحق أن دهشتى أيضاً جعلتنى لا أفكر فى مراجعة. ولكن من حسن حظى أنى أمر من هنا فى اللحظة التى تخرج فيها من المحلج .

واحمر وجهى عند ما قلت هذه الكذبة ولكنه كان ناظراً إلى الأمام

مستنداً بظهره على الكرسى الطويل فلم ينظر إلى وجهى .

وقال فى بطء :

ــ المسألة بسيطة يا سيد أفندى .

فقلت فى سرى : بسيطة !

وخفق قلبي عنيفاً . إنه هادىء كأنه جدار مصمت ! وقلت له متمالكاً نفسى : هى طبعاً بسيطة ، ولا ينبغى أن تؤثر فى مودتى لك ، ولكنى لا أعرف السبب فى طردى . لا أعرف سبباً يدعو إلى غضب فى هذا اليوم بالذات لأنى كنت لا أنتظر فيه إلا الشكر . أظنك لم تعرف أنى وقفت حائلا بين العمال وبين تدمير المحلج .

فرفع جانبيه وهو يلتفت إلى قائلا : تدمير المحلج ؟

فقلت فى حماسة : نعم تدمير المحلج . ولست أعجب لأنك لم تعرف الحقيقة لأن مصطفى عجوة يتعمد دائماً أن ينقل إليك أخباراً مشوهة عنى .

ونظرت إلى وجهه لعلى ألمح عليه شيئاً يدلنى على حقيقة شعوره ولكنه كان هادئاً كالصورة المعلقة أمامى على الجدار .

وأخذت أصف له ما حدث بين مصطفى عجوة والعمال فى ساعة الظهر وما حدث منى حرفاً حرفاً وختمت حديثى بعبارة حماسية فقلت : إنى كنت مدفوعاً إلى تدخلى بشعورى القوى نحوه وبأنى أؤدى واجبى نحو رجل أحبه وأحترمه . وشعرت بالدم يثور فى وجهى مرة أخرى عند ما وجدت أنه ما يزال هادئاً .

وجاء الخادم يحمل فنجانين من القهوة فأخذ يرشف من فنجانه وقال لى : تفضل !

ولكنى شكرته ومضيت فى كلامى :

ـ لهذا لم أتوقع منك أن تطردنى وكانت دهشتى عند ما سمعتك تقول لى سلم عهدتك أشد من أن أحاول الدفاع عن نفسى . والحق أنى أيضاً أخذت على خاطرى . واست أريد بكلامى هذا شيئاً أكثر من أن أعرف السبب فى غضبك لأن الذى يهمنى هو العلاقة التى بيننا .

فنظر نحوى باسماً لأول مرة . ولكن ابتسامته كانت تحمل معنى كأنه يقول : « وما هذه العلاقة التى بيننا ؟ »

واعتدل فى جلسته فصار أكثر هدوءاً كأنه قط يرقد على فراش وثير .

وقال بصوت خافت : لم أكن أعرف من قبل أننى مهدد بكارثة . هذا شيء جديد يا سيد أفندى . ومع ذلك فلماذا لم تدع العمال وشأنهم ؟ لم تكن لك علاقة بأعمالهم يا سيد أفندى . دعهم يا أخى يثوروا إذا شاءوا ويدمروا المحلج ، وأنا أعرف كيف أعاملهم . كنت دائماً أعرف كيف أعاملهم قبل أن تشرف المحلج .

وأحسست بالعرق ينضح من جسمى كأن إناء من الماء البارد صب فوق رأسى .

واستمر قائلا : لا تغضب من قولى يا سيد أفندى فأنت مثل ولدى وكنت أرجو أن تشق طريقك فى الحياة معى . لا أنكر أنك أمين وذكى وأنا أقدرك وأحبك وأعرف أنك من بيت طيب . كنت أود لو بقيت معى حتى تقدر أن تشتغل بعمل ينفعك هنا أو غير هنا . وكنت أحب أن تفتح عينيك للحقائق وتتعرف أمور الدنيا لأن التجارب هى التى تعلمنا . كنت أتمنى أن تبقى معى وتتعلم كما يتعلم هؤلاء جميعاً حتى تصير مثل مصطفى عجوة .

وكانت هذه الكلمة الأخيرة فوق طاقتى فقلت مندفعاً :

ــ اسمح لى أن أقول إنى لا أرضى بأن أقارن بمصطفى عجوة .

فرفع حاجبيه وتبسم قائلا :

ــ لست أبالى ما يقع بين بعض الموظفين وبعض من هذه المنافسات ، ولا أحب أن أفتح أذنى لها . هذا شىء طبيعى ولا أعيره التفاتاً كثيراً . والذى أقصده أنى كنت أود لو بقيت معى حتى تطمئن على مستقبلك . هذا كل شىء .

وسكت لحظة ثم أتسعت بسمته وهو يقول :

ــ ولكنك يا سيد أفندى تريد أن تقفز دفعة واحدة ، فى وثبة واحدة.

وطقطق بإصبعيه محركاً يده إلى فوق .

وأعقب ذلك بضحكة عالية لأول مرة .

وخطر لى أنه يلمح إلى الأقوال التى سمعها من مصطفى عجوة عن تطلعى إلى متى . فثارت كبريائى وقلت مندفعاً :

ــ أتقصد يا سيدى أنى غير جدير بأن أتطلع إلى أعلى ؟

فقال متراجعاً : أبداً ! لا أقصد أكثر مما يفهم من كلامى . لست أقصد أكثر من أنك تندفع يا سيد أفندى . أنت جدير بأن تتطلع كما تشاء ولا حق لأحد فى منعك من شىء . ليس هذا موضوع الحديث يا سيد أفندى . وأنا أرجو دائماً أن أسمع عنك ما يسرنى..

وأحسست أكثر من قبل بأنى اصطدم فى جدار مصمت . وبدأت أثور فى داخلى لأنه لم يترك لى فرصة للأمل فى مصافاته .

وقلت فى شىء من العنف :

ــ أشكرك على كل حال يا سيدى وأنا مسرور من أنى أديت نحوك واجبى كاملا . ويزيدنى سروراً أن أشعر بأنك لم تنصفنى . لست انسى أن أشكرك على كل ما سمعته منك وعلى كل ما لقيته من عطفك ومساعدتك. لست أنسى أنك مددت إلىّ يدك عند ما كنت صغيراً لا أجد أحداً يمد يده إلى . ولكن أحب أيضاً أن تعرف أنى لست أقل من أحد . هذا ما أشعر به فى قرارة نفسى . وإذا كنت أتطلع إلى فوق فليس هذا أكثر مما ينبغى لى .

وقمت لأنصرف ونظرت إلى وجهه فى ثبات فوقعت عينى فى عينه ولمحت أن نظرته لم تثبت أمامى . ولأول مرة منذ عرفته رأيت عليه شيئاً يشبه الحيرة أو الارتباك ولكنه لم ينطق بكلمة . فرفعت يدى مسلماً عليه من بعيد قائلا :

ــ لعلنا يا سيدى نلتقى فى أوقات أخرى أكثر مودة ، إلى اللقاء يا سيدى .

وخرجت بغير أن أنتظر وتعمدت أن أرفع رأسى وكنت فى تلك اللحظة مملوءاً بالثقة والاطمئنان . ولما وصلت إلى قريب من باب الحريم لم أملك أن أنظر نحوه نظرة متلهفة كأنى أودعه ، وثارت فوق عينى غشاوة من الدمع وقلت فى نفسى : « أحقاً هذه آخر مرة أقترب فيها من هنا ؟ »

وعدت إلى بيتى فأخبرت أمى بما حدث فلم أسمع منها إلا دعوة طيبة ، وكانت فى تلك الليلة أكثر مرحاً واستبشاراً مما أنتظر . وأخذنا نتحدث فيما أعمل بعد ذلك ، فلما قلت لها أنى أعتزم التجارة أظهرت لى رضاء متحمساً وكررت دعاءها إلى الله أن

يوفقنى . وكانت ليلتى هادئة على غير انتظار ، بل إنى رضيت عن الظرف الذى اضطرنى إلى قطع صلتى بالعمل فى المحلج ورأيت أنه جعلنى أقدم بغير أسف على الخطوة التى فكرت فيها مراراً بغير أن أجرؤ على أن أخطوها . سأذهب فى اليوم التالى إلى السوق لأجرب حظى . ولكن شيئاً واحداً كان يعكر شعورى بالرضا ، وذلك أنى قطعت ما بينى وبين والد منى . لم أعترف فيما بينى وبين نفسى أن هذا آخر العهد بيننا ، وكان تحت كل مشاعرى أمل غامض أن استطيع فى يوم من الأيام أن أعود إلى السيد أحمد جلال قائلا له « أنا سيد زهير » .

وكان اليوم التالى سوق قرية الدلنجات فعزمت على أن أقوم مبكراً لآخذ فطار الصباح ، ولو على سبيل التجربة لأرى شئون الأسواق وأجس المخاضة قبل أن أنزل فى الماء . وفى الصباح الباكر أخذت معى كل ما كان معى من النقود التى ادخرتها طوال السنوات الماضية لأبدأ حياتى كما بدأ السيد أحمد جلال حياته . وكان الظلام ما يزال حالكاً تحت السماء القاتمة .

ولا يمكن أن أصف شعورى عند ما شممت رائحة الهواء الرطب وسرت فى الطريق الصامتة عالماً بأن الناس ما يزالون نياماً فى فراشهم . وكان المطر قد سقط فى الليل غزيراً وتجمعت منه بركة واسعة تملأ الطريق إلى المحطة فخضت فيها لأنى لم أجد جانباً جافاً من الطريق أسير فيه ، وكان حذائى قديماً له رقبة خففت البلل عن قدمى بعض الشىء . ولما قربت من ضريح سيدى (أبو طاقية) قرأت الفاتحة كما كنت أفعل منذ طفولتى عند ما كنت تلميذاً فى المكتب المسمى بإسمه .

ولم أقدر أن أصل إلى المحطة إلا بعد ربع ساعة مع أن المسافة لم تكن أكثر من ثلثمائة متر . وكانت عربة الدرجة الثالثة مزدحمة ليس فيها موضع لقدم ، فاضطررت إلى الجلوس على طرد فى الممر بين المقاعد وكان طرد قماش لأحد التجار الذاهبين إلى سوق الدلنجات .

وكنت لا أعرف من المسافرين إلا عدداً قليلا أميزهم بوجوههم ولكنى دهشت عند ما جاء حمادة الأصفر قبل قيام القطار بدقيقتين . فجاء يتخطى الطرود فى الممر حتى جلس على طرد قريب منى وحيانى قائلا :

— صباح الخير يا سيد أفندى .

ولم يخل جوابى من التعبير عما هجم على من الضيق عند اقترابه منى ؛ وكان فى يده رغيف مقدد من أرغفة دمنهور المنفوخة وقد أكل أعلاه وبقى أسفله فى يده مثل الطبق وبه قطعة جبن قديم أغبر اللون .

وقال لى وهو يمضع :

— إلى أين العزم ؟

فالتفت إليه فى شىء من الرثاء والتقزز معاً وقلت فى احتقار :

— الدلنجات .

وبدا لى أن المسكين قد زاد تحولا واصفراراً وكانت حول عينيه دائرتان خضراوان ووجهه المنقط بالنمش الأسود يشبه خرقة قذرة .

وقال فى صوت خافت :

— إلى السوق ؟

وهممت أن أصده بكلمة جافية ولكن منظره جعلنى أمتلىء شفقة وقلت له :

ــ نعم . وأنت ؟

فقال : استرزق . ربك كريم يا سيد أفندى .

وكان ركاب العربة فى هذه الأثناء يختلسون النظرات نحوى ويتكلمون بأصوات خافتة ثم استرعى سمعى ضحك عال ينبعث منهم عند ما قال أحدهم :

ــ قوموا بنا لنبيع التذاكر ونعود يا عم على .

فرد عم على قائلا : ربك يستر يا شيخ عفيفى ويجعل الدور اليوم على المعيز .

وعلت ضحكة أخرى أطول من الأولى واستمر الركاب ينظرون نحوى ويتهامسون وسألنى حمادة قائلا :

ــ ماذا تريد أن تشترى ؟

فقلت له فى شىء من المباهاة : قطن طبعاً .

وسمعنى أحد الركاب وكان إلى جانبى فصاح قائلا :

ــ أبشروا يا جماعة . فرجت ! الأفندى تاجر قطن !

فصاح الشيخ عفيفى : أبشر يا عم على .

فقال الشيخ على : قلت لكم من الأول . الأفندى أكبر من البيض والفراخ .

وعاد الضحك وصار عاماً وشاركت فيه لأنى بدأت أفهم سبب التهامس والمزاح . وأخذ الجميع يتحدثون عما حدث فى يوم الثلاثاء الماضى عند ما جاء أفندى من الإسكندرية واشترى كل ما كان فى السوق من الدجاج والبيض بأثمان عالية لأنه من الموردين للجيوش، ولهذا لم يقدر عم

علی والشيخ عفيفی علی شراء شیء منها وهما من تجار الدجاج . فلما رآنی الركاب حسبوا أنی أفندی آخر جئت لأزاحم فی شراء الدجاج والبيض كما فعل الآخر وكانوا يتبادلون الفكاهات عنی وأنا غافل عنهم . وكانت هذه الغلطة موضوعاً جديداً للفكاهة استمر الركاب يتناقلونه مدة طويلة فسهل علينا قطع الطريق .

وسألنی جاری عن اسمی فلما قلته له عرف أبی وأخذ يترحم عليه ، وبدأ الآخرون يتوددون إلی عند ما أخذ جاری يعرفهم بأبی ويذكرهم به .

وأخذنا نتحدث معاً عن الأسواق وأسرارها فتلقيت فی هذه الجلسة أول دروسی فی تجارة الأسواق وخرجت بفوائد لا تتاح إلا لمن يتبادلون أنفاسهم مع الناس ويعرفون من الحكم ما لا تعلمه لهم القراءة أو التأمل . وعزمت فيما بينی وبين نفسی أن أحفظ ما أسمع من هؤلاء الذين لا يتلقون ما يقولون عن أحد . إن كل كلمة يقولونها تصدر عن حكمة متواضعة لا تدعی الحكمة وهی التی يتعلمونها من وخزات الحوادث وغمرات المآزق .

وبلغنا الدلنجات آخر الأمر ، ونزلنا نتدفق من العربة إلی الفضاء الواسع متجهين إلی السوق ، وكل منا يحمل فی يده ما أعده للبيع أو للشراء وكنت لا أحمل فی يدی إلا ميزاناً فی كيس من أكياس الخيش . وكان منظر هذا الجمع الكبير وهو يتجه فی صف طويل أشبه بمنظر الجيش الزاحف .

وكان حمادة يجتهد أن يبقی قريباً منی مع أنی تعمدت ألا ألتفت إليه عند ما نزلت . وكان يحمل علی كتفه كيساً لا أعرف ما فيه ، وينظر نحوی فی شیء من التردد كأنه يريد أن يجد سبيلا إلی أن يكلمنی . ولما لم يجدنی التفت إلیّ تجرأ وقال لی :

ــ ألست فى حاجة إلى من يساعدك يا سيد أفندى ؟

وكان فى صوته انكسار زادنى إشفاقاً عليه وقلت له : فى أى شىء يا حمادة؟

فشجعه جوابى واقترب منى قائلا : فى أى شىء ، أحمل لك ما تشترى أو أساعدك فى الشراء ، وأنا خبير بالأسواق .

ثم همس قائلا :

ــ ومن أجل المساعدة أيضاً فوالله إنى لم آ كل منذ الأمس إلا هذه اللقمة التى رأيتها فى يدى .

فقلت له عاطفاً :

ــ وهل تجىء إلى السوق فى مثل هذا الصباح بغير وجهة ؟

فقال :

ــ وماذا أعمل ؟ أقصد باب الله يا سيد أفندى . هو العمل الذى أقدر عليه ما دام الناس لا يريدون أن أعمل معهم . كل من أعمل عنده يطردنى . لماذا ؟ لا أدرى . نحس . شؤم . بختى زفت .

فقلت باسماً : وتريد أن تجرب حظك مرة أخرى معى ؟

فقال : خليها على الله ! والله يا سيد أفندى هو البخت . لكن يمكن. يمكن بختك يغلب يا أخى . جرب يا سيد أفندى . والله كلهم كسبوا وربحوا معى ولكنى منحوس . فازوا بالمكاسب وطردونى . ومد يده إلى ليأخذ منى الكيس الذى حملت فيه الميزان فقبضت ذراعى وقلت له :

ــ هذا ميزانى وأنا أولى بحمله . أين موضع السوق ؟

فقال : ألا تعرفه ؟ تعال من هنا .

وكنا قد بعدنا عن المحطة مسافة تقرب من مائتى متر .

فسألني : كم معك ؟ ولا مؤاخذة فى السؤال يا سيد أفندى .

فقلت فى شىء من الخجل : عشرون جنيهاً .

فجذب يدى واتجه بى إلى جهة الطريق الزراعية إلى يمينى وقال :

— وهل تريد أن نذهب للسوق . تعال إلى هنا .

وسار بى على الطريق حتى بعدنا عن القرية بنحو خمسمائة متر ووقف لحظة يتلفت حوله ثم اتجه إلى شجرة على جانب الطريق وقال :

— ها هنا موضعنا .

فقلت فى دهشة : ماذا تريد ؟

فقال : هنا موضعنا . نجمع من الفلاحين بالرطل والرطلين والعشرة. هنا تجارة الأمانة . انصب ميزانك هنا . بعشرين جنيه وتريد الذهاب إلى السوق ؟ هل عندك كيس ؟ انتظر .

وحل الكيس الذى معه فأخرج منه كيساً كبيراً من أكياس القطن الفارغة وفرشه على الأرض وأخذ منى الميزان فنصب قوائمها وعلقها .

وكانت الساعة تبلغ السابعة من الصباح عند ذلك وقد تحول الجو إلى صحو صاف ، ولمعت الشمس فوق الأفق وكان الفلاحون يتسارعون على الطريق ، بعضهم يسير على قدميه وبعضهم يركب ، وكل منهم يحمل بضاعته .

وقال حماده : أجلس أنت هنا كالأمير ودعنى .

ثم ذهب إلى وسط الطريق وأخذ يصفر صفيراً عالياً بمهارته التى عرفتها منه فلم أستطع أن أقاوم الضحك واستمر بعد ذلك يصفق ويصيح قائلا :

— هنا تجارة الأمانة ! هنا تجارة الأجواد ! هنا تجارة سيد أفندى زهير !

وكان الفلاحون ينظرون إليه فى دهشة ثم يقفون حوله فيشير لهم نحوى . وقمت إلى ميزانى فسويته واتخذت هيئة التاجر المجرب فكل من أتى إلى بما معه من الأرطال وقفت أنظر فيها وأقلبها ثم أزنها وأكتب الوزن على ورقة وأكتب أمامها اسم صاحبها . ثم يجىء حمادة فيفحص مرة أخرى ويساوم فى الثمن حتى يرضى البائع فأصرف له النقود .

ولم تمض إلا ساعة قصيرة حتى فرغت نقودى ولم يبق معى إلا ما يكفى للعودة بما اشتريناه إلى دمنهور . وأخذ حمادة يعد الكيسين الذين معه ليعبىء فيهما القطن واستأجرنا عربة لتحمله إلى المحطة واستطعنا أن نعود ببضاعتنا إلى دمنهور فى قطار الظهر . وهكذا مر اليوم الأول من تجربة حظى فى التجارة مع حمادة الأصفر وكان ربحنا فيه عظيما لا يقل عن خمسة جنيهات فوق كل ما صرفناه فى سفرنا وأجرة النقل وثمن الأكياس . وكان حمادة سعيداً فى آخر النهار عند ما أعطيته خمسين قرشاً ، ولم يتركنى حتى تعاهدنا على أن نذهب معاً فى كل مرة إلى أسواق القرى المجاورة .

وكان سرور أمى من هذه المغامرة الأولى عظيما وقالت توصينى بحمادة : — تمسك بهذا المسكين فمن يدرى يا ولدى . لعل هذا رزقه .

٦

مر ما بقى من موسم القطن فى ذلك العام وأنا دائب على الذهاب إلى الأسواق المحيطة بدمنهور فى صحبة حمادة ، نشترى دائماً على طريقته ثم نجمع ما نشترى ونحمله على عربة نسير إلى جنبها حتى نصل إلى أقرب محطة للقطار فنرسله منها إلى دمنهور . وكان حمادة يتفنن فى وسائل الإعلان واجتذاب الأنظار ، وكان هو بشخصه علماً يسترعى الأبصار والأسماع بقامته القصيرة وصفيره العالى وتصفيقه وفكاهته ، وصرنا بعد قليل من أشهر من يرتاد الأسواق وأصبح اسم سيد زهير وتجارة الأمانة والأجواد مما يجرى على ألسنة أهل القرى وإن كان متجرنا فى كل مرة لا يزيد على ظل شجرة على جانب الطريق. واستطعت أن أقتصد من أرباح هذه التجارة أكثر من مائتى جنيه فوق الجنيهات العشرين التى كانت معى من قبل ، بعد كل ما أنفقته على البيت حتى حل الموسم الجديد . ولا شك فى أن الفضل الأكبر فى نجاحى هذا يرجع إلى حمادة ، ولا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم أصادفه فى أول يوم على غير موعد .

وما أجدر هذه الإنسانية الضعيفة أن تتواضع وتعرف موضعها من المقادير ، وما أكثر الأدلة التى تدلنا على أن النجاح والإخفاق يتوقفان على عوامل عدة أقلها إرادتنا . وكان حمادة مادة عزيزة للتأمل فى ذاته ، فكنت أراه وأستمع إليه كأنه كتاب حى من الكتب الصفراء القديمة .

التى تحتوى على كنوز من المعارف . فهو يعرف الناس ويتعمق حقائقهم بفطرته الساذجة التى لا تخدعها مظاهرهم ولا يضللها ما تعارفوا عليه من المعايير التى خلقوها لأنفسهم . وقد حيرنى منه أنه لم يستطع أن يشق له طريقاً فى التجارة ويستقل بنفسه فيها مع أنه كان بغير شك صاحب الفضل فى كل نجاح أصبته فى تجارتى . وقد سألته يوماً فى ذلك فلم يقل سوى أنه مولد فى ساعة نحس .

فقلت ممازحاً : جرب معى حظك وابدأ بمشاركتى .

فقال ساخراً : قلت لك دعنى ولا تخاطر بنفسك .

فقلت : أنا قابل يا حمادة : فلا تخف .

فأجاب : لا تحاول إغرائى . جربت حظى مرة بعد مرة وكانت النتيجة واحدة . ألست تؤمن بالأقدار والحظوظ يا سيد أفندى ؟ ذهبت مرة إلى منجم هندى ليكشف لى عن حظى فلم يقل لى إلا كلمة واحدة معناها أنّ منحوس مؤبد . شاركت مرة عطاراً فاحترق المخزن كله ، وشاركت جزاراً فقطع إصبعه ، فى أول يوم ، وشاركت فى قهوة فمات صاحبها بالسكتة القلبية بعد أسبوع . وإذا أردت أن تعرف رأى الناس عنى فاذهب إلى شارع السوق وقف بين المارة واسأل ما رأيكم فى شركة حمادة الأصفر ، فإنهم جميعاً يجيبون بصوت واحد أنها شركة مشئومة .

فلم أملك نفسى من الضحك وقلت له : سأخاطر معك برغم كل هذا ، وسيكون ربحنا مناصفة .

فقال : ليس معى نقود .

فقلت : أسلفك إذا أردت ولك أن ترد لى دينك من الربح .

فقال : وإذا خسرنا .

فأجبته : ننتظر حتى نربح ونعوض الخسارة .

فهز رأسه قائلا : لا يا عم لا شأن لى بالمشاركة . لا شأن لى بالربح ولا بالخسارة ، ولم أطلب منك أن تدخلنى فى شركة .

ثم فرك إصبعيه يشير إلى طلب النقود .

وكانت هذه عادته منذ انتهى الموسم إذ كان يعود إلى بين حين وآخر يطلب المساعدة ، فكنت أعطيه فى كل مرة جنيهاً أو نصف جنيه مع أنه أخذ نصيبه من الربح ستين جنيها فى أربعة أشهر .

وقد سألت نفسى مراراً ما الفرق بين حمادة وبين السيد أحمد جلال فكنت أعجب من المقارنة بينهما . لقد عرفتهما وخبرت أحوالهما وتبينت مقدار ما عند كل منهما من الذكاء والمقدرة ولا سئلت عن رأيى فى أيهما أصفى جوهراً لما ترددت فى أن أقول إنه حمادة . هو الأذكى وهو الأعمق وهو الأكثر تفنناً . ولكن الذى جعل أحدهما فى طرف والآخر فى الطرف الثانى هو عنصر آخر أهم من الذكاء والعمق والتفنن ؛ وهو عنصر خفى مثل أرواح العطور وأسرار الحياة الغامضة ، لا يتيسر للإنسان أن يصفه لأنه لا يقدر على تحديده ولكن شيئاً واحداً كان يظهر لى واضحاً وهو أن حمادة كان ينطوى فى داخله على أنواع من المخاوف لم أستطع كشفها . ولما فرغت من مشاغل الأسواق عدت إلى عزلتى ولا أخفى أننى شعرت بكثير من الارتياح لأنى تخلصت من صحبة حمادة مع كل ما كنت أحسه نحوه من الرحمة . وكان فراغى من مشاغل الأسواق يجعلنى أفرغ إلى أحاديث كثيرة مع نفسى وكانت كلها تدور حول صورة واحدة — منى .

وبدت لى الشهور التى مضت على منذ خرجت من خدمة السيد أحمد جلال كأنها دهر طويل من السنين . كيف نقيس الزمان نحن معاشر البشر ؟ إننا نقيسه بالساعات والأيام والسنين مع أن هذه كلها أخيلة لا تدل على حقيقة خارج نفوسنا .

ولا أستطيع أن أصف الحرقة التى كانت تشمل قلبى كلما تصورت إنى فقدت كل أمل فى رؤية منى . ومع ذلك فقد كنت أجادل نفسى واتهمها بالحماقة والسخف فأين أنا وأين منى ؟ كنت أكره أن أقول فى نفسى « من أنا ؟ » ولكنى كنت مع ذلك أقول ذلك واجد له مذاقاً كالحنظل . وكنت أكثر من الخروج إلى أطراف المدينة واستصحب ما أريد قراءته من الكتب طامعاً أن ألهو بذلك عن التفكير فى منى ولكنى كنت دائماً أشرد إليها ولا أطيق الاستمرار فى القراءة لأن صورتها كانت تتمثل لى فى كل سطر وراء كل خاطرة . وكنت يوماً جالساً فى قهوة تعودت أن أعرج عليها عند أطراف المدينة ومعى كومة من الصحف والمجلات وأخذت أقرأ لألهو عن أحاديث نفسى بتلك الأخبار التى اعتادت الصحف أن تضع لها العناوين الضخمة ذات اللون الأحمر . وأى شىء أحق بأن يتسلى به الإنسان من السخرية ؟ إن السخرية هى ملجأ الأشقياء إذا أرادوا أن يحولوا بين أنفسهم وبين الموت كمداً . كانت الأخبار كلها تنطق بأننا منهزمون فى كل مكان ، سواء فى السياسة الداخلية أو الخارجية ، ومع هذا كان السادة على أحسن ما يكون الناس رضاء عن أنفسهم . ورضاء عن الحياة . ها هو ذا وزير يقيم حفلة ساهرة تشغل أخبارها الصفحة الأولى من الجريدة العظمى ، لأنه بلغ الخامسة والستين من عمره المبارك . وها هو

ذا احتفال آخر بزواج أبنة الثرى الكبير المعروف وفيه تدفقت الشمبانيا
فى القصر الشاهق حتى أغرقته بالمرح . هكذا تقول الجريدة بغير خجل .
وهذا خبر ثالث أكثر جداً وصرامة لأنه احتفال حزب كبير فى عاصمة
مديرية كبرى تعالت فيه الأصوات بالحماسة الوطنية ، ولكنها كانت
وا أسفاه لا تزيد على الحماسة فى المناداة بسقوط الحزب المنافس ومن فيه
من الزعماء . هكذا كان الحزب الأصفر يتحمس فى المناداة بسقوط
منافسه الحزب الأخضر فى القسطنطينية عند ما كان محمد الفاتح العثمانى
على أبوابها . وفى صدر الصفحة الوسطى كتبت بشرى بعنوان ضخم تقول
إن ميادين المدينة ستضاء بعد يومين بالأنوار الساطعة احتفالا بعيد الدستور ،
وستعطل المصالح الحكومية وتفتح سجلات التشريفات فى القصر ليذهب
المهنئون من العظماء ويكتبوا بها أسماءهم تأدية لواجب الولاء للملك الذى
لم يدع برلماناً واحداً يسقط وزارة . . وتعجبت ماذا يفعل الناس بهذه الأنوار
كلها إذا أرادوا أن يبتهجوا بالعيد حقاً . إننى أرثى للفراش كلما رأيته يقذف
نفسه على الأنوار التى تحرقه . وأخذت أقرأ كل ما أمامى من الأخبار حتى
الوفيات إلى أن رأيت إعلاناً عن آخر موعد للتقدم لامتحان البكالوريا ،
وهو يوم الأحد المقبل . فذكرنى هذا الإعلان بحياتى الماضية وأخذت أعد
السنوات التى مرت على بعد ترك المدرسة . سبع سنوات كاملة لم أشعر
بمرورها كأنها قطعت من حياتى . ولو كنت واصلت الدراسة لكانت هذه
السنوات كفيلة بأن تجعل منى شخصاً آخر فى نظر نفسى وفى نظر غيرى .
ولكن ماذا أصبحت بعد هذه المدة ؟ كنت واقفاً فى مكان كأنى أقفز إلى
أعلى ثم أسقط حيث كنت واقفاً . ولو كنت مثل زملائى الذين واصلوا

الدراسة حتى حصلوا على الشهادات العليا لكنت أذهب إلى السيد أحمد جلال لأقول له « أنا سيد زهير ! »

وقمت من القهوة ضائقاً بنفسى فعدت إلى منزلى وأغلقت على الباب وجعلت أقرأ قصة إنجليزية بدأت فى قراءتها منذ ليلة ، ولكنى لم أفهم منها شيئاً وكان ذهنى يشرد برغمى عائداً إلى فكرة البكالوريا . وجئت بالجريدة فأخذت أقرأ إعلان الامتحان مرة أخرى ووقفت عند آخر موعد لتقديم الطلبات . هو يوم الأحد ولم يبق عليه إلا الجمعة والسبت ، ولا ينبغى أن أعد الجمعة لأنها عطلة . وقمت إلى مكتبى فأخرجت بعض الكتب الدراسية وأخذت أنتقل بينها قارئاً من هنا ومن هناك حتى ثقلت عيناى ودارت رأسى وتثاءبت ولكنى عند ما أردت النوم لم أستطعه ومضيت فى تفكيرى : « ماذا أفعل إذا اردت التقدم للبكالوريا ؟ » بل إنى سبحت فى الأفكار وأخذت أحسب ما أحتاج إليه من المصروفات فى الجامعة لو دخلت الامتحان ثم نجحت فى البكالوريا . وتسلل النوم آخر الأمر إلى جفنى حتى استيقظت فى الصباح وأنا عازم على أن أتقدم لذلك الامتحان .

وتذكرت أن لى صديقاً قديماً من زملائى أصبح مدرساً فى المدرسة الثانوية بعد تخرجه من كلية الآداب ، وكنت أراه من بعيد فى الطريق فى بعض الأحيان ولكنى كنت أطيع دفعتى الغريبة فأعرج إلى أقرب عطفة حتى أتحاشى مقابلته . وكان أول ما خطر لى أن أذهب إليه لأطلب مساعدته على التقدم للامتحان . وشعرت بالخجل من نفسى إذ لم أفكر فى زيارته إلا عند ما اضطرتنى الحاجة إليه ولكنى عزمت آخر الأمر على أن أجمع عزيمتى وأطرد التردد وأذهب إليه .

وعبد الحميد عباد ــ ذلك الزميل القديم ــ شاب جمعتنى به صلة وثيقة فى أيام التلمذة، وهو من أبناء دمنهور وكان والدانا صديقين ويدخل كل منا بيت صاحبه كأنه أحد أفراد أسرته . ولم أشعر لمقاطعة أحد من زملائى القدامى بما شعرت به من الأسف لمقاطعته ، وكثيراً ما حدثت نفسى أن أذهب إليه لأعاود مودته معتذراً عن مجافاتى له ولكن الكبرياء حالت بينى وبين ما حدثت به نفسى . وكان من الممتازين فى قوة التفكير وكثرة القراءة . وإن كان من أكثر التلاميذ انزواء . كان لا يشارك فى الألعاب ولم يكن له نصيب من الظهور فى محافل أواخر الأعوام ، وكنا لهذا نعرفه باسم الفيلسوف لا تكريماً له ولا تقديراً لذكائه بل تفكهاً يقرب من أن يكون سخرية . وكان يتخذ لنفسه آراء يتمسك بها ولا يقبل فيها جدالا ، وكثيراً ما انتهت مناقشاتنا معه إلى المشادة أو المنافرة . وكان فى أثناء الدروس لا يقبل من المدرسين قولا حتى يناقشه ويحلله ، ولا يبالى ما يؤدى إليه ذلك من ضيقهم به فى بعض الأحيان . وكنا نقول فيما بيننا إنه من أتباع الحزب الوطنى وإن كنا لا نعرف حقيقة مبادىء الحزب الوطنى ، وكان هادئ الطبع فى أكثر أحواله ، فإذا تحمس فى مناقشة سياسية تدفق وتهور وغضب واعتزل أصحابه يومين أو ثلاثة أيام فى كل مرة قبل أن يستعيد سماحته ووداعته . وعزمت على زيارته فى الصباح وكان اليوم جمعة . ورأيت أن أختصر الطريق إلى بيته بأن أعبر شريط السكة الحديدية من جنوب المحطة وراء مخازن البضاعة ، وكانت تلك الطريق تربة متعرجة تمر بين المقابر ولكنها توفر فى السير دورة طويلة تشبه نصف دائرة . ولما وجدت نفسى بين المقابر تذكرت أن أزور مقبرة أبى وكنت منذ وفاته

أتحاشى الاقتراب منها مدفوعاً بشعور الطفولة بغير تفكير . ولما وقفت إلى جوار القبر غمرني حنين شديد وانهمر الدمع من عيني بحرقة بالغة وهجمت على موجة من الأسف والندم على أني لم أذهب كل تلك السنوات لأزور ذلك الوالد العزيز وأترحم عليه وأذرف عنده دموعي ، وهو الذي كان يملأ حياتي بهجة وأملا . وتذكرت وأنا واقف هناك ذلك اليوم البعيد الذي سرت فيه ذاهلا مع الموكب الحزين لأودع جثمانه ، وعاد إلى الشعور باللهفة التي أحسستها وأنا أراه محمولا إلى الحفرة ليدفن فيها . كنت عند ذلك أتمنى لو بقيت معه ونازعت من حولي لاتمسك به ، إذ خيل إلى أن الحياة بغيره تكون موحشة خاوية مخيفة . وأخذت أقرأ الفاتحة مرة بعد مرة وأنا في غمرة من الحزن وقرأت ما تذكرته من الآيات الأخرى ، ووجدت في ذلك راحة لا أقدر على وصفها . وخيل إلى في تلك اللحظة أن فرحة في داخلي تندمل وأنني أحس روحه تخاطبني قائلة « إن الحياة تناديك يا ولدى ! ». ولأول مرة منذ فقدته تبين لي أنني ما أزال متصلا به بعد الموت وأنه يهتم بي ويباركني . كان كياني كله ينبض بشعور مبهم بأن الحياة وديعة فينا وأنها متصلة بالأجداد من قبلنا ومتصلة بالحفدة من بعدنا وأنها واجب مستمر علينا أن نؤديه إذا أردنا أن نشارك في تحمل أماناتها. ومضيت بعد حين عن القبر وقلبي يعاهدني على أن أودى واجب حياتي ، فلما سرت في طريقي إلى بيت عبد الحميد عباد كنت أحس بأن شيئاً كبيراً تغير في نفسي .

واستقبلني عبد الحميد كما عرفته في سماحته ووداعته وجلسنا ساعة نتذاكر أيام المدرسة وما كان فيها من أحداث صغيرة . وكان يذكرني بأشياء غابت عن ذاكرتي ، كأني طويتها في أغوار عميقة تخفيها عني .

واستمعت إليه كأنى أرى صوراً من عالم بعيد ــ صوراً شاحبة ذهبت ملامحها وانمحت ألوانها من ذهنى ولكن أصداءها ما تزال باقية . فذكر الأيام الثائرة التى كانت تهز أعماق نفوسنا فى سنة ١٩٣٥ واجتماعاتنا السرية التى كنا نخفيها عن الأنظار ، وتلك المؤامرات الصغيرة التى أحطناها بالكتمان والخطب النارية التى تبادلناها والمناقشات العنيفة التى تبارزنا بها ، والخطاب الذى حاولنا كتابته بدمائنا فى رعونة الصبا لنبعث به إلى الملك لنطالبه بحرياتنا . وخيل إلى أن هذه السنوات التى فارقت فيها صاحبى قد نزعتنى من عالم إلى عالم ومن حياة إلى حياة ، وحددت لى الأفق الذى أجول فيه وجعلتنى أنحصر فى طى نفسى وأنساق مع ظروفى كما تدفعنى . واعترانى ارتباك شديد عند ما دارت هذه الأفكار فى رأسى ولم أدر كيف افتح الحديث الذى جئت من أجله . ونظر صاحبى نحوى فى عطف وقال وهو يستند إلى ظهر الأريكة التى كنا جالسين عليها .

ــ لقد مرت بنا السنوات يا سيد وكأنها لحظات . فكيف أحوالك وكيف تنظر إلى الحياة ؟

فارتحت إلى قوله لأنه خلصنى من ارتباكى وقلت :

ــ هى سنوات كثيرة حقاً وهذه آثارها تظهر على شعرك .

وكان الشيب يغبر فوديه ووسط ناصيته .

فقال باسماً : ولكنك ما تزال محتفظاً بشعرك الأسود .

فقلت مبادراً : هذا لأن السنوات مرت بى كأنها قطار سريع وأنا واقف إلى جانب أنظر إليها من بعيد .

فقال هادئاً : يذكرنى قولك هذا بالصور التى كنت ترسمها فى

موضوعات إنشائك . لم لا تكثر من الكتابة فقد قرأت لك شعراً فى الثقافة ومقالات فى النبراس .

فأجبته فى فتور : لست أدرى . عشت هذه السنين لا أفكر فى شيء سوى أن أطفو على سطح التيار وأتجه معه حيث يريد أن يحملنى . لم أفكر فى شيء ولم أرغب فى شيء وأكاد أكون ذاهلا عن نفسى . قضيت هذه السنوات السبع وأنا غير شاعر بأن لى شيئاً أعيش من أجله . والآن فقط وأنا آت إليك بدأت أشعر بأنى كنت أحيا ذاهلا . كنت آتياً إليك من الطريق الذى يمر بالمقابر فعرجت على قبر أبى لأزوره . أتصدق أنى لم أذهب لزيارته مرة كل هذه السنوات ؟ كنت مثل قشة تطفو على الماء ويدفعها التيار هنا أو هناك وهى لا تريد لنفسها شيئاً . ولكنى عند ما وقفت عند قبر أبى خيل إلى أن روحه تستقبلنى وتحدثنى ، وتقول لى « إن الحياة تناديك يا ولدى . » ولأول مرة بدأت أفكر وأنا فى طريقى إليك وأسأل نفسى ما ذلك الذى تنادينى الحياة من أجله ؟

وكان صاحبى يستمع إلى فى اهتمام وعطف وقال :

ــ سل نفسك يا صديقى عن الغاية التى تريدها أنت من الحياة ــ هذه هى الحياة التى تناديك .

وشعرت بالرهبة تغمرنى وأنا أحاول أن أجد له جواباً ، ولكنه استمر قائلا :

ــ أظنك مغالياً يا سيد عند ما تقول إن الزمن قد مر بك كالقطار وأنت واقف إلى جانب . وما الزمن ؟ إنه خرافة

فقلت مسروراً : هذا ما كنت أقوله لنفسى .

إنه من صنع عقولنا نحن أليس كذلك ؟

فقال موافقاً : لا شك فى هذا . ولكنه مع هذا يمثل حقيقة يا صديقى. هو يمثل الحركة التى فينا والحركة التى حولنا . الحركة هى الحقيقة الوحيدة التى تعنينا . ولا عبرة بما نسميه الزمن إلا بمقدار ما يكون فيه من الحركة . السكون والجمود لا يكون إلا للأموات . بل إن الأموات نفسها تتحرك والجمادات تتحرك لأنها تتغير وتتحول من حالة إلى أخرى . لم تكن أنت ساكناً ولا جامداً فى هذه السنوات ولا يمكن أن تكون جامداً ، لأنك كنت تنمو وتجرب ، سواء فطنت إلى ذلك أو لم تفطن . قد نشعر بالقلق لأننا لم نحقق لأنفسنا غاية كنا نحب أن تتحقق ، ولكن هذا معناه أننا نحس فى أعماقنا بوجود غاية مبهمة ، وما شعورنا بالقلق إلا من أجل هذه الغاية المبهمة ، وهذا الحديث الذى خيل إليك أنك سمعته وأنت واقف إلى جوار قبر أبيك ما هو إلا حديث هذة الغاية المبهمة التى تحسها ولم تقدر بعد على تحديدها .

فقلت فى تردد : أقول لك يا صديقى فى صراحة إنى خائب حائر لم أستطع ولا أظننى أستطيع أن أعرف أين أتجه .

فقال وهو ينحنى إلى الأمام ويتكئ بذراعيه على ركبتيه فى اهتمام :

ــ ألا يمكن أن يكون هذا من صنعك أنت ؟ دعنى أحدثك فى صراحة ، يخيل إلى أنك آسف لأنك لم تستمر فى الدراسة ، ولهذا تقول إن السنوات مرت بك كالقطار السريع من بعيد . ولكننا لا يمكن أن نكون نسخاً مكررة من صورة واحدة . لكل منا صورة ممكنة يستطيع أن يحققها قد تكون مخالفة للصور الأخرى ، وهذا لا يمنع من أن تكون مساوية لها

أو خيراً منها . أنت تاجر وأنا معلم وغيرنا طبيب أو عامل أو فلاح ، وكل منا يستطيع أن يكون مثل الآخرين أو خيراً منهم إذا حقق صورته كاملة.

وتنبهت إلى قوله كما يتنبه الحالم إلى صوت يوقظه : كان التأثر بادياً عليه وصوته يتهدج وعيناه تلمعان ، فذكرنى بأيام التلمذة عند ما كان يتدفق فى حماسته للفكرة التى يقتنع بها . وبدأت أسأل نفسى أسئلة كثيرة وأنا أعبث بأصابعى كما كنت أفعل دائماً إذا كنت مرتبكاً أو سابحاً فى أفكار حائرة .

ولم أجرؤ بالطبع على أن أحدثه عن الامتحان الذى جئت إليه من أجله .

فاستأذنت بعد قليل وقمت لأنصرف .

فقال لى باسماً :

ــ متى أراك ياسيد ؟ أشكرك على هذه الزيارة وأرجو ألا تكون الأخيرة

فقلت ضاحكاً : ستراني أكثر مما تحب يا عبد الحميد .

فضغط على يدى قائلا : مرحباً بك دائماً ، وحاول إذا استطعت أن تكثر من زياراتك حتى أضيق بها .

٧

انصرفت من عند عبد الحميد وذهني متقد بأفكار شتى ، وكأن رأسي يدور وقلبي يشبه عصفوراً فى أسر طفل غرير يقذف به فى عنف ويجذبه فى قسوة .

كنت أسأل نفسي مئات الأسئلة التى لا أجد لها جواباً شافياً وأخذت أسخر من الفكرة التى دفعتنى إليها حيرتى ، فهل أعود أدراجى لأكون مرة أخرى تلميذاً واتقدم للأمتحان فى البكالوريا ؟ أهناك برهان أقوى من هذا على أنى وقفت حقاً عن النمو كل هذه السنين كأنى فلاح مسكين فى حقله والقطار السريع يمر به من بعيد ؟

وأخذت أعيد على نفسي ما قلته وما قاله عبد الحميد . ليس الزمن سوى خرافة من صنع عقولنا نحن والحركة هى الحقيقة الوحيدة . كل شيء يتحرك حتى الحجارة . وأما أنا فإنى لم أتغير وإن كان عبد الحميد يقول لى إنى لا بد تغيرت .

ووصلت إلى منزلى وأنا أقلب هذه الأحاديث فى نفسي ودخلت إلى غرفتى واستلقيت على الكرسي الأسيوطى القديم الذى اشتريته منذ شهر من أحد تجار الأثاث المستعمل ، وجعلت أدير بصرى فى الغرفة وأحسست أنها تضيق بى وأن جدرانها تقترب من كل جهة لتنطبق علىّ وتحطمنى . وقمت لأسير فيها حتى أتحقق من أن الجدران ثابتة فى مكانها وكانت الغرفة

لا تزيد على ثلاثة أمتار فى أربعة فما أكاد أخطو بها خطوتين حتى أرتد إلى الناحية الأخرى كأنى وحش فى حظيرة . فعدت إلى الكرسى واستندت برأسى إلى ظهره وجعلت أسبح فى أفكار هائمة . كل شىء يتحرك حتى الجمادات وأما أنا فإنى ما أزال كما كنت منذ سبع سنوات ، ولا أدرى ماذا تغير منى . ماذا يدل على هذا النمو الذى كان عبد الحميد يتحدث عنه؟

ولماذا أخجل من فكرة التقدم لامتحان البكالوريا ؟ اليوم الجمعة وغداً السبت وآخر موعد للقيد فى الامتحان يوم الأحد فإما الآن وإما لا . وقمت خارجاً من غرفتى عازماً على أن أعود إلى صاحبى لأفاتحه فيما قصدته من أجله منذ قليل . ولما بلغت ضريح أبو طاقية وقفت لأقرأ الفاتحة وانشرح صدرى وأسرعت فى سيرى حتى وصلت إلى بيت صديقى ، ولما لقيته تبسمت قائلا :

ــ أما قلت لك إنك ستراني أكثر مما تحب ؟

فجذبنى من يدى قائلا : الحديث بيننا لم ينته بعد .

فقلت مبادراً : لم أعد إليك لأتمم هذا الحديث ، ولا أريد أن أضيع وقتك ، أو بقول آخر لا أريد أن أضيع وقتى ، فالحقيقة أنى كنت آتياً إليك أول مرة لأقول لك شيئاً سخيفاً ثم خجلت أن أقوله . أليس من المضحك أن أفكر فى التقدم إلى البكالوريا بعد هذه المدة الطويلة ؟

وسكت لأرى أمارات الدهشة على وجه صاحبى ولكن وجهه كان أصفى من صفحة غدير رائق .

وقال باسماً : أظنها فكرة حسنة .

وكنا قد بلغنا غرفة الانتظار وجلس إلى جنبى قائلا :

ــ اعتقد أنك لن تجد صعوبة فى النجاح .

فوثب قلبي إلى حلقى من السرور وقلت :

ــ أتظن هذا ؟

فقال : أعرف أنك كنت دائماً تحب القراءة ولا شك فى أنك كنت تقرأ وتكتب .

وشعرت من نظرته ومن نبرات صوته أنه لا يجامل ولا يقصد أن يشجعنى . فقلت :

ــ سأقدم على المغامرة وآخذ نصيبي . إذن فأنت ترى أنها فكرة لا تبلغ من السخافة ما كنت أظن .

فقال مبادراً : هى إن شئت مغامرة ولكنها ليست مقامرة على كل حال . هناك ألوف من الشبان يجعلون من الامتحان نوعاً من المقامرة لأنهم مفلسون يريدون أن يحصلوا على ثروة بغير مقابل . ولكنك لا تقامر ياصديقى لأنك تطلب شيئاً تعرف قيمته وتريد أن تحصل عليه بثمنه . لم تكن واقفاً كما زعمت إلى جانب الطريق والقطار السريع يمر بك . لا أحب أن أجاملك بمثل هذه الأقوال ولست أقصد أن أجاملك ولكنى أظن أنك أحسنت .

فملأنى قوله ثقة وقمت مستأذناً وقلت : سأمر عليك فى الصباح .

فقال : سأكون هناك منذ الساعة الثامنة وإن كنت لا أبدأ عملى قبل العاشرة . وأحب أن أذكرك بأنى معلم .

فتبسمت قائلا : وأحب أن أقول لك أيضاً إنى أصبحت تلميذاً من جديد . وأرجو أن أكون تلميذاً مجتهداً .

ومددت يدى إليه وضغطت على يده بغير أن أشكره بلسانى . وبدأت من ليلتى أعد العدة للمذاكرة ، ولا أذكر أنى كنت فى وقت من أوقات تلمذتى فى مثل هذه الحماسة للتعلم . حقاً إننا لا نعرف للتعليم قيمة إلا إذا شعرنا حقاً بأن لنا غاية نريد أن نحققها من ورائه .

وكانت الأشهر الثلاثة الباقية على الامتحان أكثر أوقات حياتى ازدحاماً بالعمل والكد . كنت مثل شخص غرقت به السفينة فى ليلة مظلمة من ليالى الشتاء العاصفة ، فهو لا يلتفت إلى رهبة الظلام ولا إلى برد الماء ولا إلى شدة العاصفة بل يحصر كل همه فى الأنوار البعيدة التى تخفق على الشاطئ ، ويجاهد بكل قطرة فى حياته ليصل إلى البر سالماً . لم أكد اختطف فى كل ليلة إلا ساعات من النوم ، ولم أكد أذوق من الطعام إلا ما يمسك الرمق . كنت أتحرك وأعمل فى شىء من الذهول عن كل شىء سوى ما أدرسه ، ولا أكاد أحس بشىء مما حولى ولا بأحد ممن حولى . ولما جاء الأمتحان آخر الأمر ذهبت إلى مقر اللجنة ودخلت إلى الخيمة المعدة لجلوس التلاميذ وجلست على المقعد الذى عليه رقم جلوسى وأنا فى حال تشبه حالة الحالم . لم التفت إلى وجه من الوجوه التى حولى ، ولا إلى صوت من الأصوات التى كانت ترن فى أذنى ، بل كنت لا أكاد أفطن إلى أوراق الاسئلة التى كانت توضع أمامى ، كأن عينا أخرى هى التى كانت تبصر لى وكأن إرادة أخرى هى التى كانت تحركنى وكأن ذهنا آخر هو الذى كان يفكر لى . ولست أبالغ إذا قلت إنى فى هذه الساعة التى أكتب فيها هذه الأسطر لا أكاد أذكر شيئاً مما رأيت ولا مما سمعت فى تلك الأيام التى لم يبق منها فى ذاكرتى سوى صور حائلة تقرب من صور الأحلام البعيدة .

وكان صاحبي عبد الحميد يسألني في كل يوم عن إجابتي فأحاول أن أعيدها عليه فلا يتهيأ لي تذكر شيء منها ، حتى خيل إليه أني أتعمد إخفاءها خوفاً من إطلاعه على أخطائي . ولما مضت أيام الامتحان اعترتني حالة شديدة من الهم والغم والسخط على نفسي وندمت على الحماقة التي دفعتني إليها فكرة سخيفه ، ومر عليّ شهر كامل في هذا القلق ضائقاً بنفسي وبمن حولي فكنت أخرج إلى الفضاء لأنفس عن كربي فلا أعود إلى بيتي إلا بعد أن يجهدني التعب حتى أسرع إلى النوم .

وكنت في يوم من تلك الأيام عائداً من رحلة طويلة في الريف حول المدينة ، وعرجت على قهوة لأستريح قليلا قبل الذهاب إلى بيتي فأقبل صبي من باعة الصحف يصيح « نمر التلامذة ! » فاشتريت منه صحيفة وأنا متلهف . وأخذت أجيل بصري في الأرقام ولكن عيني سبحت في الأعمدة المرصوصة ولم أتذكر رقم جلوسي . ورأيت أرقام المتقدمين من المنازل في دمنهور فلم أجد إلا رقماً واحداً وهو ٢٨٥٥ . أكان هذا رقمي ؟ أكان في رقمي عدد مكرر ؟

وكان قلبي يخفق كالمجنون الثائر مع أني طالما وطنته على أني راسب . وأخذت أسأل نفسي أين ذهب رقم جلوسي . ألا يكون في جيبي ؟ ووضعت يدي في جيوبي واحداً بعد واحد ، ولكني لم أجد الورقة في جيب منها . وأخرجت محفظتي لعل الورقة تكون فيها . ها هي ذي ! إنها هي بعينها وفيها العدد المكرر . وخفق قلبي أكثر جنوناً وخيل إليّ أن أقوم فأقول لمن في القهوة جميعاً إني نجحت . وخيل إليّ أن الناس جميعاً ينظرون نحوي ويعرفون أني أريد أن أصيح بهم معلناً إليهم نجاحي . وقمت واقفاً

ولولا خوفى من الأنظار لجريت بأسرع ما أستطيع من السرعة حتى أصل
إلى أمى وأختى لأخبرهما بالنبأ السعيد، ثم إلى بيت صاحبي عبد الحميد عباد
لأحمل إليه بشرى نجاحى . وسرت مسرعا والجرائد الثلاث ترف فى يدى
لم أجد وقتاً لأطويها فى رزمة منتظمة . ولو أطلقت لنفسى العنان لأخذت
أضحك وأضحك كما يفعل الغريق بعد أن يصل إلى البر سالماً ، ولكنى
إن كنت لم أضحك فإن قلبى كان يفعل نيابة عنى كأنه أصيب بنوبة
هستيرية . ومررت على منزل صاحبي فى طريقى وأظن أنى قطعت المسافة
بين القهوة وبين بيته فى أقل من خمس دقائق مع أنه كان فى العادة يبعد
بما لا يقل عن عشر . وطرقت الباب فنزلت إلىّ الخادم تقول لى إنه لم
يكن هناك . فقلت لها « قولى له إذا عاد إنى نجحت » ثم أسرعت منصرفاً
ولم أقل لها من أنا .

واتجهت إلى منزلى لأحمل النبأ إلى أمى وأختى وتذكرت عند ذلك فقط
أن أختى منيرة هى الأخرى تنتظر النتيجة . فوقفت فى مكانى ورفعت
الجريدة أمام بصرى تحت مصباح الشارع لأبحث عن رقم أختى ، وكان
شعورى بالخجل من نفسى عظيما لأنى لم أهتم بتذكر رقم جلوسها . وزاغ
بصرى مرة أخرى فى الأرقام — لجنة دمنهور — مدرسة البنات — ولكنها
كانت أرقاماً كثيرة . فطويت الصحيفة وسرت فاتراً حتى وصلت إلى بيتى
ولم أدر ماذا أفعل . ولمحت منيرة الجريدة فى يدى ورأت الأرقام فوثبت
إلىّ وخطفتها وأخذت تفحص الأعمدة المرصوصة وأنا أنتظر فى لهفة ، ثم
رأيتها تلقى الجريدة من يدها وتذهب صامتة ووجهها ينم عن حزنها .
فانقلب ما كنت أحسه من الفرح المفرط إلى وجوم مفرط ، ورثاء ومواساة

وذهبت وراءها إلى الغرفة لأسرى عنها . وجاءت أمى بعد قليل فشاركتى فى محاولتى حتى عادت منيرة إلى هدوئها وضاعت على الفرصة فى مفاجأة مسرحية كنت أطمع فيها لو كنت أعلنت نجاحى لأمى وأختى بغير أن تكون عندهما فكرة عن تقدمى للامتحان .

ولما مرت هذه الهزة التى اعترضتنى أخذت أفكر فى المستقبل ووجدته كما كان ولم يفدنى النجاح شيئاً فى إزالة الغيوم التى كانت تلفه من كل جانب . فهل أستطيع أن ألتحق بالجامعة؟وكيف أحصل على رزقى ورزق أهلى ؟ وما فائدة النجاح إذا لم ألتحق بالجامعة؟فهل أقنع بهذه الشهادة على أنها حلية تزين صدرى عند ذهابى إلى الأسواق مع حمادة لنشترى القطن من الفلاحين المساكين ؟ ومهما يكن من الأمر فإنى قضيت ما بقى من شهور الصيف فى القراءة والكتابة وأقبل شهر أكتوبر فذكرنى بالأسواق وحمادة الأصفر وما تكلفنا به ظروف الحياة من تحمل ما نكره فى سبيل العيش . لم أشعر بأن التجارة طريقى فى الحياة ولولا حاجتى إلى الرزق لما رضيت أن أعود إلى الأسواق أبداً . وهل كنت أنا الذى أشتغل بالتجارة حقاً ؟ لم يكن لى منها سوى أن أذهب مع حمادة وأحمل النقود فى جيبى لأدفع أثمان الأقطان منها . كنت فى مبدأ الأمر أحسب أنها مغامرة مثيرة فوجدت أنها بالنسبة إلىّ لا تزيد على سخرة من أجل القوت .

وفى صباح يوم من الأيام نزلت من منزلى لاأدرى أين أذهب فاتجهت نحو شاطئ الترعة لأملأ صدرى من هواء الخريف .

وسمعت فى الطريق صوتاً ينادينى من ورائى وكان صوتاً أعرفه . وتبسمت بالرغم من ضيقى عند ما رأيت أمامى محمد الشرنوبى زميلى القديم

الذى كنا نسميه « الفلاح » فيما بيننا .

وقال لى بابتسامته العريضة : أين أنت يا شيخ ؟

فقلت : وأين أنت يا أيها الفلاح .

فقال : فى الغيط طبعاً ، كما أنك فى السوق .

فقلت باسماً : ومن قال لك ؟

فقال : وهل يجهل أحد « تجارة الأمانة » ؟ تعال بالله معى ونجنى من هؤلاء التجار الذين يريدون سرقتى .

وقلت مبادراً : تحت أمرك يا حاج شرنوبى .

وقلت فى نفسى « هذا شىء آخر . لا بأس أن أذهب مع صاحبى هذا لأشترى ما عنده ، فهذا خير من الجلوس على جوانب الطرق. ولكن ما أدرانى لعل القطن الذى عنده ردىء وهو يبحث عن تاجر ساذج ليبيعه له » .

وأخذنى صاحبى من ذراعى متجهاً بى نحو المحطة ، وأخذت أحدث نفسى صامتاً . إنها حماقة لا مثيل لها . وماذا أعرف عن تجارة الأقطان ، وما أدرانى كم قنطاراً عنده ؟

وقلت له فى هدوء :

ـــ أرجوك أن تأذن لى أن أذهب إلى بيتى أولا . الساعة الآن العاشرة وأظن القطار لا يأتى إلا فى الساعة الثانية عشرة . ألست دائماً فى اتياى البارود ؟

فقال : لم تنس بعد يا سيد أفندى ؟ سأنتظرك هنا . وكنا أمام قهوة مظهر ، فواعدته أن أعود إليه قبل مضى ساعة ، وأسرعت منطلقاً إلى شارع

(أبو الريش) لعلى أعثر على حمادة الأصفر ، وكنت لم أصادفه فى هذه الأشهر الأخيرة . وبعد دورة طويلة عثرت عليه فى خمارة بزقاق مظلم دلنى عليها صبى القهوة التى تعودنا أن نجلس فيها . وجررته معى فى شىء من القسر وذهبت به إلى البيت لآخذ ما هناك من النقود ثم ذهبنا إلى القهوة لنلتقى محمد الشرنوبى .

وكنت فى أثناء السفر إلى ايتاى البارود أحدث نفسى فى حيرة عما أنا مقدم عليه ، وامتلأت رهبة . ولما وصلنا إلى عزبة الشرنوبى اجتمع علينا الفلاحون وشاركوا زميلى القديم فى خدمتنا والترحيب بنا حتى نسيت قلقى وداخلنى شعور بارتياح ممزوج بالزهو . وذهبنا إلى مخزن القطن وكان فيه خمسون قنطاراً كاملة .

وهمس لى حمادة :

ــ قطن عال ولكنه وسخ قليلا . خمسون قنطاراً يا سيد أفندى !

فقلت هامساً : كم يساوى ؟

فقال : لا أقل من اثنى عشر جنيهاً . لقطة !

ففكرت فى نفسى ماذا أصنع ؟ وهل يصدق ظن حمادة الأصفر ؟ ألا يكون مغالياً فى الثمن ؟ ألا ينزل سعره فى مدة يوم أو يومين قبل أن نحمله لبيعه فى دمنهور ؟

ولكنى ملكت نفسى ولم أظهر تردداً .

ولما أتى الليل أعد لنا صاحبى فراشاً فى حجرة عليا فوق المخزن وذبح لنا جدياً سميناً وقضينا فى الدوار مدة طويلة فى سمر قبل أن نذهب إلى غرفة النوم . ولكننا لم نذق للنوم طعماً واضطررنا أنا وحمادة إلى قضاء ما بقى من

الليلة فى الحديث لأن لسعات البعوض والبراغيث لم تدع لنا فرصة للرقاد . وكان مما زادنا اضطراراً إلى الأحاديث أن المطر بدأ يهطل بعد نصف الليل فكان لا بد لنا أن نجلس فى الركن الذى لا يتسرب الماء إليه ونستند بظهرينا إلى الجدار . وكان حديث حمادة مسلياً برغم التعب ومضايقة اللسعات ، وكان كل الحديث عن أهل المدينة . ولست أدرى كيف عرف حمادة كل هذه الأسرار التى أخذ يحكيها مع أنى لا أعرف منها شيئاً وأنا أعيش معه فى المدينة نفسها . وكان ينتقل من حديث إلى آخر ذاكراً من عيوب عظماء المدينة ما لا يكاد يصدق . وقد أخذت ذلك كله على أنه قصص من نسيج الخيال أو من رغبة التشنيع وهى طبيعة تلجأ إليها النفوس المحطمة . وهل كنت لأصدق أن السيد أحمد جلال يقترن سراً بامرأة ساقطة ، أو أن محمد باشا خلف يعيش من ثروة امرأته التى تضربه بحذائها ؟

ومهما يكن من الأمر فقد مرت الليلة وبادرنا منذ الصباح الباكر لنستعد للعمل . ولم أتردد فى الشراء كما نصحنى حمادة ودفعت لصاحبى كل ما كان معى وهو المائتا جنيه ، وقلت له فى بساطة إنى أدفع له ما بقى من الثمن إذا استلمت البضاعة فى دمنهور .

ولما خرجنا من المزرعة متجهين إلى المحطة همس حمادة فى أذنى :

— مائة جنيه يا عم !

فقلت : ماذا تقصد ؟

فأجاب : هذا القطن لا يساوى أقل من اثنى عشر جنيهاً وقد رضى هذا المغفل بأن يبيعه بعشرة . مائة جنيه يا عم ؛ يدك !

وسحب يدى فقبض عليها قائلا : مبروك ؛ والله زمان يا بو زهير !

ولم أحب أن أتورط فى الآمال السابقة لأوانها فلم أقل شيئاً وأخذ حمادة يحدثنى عن آخر أخبار السياسة التى كنت لا أعبأ بها كثيراً، فالانتخابات على وشك الابتداء والسيد أحمد جلال يستعد لمواجهة خصمه محمد باشا خلف ، وستكون معركة طاحنة لأن رئيس الوزارة المنتظر قريب محمد باشا . وجمعية شباب دمنهور تستعد للاجتماع مرة أخرى لأول مرة منذ الانتخابات الماضية وستكون أسعار المظاهرات وأثمان الأصوات أعلى من الأسعار السابقة .

ولما وصلنا إلى دمنهور لم أدر إلى أين أذهب بهذه الصفقة الكبيرة . كنت أبيع ما اشترى من الأقطان فى كل مرة، وهى لا تزيد على عشرة قناطير أو خمسة عشر قنطاراً ، ولكن خمسين قنطاراً تحتاج إلى العناية . فجنيه واحد أخسره فى القنطار يؤدى إلى ضياع ربع ما جمعته فى خبطة واحدة . وكان الأفضل فى نظرى أن اسرع إلى التخلص من هذا الحمل الثقيل قبل أن أقع فى ورطة ، فالأسعار لا تثبت على حال ، واليوم أقرب إلى الاطمئنان من الغد . واتجه ذهنى أول شىء إلى السيد أحمد جلال فقصدت إليه من توى بغير أن أتردد .

ودخلت عليه فى مكتبه وكان لقاؤه سمحاً كما عودنى دائماً كأن لم يحدث بيننا شىء يعكر الصفاء . وقال لى وهو يشير إلىّ بالجلوس :

— أين أنت يا سيد أفندى ؟ ما هذه الغيبة ؟

فأجبت فى هدوء أصحاب الأعمال :

— تحت الأنظار يا سيدى !

فقال مبتسما : كنت أظن أنك لا تتركنا هكذا .

فأجبت فى زهو : اشكرك . ولكنها المشاغل .

وبدأنا نتحدث قليلا ونتساءل عن الأحوال كما جرت العادة، وتعمدت أن أسأله عن صحة الأسرة والآنسة الكريمة . وقلت له مجاملا فى آخر حديثى : — أنا مدين لك بكل ما وصلت إليه .

ونظرت إلى وجهه فاحصاً لأرى أثر كلمتى .

ولا شك أن كلمتى استرعت سمعه فإنه رفع حاجبيه لمدة لحظة قصيرة، ثم أسرع إلى تملك نفسه وعاد وجهه هادئاً باسماً .

فمضيت أقول متعمداً :

— جعلتك مثالا لى وعزمت على أن أبدأ حياة جديدة كما بدأت أنت. كان عندى عشرون جنيهاً وعزمت على الاتجار بها . وقد جئت إليك اليوم بخمسين قنطاراً من القطن الجيد .

وقدمت إليه العينة التى كانت معى .

فأخذها السيد وجعل يقلبها بأصابعه ويفحص تيلتها . وكانت ملامح وجهه تدل على الاهتمام الشديد .

وقال فى نغمة تشجيع : حسن جداً . قطن طيب ولكن فيه بعض الوسخ . بكم اشتريته ؟

فتبسمت فى سرى ولم أجب بل سألته : كم يساوى ؟

فضحك عند ذلك بغير تحفظ قائلا : لقد أصبحت تاجراً ماهراً . حسن جداً يا سيد أفندى . هكذا يكون التاجر الحكيم الذى لا يكشف لأحد عن أوراقه . ولهذا سأعاملك معاملة الند للند ، تاجر مع تاجر بغير تعطف ولا مجاملة .

فقلت فى لهجة الند : لا أطلب غير هذا .

ولمعت عيناه لمعة لم أعرف معناها عند ما قال : هذا القطن يساوى خمسة عشر جنيهاً للقنطار .

وفى لمح البصر حسبت مقدار ربحى — مائتين وخمسين جنيهاً ؛ وهزتنى موجة من السرور .

وتبسم السيد أحمد بسمة فى لون من الدهاء قائلا :

— هذه أسعار اليوم إلى هذه الساعة كما أعرف ، ومن يدرى ؟ لست أعرف إذا كان هذا السعر يزيد أو ينقص بعد ساعة واحدة . ولك الخيار طبعاً فى أن تبيع الآن أو فى الغد .

فقلت متكلفاً الهدوء : لا مانع من البيع الآن .

فقال فى بساطة : اشتريت يا سيد أفندى . والقطن كله من نفس العينة . هذا مؤكد طبعاً !

فقلت : هذا مؤكد .

وواعدته أن أحضر إليه غداً فى الصباح بالبضاعة ، وكنت متفقاً مع الشرنوبى على أن يصل القطن إلى دمنهور قبل طلوع الشمس . وخرجت من المكتب بعد أن صافحت السيد أحمد جلال رافعاً رأسى واتجهت إلى القهوة التى واعدت حمادة أن ألقاه فيها وأنا أكاد أطير من الفرح . ولكنى لم أجد حماده هناك فشربت فنجاناً من القهوة وجعلت أحدث نفسى مستعيداً كلمات السيد أحمد جلال وحركاته وملامح وجهه . ماذا قصد بقوله معاملة الند للند ؟ وماذا كان يظن من قبل ؟ ولماذا قبل أن يشترى القطن فى هذه الليلة إذا كان يخشى أن يهبط السعر بعد ساعة ؟ وتذكرت

قول مصطفى عجوة عنه إنه مثل بئر عميقة لا يعرف أحد قرارها . وبدأت أشعر بشيء من القلق . وانتظرت ساعة طويلة ولكن حمادة لم يحضر . وكنت متعباً بعد جهد اليوم وبعد سهر الليلة الماضية فقمت ذاهباً إلى بيتى ولم ألبث أن نمت نوماً عميقاً .

وبكرت فى الصباح خارجاً إلى ميدان المحطة كما واعدت الشرنوبى ، وكانت السيارات هناك محملة . وذهبنا إلى المحلج ولكن السيد لم يكن هناك بعد . فجلسنا ننتظر فى المكتب وكان به بعض مجلات وصحف أخذنا نتصفحها بغير اهتمام وكانت عناوينها الكبيرة كالعادة تغنى عن قراءة ما تحتها . ثم وجدت قصة فى جريدة « بريد الأحرار » وعجبت كيف يجرؤ أصحاب الصحف على نشر مثل هذا السخف ، وكيف يرضى الناس أن يقرأوه . كانت قصة فتى مدله بغانية متزوجة تعبث به كما تعبث بزوجها . مرحى ! ورميت بالجريدة حانقاً ، ولكنى عدت فأخذتها وأخذت أعيد قراءتها متأملا أسلوبها . كان حقاً أسلوباً بارعاً خفيفاً سهلا يحمل على القراءة بما فيه من إغراء . ولو تأتى هذا الأسلوب البارع لرأس ملأى وقلب كبير ونظرة عميقة فى شئون الحياة لكان أدب هذا الشباب الناشىء جديراً بكل إعجاب . إنه أسلوب تخلص من التكلف والغموض والحذلقة التى كانت تجعل من الأدب لغزاً يحتاج إلى الحل قبل أن يفهم . ولكن أدباء الشباب لا يريدون أن يرتفعوا بالحياة لأنها تغرقهم وتجرفهم معها ، والأديب لا ينبغى له أن يغرق فى الحياة ولا أن ينجرف معها . هو يعيش فيها ولكنه يسبح فيها ويعرف اتجاهه . هكذا كنت أفكر عند ما دخل السيد أحمد جلال وقطع على التفكير بتحيته السمحة .

وعند ما سلم على الشرنوبى تبسم قائلا :

ـــ هذا صاحب القطن ؟

وخيل إلىّ أن بسمته تحمل معنى رقيقاً من السخرية . ولم أفطن إلا فى تلك اللحظة إلى الخطأ الذى ارتكبته عند ما جئت بالشرنوبى معى . أليس معنى هذا أنه لم يقبض منى ثمن قطنه بعد ؟ أليس معنى هذا أننى لم أكن بعد تاجراً يشترى الخمسين قنطاراً ويدفع ثمنها مقدماً ؟ واعترانى شىء من الارتباك والخجل ولكنى جاهدت أن أكون طبيعياً .

وأتم السيد أحمد جلال ضربته بأن فتح الخزانة وأخرج منها ست ورقات من ذوات المائة جنيه ودسها فى يدى هامساً :

ـــ تحت الحساب يا سيد أفندى .

وأحسست الحرارة فى أذنى ووجهى ، واستأذنت خارجاً مع صاحبى وقلت للسيد أحمد إنى عائد بعد ساعة .

وعدت إلى المحلج بعد أن شيعت صاحبى إلى المحطة فوجدت السيد أحمد مشغولا مع عملائه ، فلم يلتفت إلى إلا بنظرة باسمة قصيرة ، وجلست فى ركن من الحجرة حتى يفرغ . وانصرفت بذهنى أتأمل طريقته فى المعاملة والحديث ، كأنى أقرأ درساً جديداً ، وعدت أسأل نفسى أى فرق بين هذا الرجل وبين حمادة ؟ ما الفرق بين الذهب والنحاس وكلاهما معدن ؟ وجاء دورى بعد حين فمد السيد يده نحوى بوثيقة بين أصبعيه السبابة والوسطى قائلا :

ـــ كم الباقى ؟

وقرأت الورقة وكان وزن القطن مكتوباً عليها ؛ ثمانية وأربعون قنطاراً ونصف .

فصحت صيحة مكتومة : هى خمسون قنطاراً .

فقال هادئاً : هذا هو الوزن الرسمى .

ولولا أنى دفعت إلى الشرنوبى بقية ثمن قطنه لما ترددت فى استرجاع القطن لأنى كنت واثقاً أن وزنه لا يقل عن خمسين قنطاراً وافية .

وقال السيد أحمد وهو يفتح الخزانة .

— يبقى لك مائة وسبعة وعشرون جنيهاً ونصف . أليس كذلك ؟

فلم أجبه ولكن ذلك لم يمنعه من عد النقود ووضعها أمامى .

وأخذت النقود صامتاً وحييته تحية هادئة ، وانصرفت وأنا أقول لنفسى « كيف يحدث هذا ؟ » . وذهبت عائداً إلى القهوة لعلى ألقى حماده حتى أعطيه نصيبه من الربح ، وكنت من قبل عازماً على أن أعطيه عشرة فى المائة من الربح فلم أرض أن أقللها عن خمسة وعشرين جنيهاً

وكان فكرى مشغولا طول الوقت بنقص وزن القطن ، لا من أجل الجنيهات التى فقدتها بل من أجل المعنى الذى وراء ذلك النقص . كنت واثقاً من أن وزن القطن خمسون قنطاراً وقد وزنته بنفسى وهذه صناعتى . ألا يكون مصطفى عجوة هو الذى وزنها ؟ أيمكن أن يكون السيد أحمد عالماً بأن موازينه ظالمة ؟ وتذكرت الحديث القديم الذى كان بينى وبين مصطفى وكان حنقى شديداً . ولكنى مع هذا أرضيت نفسى عما أصبت من الربح فإنى لم أحلم فى يوم من الأيام أن أربح مائتى جنيه فى ليلة واحدة .

واستقبلنى حمادة فى القهوة فاتحاً ذراعيه ليضمنى إلى صدره قائلا :

– مبروك يا سيد أفندى ؟

وكان صوته مسموعاً فى آخر القهوة .

ولم يكن من العجيب أن يهنئنى على الربح العظيم فإن خمسة جنيهات فى القنطار الواحد فى ليلة واحدة رقم قياسى فى التجارة . وقلت له :

– مبروك عليك أيضاً !

ومددت يدى إلى جيبى لأخرج النقود وعزمت فى لحظتى على أن أعطيه كل الكسور فوق المائتين .

فصاح بى :

– هل بعت ؟

فقلت له : ودفعت باقى الثمن .

فصاح : بكم ؟

فقلت مباهياً : بخمسة عشر جنيهاً .

فصاح مذعوراً : بكم ؟ من قال لك هذا السعر ؟ من هذا اللص الذى اشترى منك ؟ قل لى من هو حتى أخزق عينيه .

فقلت فى دهشة : ولم ؟

فقال : لص ! حرامى ! ابن كلب !

وأخرج من جيبه جريدة الصباح وفتحها فى لهفة وأشار بيده إلى عنوان كبير قائلا :

– انظر . هذا هو السعر . تعال نذهب إليه وأنا أعرف كيف أقول له يا لص !

فنظرت إلى الصحيفة فهالنى ما رأيت . قرأت عنواناً ضخماً : « ارتفاع مفاجئ فى أسعار القطن » ومن تحته عنوان آخر « عشرون جنيهاً للقنطار » . وتسمرت فى مكانى أنظر إلى الصحيفة مبهوتاً وتذكرت أن هذه الصحيفة نفسها كانت فى يدى فى الصباح وأنا فى مكتب السيد ، ولكنى لم أقرأ صفحة التجارة .

وقلت لنفسى : لاشك أنه يعلم هذا .

وأعدت نظرى على الصحيفة فوجدت أن هذه الأسعار كانت آخر الأسعار بالأمس .

وشعرت بشىء كالدوار فجلست صامتاً وتذكرت ابتسامة السيد أحمد ولمعان عينيه وقوله أنه سيعاملنى معاملة الند للند . إذن كانت مبارزة بين تاجر وتاجر ، أحدهما قديم خبير بألاعيب التجارة يريد أن يصرع تاجراً صغيراً ليبرهن له على مقدار ضعفه .

وكان حمادة فى أثناء ذلك لا ينقطع عن السب والتهديد وقام بعد قليل فجذبنى من ذراعى قائلا :

— قم بنا نذهب إلى ذلك اللص . من هو ؟

فقلت فى صوت ضعيف : السيد أحمد جلال .

وقدمت له ورقة الوزن فصاح بغير تحفظ : نهاره أسود . قم معى لترى كيف أخزق عينيه . مالك لا تتحرك ؟ أتخاف أن يأكلك ؟ أحقاً بعته بخمسة عشر جنيهاً ؟ وأقل من خمسين قنطاراً ؟

فقلت وأنا أشعر بجفاف حلقى : لا فائدة !

فقال فى مرارة وعنف : حمار ؛ حمار والله العظيم ! أتريد أن تسكت .

فقلت : وما الحيلة ياحمادة . انتهى الأمر وقبضت الثمن وتصرفت فيه.

فقال فى نغمة يائسة : هل تريد أن تكون تاجراً ؟ لم أجد فى التجار أخيب منك إلا أنا . النهاية يا عم . تعيش وتأخذ غيرها . هى وقعة تعلمك المشى يا ولدى . النهاية ! هى بيعة بثمنها . هات يا عم .

وفرك أصبعية كعادته يطلب النقود .

فأعطيته سبعة وعشرين جنيها ونصف وكان ينظر إلى الأوراق التى أقدمها إليه واحدة واحدة ولمعت عيناه فى جشع وقال وهو يدس النقود فى جيبه .

— النهاية يا عم ! هيصة !

ووضع يده فى فمه ولوى لسانه وصفر صفرة عالية استرعت أسماع الجالسين فى القهوة ، فالتفتوا إلينا وانفجروا بضحكة عالية . وخرج حمادة وهو يضحك قائلا :

— عشت يابو زهير .

فقمت ذاهباً إلى بيتى وكأن فى رأسى رحى تدور ، وكانت أمى وأختى فى انتظارى للغداء ، وكانت صفقة القطن حديث المائدة بما أحاط بها من ربح محقق وربح ضائع ولكن سرور أمى كان عظيما وقالت كعادتها « كفاية وبركة يابنى ! »

٨

لم يقع بصرى بعد ذلك اليوم على حمادة الأصفر كأنه اختفى من المدينة، ولم أعثر عليه مع محاولاتى الكثيرة فى البحث عنه فى القهاوى والأزقة المظلمة . ولم أجرؤ على أن أذهب وحدى إلى الأسواق فإنى كنت أشعر أنى لن أستطيع شيئاً إلا إذا كان حمادة معى، فهو الذى يختار المكان الذى نذهب إليه، وهو الذى يفرز الأقطان ويقدر أثمانها فى خبرة ومهارة لم تخطئ فى مرة من المرات . ولكنى مع هذا لم أكن قلقاً لأن صفقة الشرنوبى كانت تعادل عشر صفقات متفرقة مما اعتدت أن أعقدها فى أسواق القرى .

وكانت القراءة تشغل جانباً كبيراً من أوقاتى، وكتبت بضع مقالات لجريدة النبراس، لأن صاحبها زارنى مراراً وطلب منى المساعدة على خدمة المدينة فى أيام الانتخابات . ولكنى مع هذا كنت أحياناً أحس ضيقاً يقرب بى من الثورة على نفسى وعلى القيود الكثيرة التى تقيدنى، والسدود المنيعة التى تعترض سبيلى . فماذا صنعت بهذه الشهادة التى أشقيت نفسى بالتفكير فيها ؟ وماذا أستطيع أن أفعل فى مساعدة أختى بعد أن نجحت فى الدور الثانى ؟ لا أستطيع أن أساعدها على الاستمرار فى الدراسة ولا تلوح لى بارقة أمل فى أن أخرج من الدائرة المقدورة التى أحاطت بها الأقدار حياتى .

وأما التجارة فهبنى استطعت أن أجمع فى كل موسم بضع مئات من الجنيهات فماذا تجدى على هذه المئات ؟ هل أجرؤ بها أن أذهب إلى السيد أحمد جلال قائلا إنى جئت إليك خاطباً ؟

وجاء إلى حمادة فى منزلى بعد انقطاع شهر كامل وكان وجهه أشد صفرة مما كان وعيناه ذابلتين وصارت الزرقة التى حولهما إلى ما يقرب من السواد . ولم يبتسم عند ما لقينى ولمحت على وجهه ما ينم عن الحزن والحنق .

وقلت له : أين كنت ؟

فأجاب فى صوت خافت : فى داهية !

فقلت فى اهتمام : ما الخبر ؟

فقال حانقاً: الخبر أنى حمار لايساوى ثمن طعامه . الخبر أنى وغد . أتذكر عند ما قلت لى هذه الكلمة ونحن صغار ؟ ما أزال أذكرها إلى اليوم وأعيدها على نفسى كلما تبين لى أننى وغد حقاً . اصفعنى إذا شئت أو ابصق فى وجهى أو اطردنى من هنا فإنى أستحق كل هذا . أطردنى يا أخى !

فضحكت قائلا : نؤجل هذا .

فقال حزيناً : لست أمزح ولا أتفكه بل إن قلبى يدمى ونفسى تتحرق . أنا حمار حقاً لأنى ظننت أنها إمرأة ، وظننت أنى إنسان يمكن أن تحبه امرأة .

وكانت هذه أول مرة أسمعه يتحدث عن النساء

وقلت له : ما كنت أعرف أن للمرأة شأناً معك .

فقال متحسراً : بلوى ! أعترف لك بأنى أغبى الخلق لأنى أعرف صورة وجهى وشكل جسمى ومع ذلك أكاوح . كل امرأة رأيتها كانت تسخر منى ومع هذا أعود إلى غيرها . ولكن هذه اللعينة التى رأيتها فى السوق كانت شيطانة . جعلتنى أنسى كل شىء وأعتقد أنها تحبنى . أتتصور هذا ؟ النهاية . لم أكن فى هذه المرة إلا كما كنت دائماً قليل العقل قليل النظر أو بالاختصار كنت حماراً .

فقلت فى ضجر : ليس هذا جديداً عندى . مالى وكل هذا ؟

فقال : النهاية ؛ ذهبت إلى (أبو المطامير) لأشترى صفقة قطن بالنقود التى أخذتها منك . أردت أن أقالدك وأجرب حظى ولم أعلم أنى مشئوم مؤبد . ألم أقل لك لا تحاول إغرائى . النهاية ؛ ساقنى حظى الأسود إلى إعرابية تبيع عشرة أرطال من القطن . فقلت استفتح بها . يا للداهية السوداء ياسيد أفندى ؛ كان وجهها مثل القمر وعيناها مثل عينى الغزال وضحكتها تطير العقل . أتعرف ماذا حدث ؟ قل لى رأيك بالصراحة ولا تخجل من أن تقول لى يا حمار ! أكبر حمار خلقه الله .

فضحكت برغمى وقلت له : لست الوحيد .

فصاح قائلا : أبداً . لا يمكن . أتصدق أن أذهب لأشترى القطن فتجعلنى الشيطانة أغير فكرى وأشاركها فى تجارة الدجاج ؟ وذهبت معها إلى القرية لنشترى الدجاج معاً ورضيت أن أقيم فى عشة حقيرة وأنام على الأرض لأكون قريباً من شريكتى . وعادت إلى فى اليوم التالى تلبس شالا من الحرير وقالت إن النقود ضاعت منها ، وأخذت تبكى ، والمصيبة أنى صدقتها وأخذت أسرى عنها . وأستمرت بعد ذلك

تعود إلى كل يوم بقصة جديدة وبغير دجاج حتى فرغ ما فى جيبى .
ولما عرفت أنى أفلست انقطعت عنى فذهبت أبحث عنها . أتعرف أين وجدتها ؟ كانت اللعينة واقفة عند دكان بقال القرية تضاحكه بغير خجل. ولما سألتها ماذا تفعل هناك قالت فى وقاحة . « وأنت مالك » وجعلت تسخر منى . قل إنى مجنون ، قل إنى وغد . قل إنى أى شىء واجعلنى أستريح .

ثم حرك أصبعيه يطلب النقود .

ولا أستطيع أن أصف الاشمئزاز الذى غمرنى عند ذلك، فلو رأيت أمامى حشرة قذرة لكان أهون على من رؤية هذا الإنسان المحطم .

وأسرعت بإعطائه جنيها لأصرفه عنى ووقفت أنظر فى أعقابه بشعور من يرى خنزيراً يخرج من بركة طين .

وداخلنى سخط شديد لا عليه وحده بل على نفسى أيضاً ، فكيف عميت عن هذا الرجل ورضيت بأن أتخذه رفيقاً فى سبيل الربح من التجارة ؟ وكيف سمحت لنفسى أن أقرن نفسى به وأنا كبير عاقل، وهو الذى نفرت من صحبته وأنا صبى جاهل .

ونزلت إلى المدينة سالكاً طريقى المعتاد حتى بلغت جانب الترعة وكان الجو دافئاً يتنفس بروائح الخريف .

وكانت الساعة عند ذلك الثالثة بعد الظهر فعزمت على أن أجول بين الحقول بقية النهار وكان معى كتاب جديد من الكتب التى ظهرت بعد الحرب وعنوانه بالإنجليزية معناه « المدينة الفاضلة » وهو يتحدث عن المآسى التى أصابت المدنية الأوربية من فساد الأحكام واضطراب

النظم ، وفساد القائمين على تلك الأحكام والنظم . الحال واحدة فى كل مكان مع فارق واحد وهو أن الناس هناك يكتبون عن عيوبهم ليلتمسوا الدواء لها .

وكانت أشعة الشمس الخافتة ترنو كالمريضة إلى العالم الذى تتمسك بالبقاء فيه ،وأوراق الشجر تلمع من أثر قطرات خفيفة تتساقط من غمامة عابرة .

وبقيت هناك إلى ساعة الغروب ثم عدت إلى المدينة وكانت رائحة الهواء رطبة تفوح بعبق عطن لا أستطيع وصفه ولكنه يثقل على الصدر . ولما وصلت إلى شارع المديرية سمعت ضجة بعيدة فى ميدان المحطة ، فاتجهت إلى هناك مسرعاً وكان الميدان يموج بجموع كبيرة من شبان وأطفال يلوحون بأيديهم ويتواثبون فى اضطراب . وعلا صوت هتاف من وسط الميدان فذهبت إلى قريب من سور المحطة لأعرف ما هناك وضحكت ضحكة مرة عند ما تبينت أنها مظاهرة سياسية . وكان الهتاف يتعاقب بين حياة السيد أحمد جلال وبين سقوط محمد باشا خلف .

ورأيت عن بعد شاباً محمولا على الأكتاف يهز يديه فى عنف ويصيح بأعلى صوته متأنقاً فى ندائه يوقعه توقيعاً منظماً كأنه منشد محترف :
— يحيى السيد أحمد جلال ؛ يحيى حاتم دمنهور ! يحيى المخلص الأمين ؛—
وكان يفصل بين كل حياة وأخرى بهتاف آخر من السقوط للمنافس البائس . وكدت أنصرف من الملال لولا أن سمعت صفيراً عالياً يشبه صفير حمادة الأصفر . أيكون هو ذلك الشاب المحمول على الأعناق ؟ ولم يخب ظنى عند ما شققت الصفوف واقتربت منه فإنه كان عند ذلك

ملتفتاً فى اتجاهى ، وأخذ يلقى على الجمع المحتشد حوله حداء والجمع يردد وراءه اسم السيد أحمد جلال — المحسن الكريم — السيد جلال — الوطنى الكبير — السيد أحمد جلال وهكذا حتى أتم نحو عشرين حداء والجموع تردد اسم السيد من ورائه .

وضحكت برغمى مع شدة حنقى فإن حمادة كان حقاً بارعاً فى تمثيل دوره . ولما فرغ من حدائه رفع يده إلى فمه فصفر صفيراً عالياً انطلقت بعده ضحكة من الجمع الكبير ، ولم أستطع أن أمنع نفسى من المشاركة فيها . ثم نزل من فوق الأكتاف وأخذ المتظاهرون ينصرفون فى اتجاهات شتى وبقيت أنا فى مكانى مستغرقاً فى دهشتى . وأقترب منى حمادة بعد أن هدأ الزحام ونادانى قائلا : ماذا تصنع هنا يا سيد أفندى ؟

فقلت ضاحكاً : أتفرج عليك .

فمد يده نحوى مسلماً وقال :

— وماذا تظن يا عم . أنموت من الجوع أم ننتحر ؟ هات نقوداً أصفر لك وأصفق وأهتف . أتظن أنى أبله ؟ خمسة جنيهات كاملة من أجل شغلة ساعة .

فقلت : فقط ؟

فقال : تجربة أولى . ولا شك أن التجربة الثانية أغلى . هل سررت من طريقتى ؟

فقلت ضاحكاً : جداً . مهرج من الطبقة الأولى دائماً .

فضحك حتى بدت أسنانه الصفراء وقال :

— أنا والله معجب بك يا سيد أفندى . أتعرف ماذا يعجبنى فيك ؟

أعرفك من الصغر وكنت دائماً هكذا ، لا يعجبك أحد ولا يهمك أحد . أفلاطون !

واقترب منى يريد أن يضع ذراعه حول عنقى للدلالة على إعجابه فشممت رائحة الخمر تفوح منه — رائحة خمر رخيصة جعلتنى أبعده عنى كارهاً .

فقال : ألم أقل لك ؟ النهاية يا عم . لماذا لم تذهب إلى السيد أحمد جلال ؟

فقلت : وماذا أصنع عنده ؟

فقال : أتنكر منى ؟ ألم يبعث إليك مصطفى عجوة ؟ والمائة جنيه يا عم سيد ؟

فقلت فى حنق : أى مائة ؟

فقال : هل تظن أنى طامع فيك وأريد مقاسمتك ؟

فقلت غاضباً : هذا كذب . أتقول إن السيد أحمد أرسل إلى مائة جنيه ؟ ولماذا ؟

فقال : ولماذا تغضب يا أخى . كل منا له أجرته . أنا خمسة وأنت مائة . هذا أقل ما يلزم . النهاية يا عم أنا تحت الأمر وإذا احتجت إلى شىء فأنا فى خدمتك ، سكرتير ، محصل ، وكيل ، كما تشاء . أى خدمة .

فقلت فى دفعة : ما هذه الألغاز يا حمادة ؟

فقال : إسمع يا عم : جيبى عامر وريتى ناشف وجوفى خال . ها . ها . ها .

وانصرف عنى فجأة بغير أن أعرف معنى أقواله ، ولكنى لم أقف طويلا عند هرائه المخمور .

وكنت لم أطعم شيئاً منذ الصباح فعرجت على مطعم يبيع الفول المدمس وأكلت بشاهية عظيمة ، ثم شربت فنجاناً من الشاى فى قهوة مجاورة له ، وجلست أستعرض مناظر يومى منذ جاءنى حمادة الأصفر فى منزلى وعاد إلى شعور الضيق الذى كان يملأ صدرى . وعاودنى سؤالى القديم بتردد فى إلحاح : ماذا أقصد فى هذه الحياة ؟ وبدت لى حياة فارغة لا يملؤها شىء ، بل تطفو وهى جوفاء مع دفعات التيار الذى يتقاذف بها . لم أفلح عاملا ولا تاجراً كما لم أفلح طالباً ، واتجهت كالحائر قبل المشرق والمغرب واصطدمت فى كل مرة فى آخر سيرى بنهاية الطريق فعرفت أنى أسير فى عطفة مسدودة .

وقمت من القهوة أسير فى الطريق لا أقصد إلى وجهة ، فدخلت شارع المديرية ثم شارع السوق ووصلت آخر الأمر إلى شارع (أبو الريش) وكانت الطريق المؤدية إلى محلج السيد أحمد جلال تتلألأ بأنوار المصابيح القوية وباب المحلج يبدو من بعيد مثل قصر مزخرف بباقات من الأضواء الملونة . فعرجت إلى يسارى ودخلت إلى السرادق الكبير الذى كان فى رحبة المحلج ، وكان السيد أحمد جلال جالساً فى الصدر فلما وقع بصره على نادانى فى مودة :

— تفضل يا سيد أفندى !

وقام لاستقبالى ، فاتجهت الأنظار نحوى وقام من هناك وقوفاً مع السيد أحمد . فسلمت بتحية عامة بعد أن صافحت السيد ، واستأنف

الجالسون الحديث فقال السيد أحمد :

— نحن نتحدث عن هؤلاء الذين يستعينون بالحكومة علينا يا سيد أفندى ، مع أنهم يقولون إن الانتخابات حرة .

فصاح مصطفى عجوة : دعهم يفعلون ما يشاءون فنحن الأقوياء . الشعب يغرق أصواتهم .

ونظر إلى وكان وجهه أزرق محتقناً من التحمس . فوضعت يدى على وجهى لأدارى ابتسامتى . والتفت السيد نحوى قائلا :

— وما رأيك يا سيد أفندى ؟

فقلت : فى أى شىء ؟

فقال : كنا نتكلم فى إنشاء جريدة .

فبادر مصطفى قائلا : فكرة عظيمة .

ولم يكن فى الفكرة ما يمنعنى من أن أقول إنها عظيمة ، ولكنى عند ما سمعت صوت مصطفى عجوة شعرت برغبة شديدة فى المخالفة ولم أجب عن السؤال لأن أصواتاً أخرى تسابقت إلى الإجابة .

فقال الشيخ القرش : فكرة مدهشة بغير شك .

وقال الوزان الذى حل محلى واسمه الشيخ مسلم : مشروع وطنى

وقام مصطفى عجوة صائحاً : يحيا السيد أحمد جلال .

فصفق الحاضرون وصاحوا يرددون الهتاف والتفت السيد أحمد نحوى قائلا :

— هل توافق على الفكرة ؟

فقلت فى هدوء : المهم هو تحديد الغرض منها .

فقال مظهراً الارتياح : عظيم .

والتفت إلى من حوله قائلا : حسن جداً . الآن اتفقنا . أتوافقون على اقتراح الشيخ القرش ؟

ونظر إلىّ قائلا : ما رأيك فى أن يكون اسم الجريدة « الواعظ » ؟

فقلت : يمكننا أن نجد الاسم المناسب فى كل وقت .

فصاح الشيخ القرش : الاسم أولا . الاسم هو نعم العنوان .

وصاح مصطفى عجوة معززاً : نعم العنوان .

فقال أحد الجلوس : الواعظ يا مولانا يصلح لجريدة دينية . المنار أحسن .

فقام الشيخ القرش واقفاً وقال فى غضب : الواعظ يدل على المعنى واضحاً ، فيه كل المعانى .

فصاح شيخ آخر : نسميها المشكاة .

وضحك الحاضرون عند ما قال السيد أحمد فى سخرية :

— المشكاة ؟

وقال الشيخ : قال الله تعالى مثل نوره كمشكاة فيها مصباح .

وتعالى صوت قائلا : لماذا لا نقول المصباح . هذا أسهل .

وقالت أصوات أخرى : نعم المصباح المصباح .

فصاح الشيخ القرش فى غضب : أى مصباح ؟ هذه كلمة مبتذلة . إذا كان ولا بد فليكن « النبراس » .

وصاح مصطفى عجوة : النبراس اسم جريدة هنا ولا يجوز أن نأخذ نحن هذا الاسم .

فقال القرش : نسميها النبراس الجديد يا أخى .

فانفجرت ضحكة عالية من الجميع كان لها أثر فى تخفيف حرارة المعركة وقلت للسيد أحمد جلال :

ـ أظن أنه من الحكمة تأجيل اختيار الاسم الآن :

فقال السيد : هذا رأى حسن .

ثم قام قائلا : تعال معى يا سيد أفندى . عن أذنكم ، اسمحوا لى أن أذهب مع سيد أفندى لنعد المشروع ، وخرج من السرادق ، وسرت وراءه شاعراً بأهميتى ، ولما دخلنا إلى المكتب أشار السيد إلى مقعد قريب منه فجلست وجلس هو على المكتب وبدأ قائلا :

ـ أنا ممنون جداً يا سيد أفندى من هذه الزيارة واشكرك بنوع خاص على إجابة دعوتى .

فقلت فى دهشة : لم تصلنى منك دعوة .

فرفع حاجبيه قائلا : ألم يذهب مصطفى إليك ؟

فقلت : لا .

فقال مستمراً : على كل حال هذا أملى فيك يا سيد أفندى . أنت مثل ولدى والظروف هى التى تجعلنا نعرف الصديق . لا شك أنك تعرف أن هذه الأوقات عصيبة وخصوصاً لأن منافسى محمد باشا قريب رئيس الوزارة .

ومع أنهم يقولون إن الانتخابات حرة فإن المصلحة الوطنية تجعلنا نجاهد فى سبيل تحقيق رغبة الشعب . وأنت تعرف يا سيد أفندى أنى دائماً أحب لك الخير .

فشكرته على قوله وانتظرت حتى يقول ما يريد . فاستمر قائلا :

ــ نريد أن ننشىء جريدة وطنية كما سمعتنا نتحدث ، لتنطق بصوت الشعب . الجريدة مجهزة بكل ما يلزم . المطبعة تحت يدى وهى مطبعة العجمى رئيس شباب دمنهور ، والورق موجود .

فهززت رأسى منتظراً .

واستمر السيد يقول : وستكون كمية الورق كبيرة وبالتسعيرة ،وأما الأجر الشهرى فلن يكون محل خلاف . وعلى فكرة يمكنك أن تأخذ الورق الباقى من المقرر لتتصرف فيه . هذه فرصة عظيمة يا سيد أفندى . وطن الورق فى السوق يساوى أربعمائة جنيه كما تعرف .

وكنت أنصت إليه وأسأل نفسى « ماذا يقصد ؟ »

وختم السيد حديثه قائلا :

ــ هذه فرصة عظيمة يا سيد أفندى والقطار السريع لا ينتظر إلا قليلا ثم لا يقف لأحد بعد ذلك .

وقلت فى نفسى : القطار السريع مرة أخرى ؟

ولمحت السيد يخرج من جيبه ظرفاً سميناً وبضعة أمامى قائلا :

ــ هذا مبلغ صغير يا سيد أفندى ، مقدمه ليس إلا .

ولست أدرى ماذا حدث لى عند ما سمعت قوله ، فإنى رفعت رأسى قائلا وقلبى يتحفز :

ــ ألا نضع برنامج الجريدة أولا ؟

فأجاب مسرعاً : هذا شىء واضح لا يحتاج إلى إضاعة وقت . أليس كذلك ؟ ونحن فى حاجة إلى كل وقتنا . المهم أن نكسب المعركة .

فقلت متمالكاً شعورى : فى سبيل أى شىء ؟ ماذا تقصد من وراء المعركة ؟ هذا ما أسأل عنه .

فقال فى دهشة : هى المعركة الانتخابية .

فقلت : ولكنى أسأل عن الجريدة . أليست للنطق بلسان الشعب ؟

فقال بسرعة : طبعاً .

فقلت فى عناد : إذن فماذا نقول على لسان الشعب . إننا نريد أن يلتف الناس حولك عن إخلاص ويشعروا بأنك تنطق بلسانهم حقاً . ومن المصلحة أن نرسم ما تقوله للشعب حتى يعرف المبادئ التى ينتخبك من أجلها ؟

فقال فى فتور : مثل ماذا ؟

فقلت : الشعب طبعاً يريد أن يعيش ويشبع ويلبس ويسكن . ويريد أن يتعلم ويتداوى ويحس أن الحكومة تخدمه ولا تسلبه . يريد من البرلمان أن يجتمع للنظر فى مصلحته لا فى مصلحة أعضائه . ويريد أن يكون أعضاء البرلمان خداماً له لا سادة يستغلون ثقته . هذا ما أظن أنه صوت الشعب وهذا ما يصح أن تبايع عليه الشعب .

وكان السيد ينظر إلى بوجه ينطق بالضجر ولأول مرة لاحظت عليه أنه ينظر إلى وجهى نظرة ثابتة غاضبة .

ثم قال فى استياء : قل لى يا سيد أفندى بالصراحة . هل صحيح أنك تريد الانضمام إلى محمد باشا خلف ؟ هذا ما قيل لى ولكنى أستبعده .

وبدأت أفهم الموقف على حقيقته . فقد سمع أنى سأعمل داعية لمحمد باشا منافسه فأراد أن يشترينى أولا . وضحكت من الفكرة لأنها

كانت مفاجأة .

فقال غاضباً : ماذا يضحكك يا سيد أفندى .

فقلت له : أنا آسف . لم أقصد شيئاً سوى أنه لم يخطر ببالى أن أقوم بالدعاية لأحد ، ولست ممن يصلحون لمثل هذه الخدمة .

فقال فى شيء من الحدة : قل لى رأيك بالصراحة ، وأنت حر طبعاً .

فقلت : ليس قولى غامضاً يا سيدى ، لست أصلح للدعاية إلا للمبدأ الذى أومن به .

فقال فى فتور : أتتهم مبدئى ؟

فقلت ثابتاً : لم أعرفه بعد يا سيدى .

فقال فى أنفة : هذه مناقشة لا فائدة منها ، والوقت ضيق لا يحتمل مثل هذا . قل لى فى بساطة أنك تقبل أو ترفض .

فصعد الدم إلى رأسى وقلت :

— ماذا أقبل وماذا أرفض يا سيدى ؟ إنك لم تعرض على فكرة . كل ما عرضته هو هذا الظرف الذى أمامى والورق الذى يمكن أن أبيعه فى السوق السوداء .

فقام قائلا : أنت تتعدى طورك يا سيد أفندى . أنت تكلم السيد أحمد جلال .

فقمت كذلك قائلا :

— وأنت أيضاً تكلم سيد زهير .

فصاح منفلتاً من زمامه : هذه وقاحة !

وفى لحظة انفلت الزمام من يدى أيضاً وقلت :

ـــ بل الوقاحة أن تشتمنى .

فاستشاط غضباً وقال : اخرس . أنت محتاج إلى أن أؤدبك حتى تعرف كيف تكلمنى .

وتنبهت عند ذلك إلى أى حد انفلت الزمام منا جميعاً ، وإلى العاصفة التى هبت على غير انتظار .

أهكذا يصل الأمر بينى وبين السيد أحمد جلال ؟ هذا الرجل الذى لم أره مرة فى حياتى يغضب ؟ أهى حمى الانتخاب أم هناك سبب آخر جعله يظهر فى هذه الصورة التى لم أعرفها فيه طوال هذه السنوات ؟

وأردت أن أتدارك الأمر فسكت مطرقاً ولم أجب على كلمته الأخيرة ولكنه تمادى قائلا :

ـــ سأعرف كيف أسحق غرورك هذا . سأحطمك .

فوجدت نفسى أضحك ضحكة عالية .

وزاد غضبه فقال ـــ سأعرف كيف أحطمك وستندم قريباً .

فقلت فى سخرية : وكيف تحطمنى ؟ هل أنت إله أيها السيد ؟ ثم لماذا تريد أن تحطمنى ؟ ألأنى لا أسخر نفسى لك ؟ ألأنى أرفض أن تشترى ضميرى ؟ إذن فاسمع أيها السيد . افعل ما تقدر عليه فلست أعبأ بتهديدك . افعل ما تقدر عليه فلست أرهب سطوتك . أنت لا تملك من أمرى شيئاً لأنى غير محتاج إليك فى شىء . أنت لا تزيد فى نظرى على صندوق مملوء بالذهب فى قاع المحيط .

وتركته مبادراً قبل أن يجيبنى ، وكان ينظر نحوى هائجاً ينتفض من الغيظ .

ولما صرت فى فناء المحلج واستلقيت الهواء البارد أحسست أن جسمى كله يشتعل حرارة . وخرجت متباعداً عن المكان الذى فيه السرادق حتى لا يرانى أحد . وكان قلبي يغلى غيظاً ولكنه كان فى الوقت عينه حزيناً آسفاً على هذه العاصفة التى ثارت فجأة .

كانت الساعة العاشرة من المساء عند ما خرجت من محلج السيد أحمد جلال وسرت فى الطريق المؤدية إلى جسر الترعة وأنا موزع بين الرضا والأسف والقلق . أما الرضا فلأنى كنت أحس وجودى منذ وقفت أمام السيد الكبير وجبهته برأيي ورددت عليه إهانته وتحديت سلطانه عند ما هددنى بأن يسحقنى ويحطمنى . وأما الأسف والقلق فلأنى كنت أفضل لو لم أصطدم بالسيد أحمد مثل هذا الاصطدام الذى لم يدع سبيلا بيننا إلى الأمل فى حفظ مظاهر المودة والمسالمة . فإنى عند ما خرجت من خدمته من قبل لم أقطع ما بينى وبينه قطعاً يحول دون الرجوع إلى مصافاته ، ولهذا لم أتردد فى أن أذهب إليه لأبيع له قطن الشرنوبى ، ولم يتردد هو فى أن يبعث إلى لأكون معه فى أيام الانتخابات . ولكن تلك المصادمة الأخيرة جعلت موقف كل منا نحو الآخر لا يقل عن موقف العداوة الصريحة . وما كنت أحرص على شىء مثل حرصى على حفظ مظاهر المودة بينه وبينى على الأقل . وقد تحرج الموقف بيننا فجأة ولم يكن ليخطر ببالى أن ذهابى إليه فى تلك الليلة يؤدى إلى مثل تلك المغاضبة .

سرت فى الظلام أراجع نفسى وأجادلها ، والدوافع المتعارضة تتقاذف بى حتى اقتربت من عطفة من العطفات الصغيرة التى تنتهى إلى الجسر ، فلمحت عندها جمعاً كبيراً من رجال ونساء وأطفال تعلوا أصواتهم فى سكون

الليل ، ولا يظهر منهم فى الظلام إلا أشباح تتحرك فى الأشعة الخافتة من مصباح ضئيل عند رأس العطفة . ولم أجد بقربى عطفة أخرى أستطيع أن أنفذ منها إلى المدينة حتى أتفادى المسير بين ذلك الجمع . فلم أجد حيلة سوى أن أتقدم وأشق طريقى . وكان الناس يتزاحمون ويتواثبون ويصفقون فى زياط ويثيرون الغبار القذر بأقدامهم حتى ضاقت أنفاسى من روائحه ، فأسرعت فى السير كاتماً نفسى حتى اجتزت بهم وبدأت أملأ صدرى من الهواء الخالص عند ما بعدت عنهم . ولكنى سمعت من خلفى صيحات مذعورة تنادى « الإسعاف » : وأصوات أخرى تصيح « لقد مات ! » فتوقفت عن سيرى ثم اندفعت بغير تفكير عائداً إلى موضع الزحام لأسأل من هناك عما حدث ، وكان أول ما خطر لى أن هناك غريقاً يحتاج إلى إسعاف . وتدسست بين الجمع حتى وصلت إلى قلب الحلقة فإذا أنا أمام شخص حمادة الأصفر ملقى فوق كومة من التراب لا يعى شيئاً ، ومن حوله بركة قذرة من المواد العفنة التى طردها من جوفه . وشعرت بوخزة مؤلمة فى رأسى كأن مسماراً دق فى أعلى صدغى . وملت عليه فى قلق لاستمع إلى دقات قلبه ، وأنا متقزز من الرائحة الكريهة المنبعثة منه ومن الكومة التى حوله . وكان جسمه رخواً تغطيه رطوبة لزجة وقلبه يدق ضعيفاً ، فلم أدر ماذا أفعل . فما كنت أقدر على أن أتركه هناك وأمضى فى سبيلى ، وما كنت كذلك أقدر على البقاء فى ذلك المكان القذر لأشارك المتزاحمين حوله فى الصياح عبثاً أين الإسعاف . فأخرجت منديلين من جيوبى وأخذت أمسح وجهه ورقبته ويديه مما علق بهما من القذر وألقيت بهما إلى جانب وصحت فى الجمع قائلا :

— هيا بنا أيها الرفاق نحمله إلى جهة نجد فيها الإسعاف .

ولكن الواقفين نظروا نحوى فى تردد ونظر بعضهم إلى بعض فقلت لهم :

— أليس هنا صيدلية قريبة ؟

فقال أحدهم : فى السوق .

فقلت متوسلا : أرجو أن تساعدونى على نقله إلى مكان قريب نطلب منه الإسعاف .

فاستجاب ثلاثة من الشبان إلى ندائى ومالوا فى صمت إلى الجثة الهامدة ورفعوها معى . واتجهنا إلى ناحية (أبو الريش) وهى الأقرب إلى العمران . ولما سرنا نحو مائتى متر بلغنا الباب الخلفى لمحلج السيد أحمد جلال فصاح الشبان فى نفس واحد : هنا !

وعرجوا إلى الباب ليلقوا فيه حملهم قبل أن أجد وقتاً لمناقشتهم . وهناك ظهر وجه حمادة فى ضوء المصابيح الكهربائية القوية أبيض مثل وجه الموتى . وهب البواب ومعه ثلاثة من العمال يمنعوننا من الدخول ، ولم يجدنى نفعاً أن قلت لهم إنه « حمادة الأصفر » . وتلفت حولى لأرى موضعاً نضع عليه الجسد الذى نحمله فوجدت دكة البواب فطرحناه عليها . وصاح البواب بنا غاضباً ولكنى لم التفت إلى أقواله وأخذت أمسح العرق الذى كان يتصبب منى ، وأخذ الشبان الثلاثة يتشاورون بالنظرات فيما يفعلون وصاح أحد العمال بنا « امشوا من هنا » .

فصحت به : « أما تراه يا رجل ؟ نريد أن نطلب الإسعاف ،

فقال مهدداً : خذه من هنا وانصرف .

فصحت به فى غيظ : لقد كان فى المغرب يهتف للسيد أحمد .

فصاح مرة أخرى فى لهجة أعنف : قلت لكم امشوا من هنا . واقترب البواب والعاملان الآخران ليجعلاها معركة . ولكن حمادة تقلب فى تلك اللحظة واختلج جسمه خلجات شديدة وأخذ يطرد بعض ما تبقى فى جوفه من الفضلات العفنة ، فبعد البواب والعمال صائحين شاتمين ولم نجد بداً من حمله والذهاب به عند ما جاء البواب وأصحابه يعيدان الكرة علينا فصحت بهم :

— قولوا للسيد أن هذه البركة العفنة هى بضاعته ردت إليه . هى الجنيهات الخمسة التى أخذها حمادة ثمناً للهتاف فى المظاهرة .

وحملنا حمادة وسرنا به فى الظلام على الشاطىء الموحش ، وأخذ الشبان يبرطمون غضباً . واقتربنا من مخزن قطع سيارات قديمة فأسرع الشبان إليه وألقوا بالجثة عند بابه وعادوا أدراجهم مسرعين .

وجاء صاحب المخزن ينظر إلى فى استنكار فقلت له مستعطفاً :

— بعض الماء من فضلك .

وملت على حمادة أدلك يديه واستمعت إلى دقات قلبه مرة أخرى وسمعت صاحب المخزن يدمدم قائلا :

— ما هذه الداهية ؟

فقلت له : هذا بائس مسكين وجدته مغمى عليه فى الطريق .

ويظهر أن الرجل أحس شيئاً من الرحمة ، فأتى بكوز من الماء فرششت منه على وجه الصريع وكانت دهشتى عظيمة عند ما رأيته يتحرك. فناديته مسروراً ولكنه أخذ يطرد من جوفه فضلات أخرى ، فبعدت عنه كما بعد عنه صاحب المخزن مشمئزاً وهو يلعن قائلا :

— من يمسح هذا ؟

فأخرجت له ورقة من ذوات نصف الريال وقلت له

— أنا آسف لإزعاجك وأرجو أن تدعو من يساعدك على تنظيفه .

فأخذ الرجل النقود صامتاً ونظرت إلى وجهه فوجدته ينطق غضباً وغيظاً .

فناديت فى حنق : حمادة !

فتحرك وأراد القيام ولكنه لم يقدر . فأسرعت إليه لأساعده ، وكان جسمه لا يكاد يتماسك ، ثم استطاع آخر الأمر أن يقوم مستنداً على كتفى وقال بصوت ضعيف :

— سيد أفندى ؟

فقلت : أتقوى على السير ؟

فهز رأسه ولم يجب وسار يجر رجليه وأنا أكاد أحمله . ووجدت صعوبة كبرى فى أخذ أنفاسى لأن رائحته الكريهة كانت تنفذ إلى خياشيمى .

وكان من حسن الحظ أن مرت بى عربة نقل مما يحمل القطن ، فصحت أنادى السائق أن يقف ليساعدنا ، ولم يخيب الرجل رجائى فوقف وجاء يساعدنى وسألت حمادة أين يقيم فأجاب فى صوت ضعيف ساخر : لا أعرف

فقلت لصاحب العربة : على طول .

وعزمت على أن أذهب بذلك العبء المخزى إلى أقرب قهوة وأتركه بها ما دام قد أفاق . ووصلنا بعد قليل إلى قهوة صغيرة فأجلسته بها وبعدت

عنه قليلا لأملأ صدرى من الهواء : وفى نفسى مشاعر شتى من الرثاء والاشمئزاز والعطف والنفور . وجاء خادم القهوة فطلبت له فنجاناً من الشاى وقطعة من الليمون ووقفت حتى رأيته يشرب . وكان وجهه ما يزال مثل وجه الميت وعيناه غائرتين وشدقاه منطبقين وجلد وجهه مكرشاً وعليه خطوط زرقاء عميقة . وتبسم لى شاكراً فبرزت أسنانه كأنها فى جمجمة رمة بالية .

وقال بصوته الحاد :

ـ لا شك أنى سببت لك تعباً شديداً . أنا منحوس كما قلت لك يا سيد أفندى ، ولكنى لم أقل لك اتعب نفسك . ما كان يضرنى شيء لو بقيت فى الطريق حتى أفيق . هكذا أفعل كلما سقطت ، وهذا ما أستحق . لا تؤاخذنى فإنى لا أحب أن يرحمنى أحد . أكنت تسألنى أين أسكن ؟

ثم ضحك ضحكة عصبية واستمر يقول :

ـ أين تقيم الكلاب الضالة ؟ أين تقيم الحشرات ؟ أقيم مثلها حيث أجد جحراً يظلنى . فى هذه المواخير التى أجد فيها مأوى . أراك تدير وجهك عنى . لست أخشى أن تحتقرنى ولا أطلب منك ألا تحتقرنى . افعل ما شئت فلست أقدر أن أحتقرك أنا الآخر . تفضل أنت يا سيد أفندى . هل دفعت ثمن الشاى ؟ هات لى قرشين أولا .

وفرك أصبعيه كالعادة .

فقلت متعجباً : كان معك خمسة جنيهات غير الجنيه الذى أخذته منى .

فضحك مرة أخرى قائلا :

— كانت فى جيبى . . . وأخذتها المرأة طبعاً . هى حقيرة مثلى . ونحن نتعامل فى صراحة — هى تسرقنى وأنا أسرقها . هى تقول لى يا وغد وأنا أقول لها يا ساقطة . ولكنها مع هذا تؤوينى ولا يجرؤ أحد آخر على إيوائى . كانت المرأة الأخرى حقيرة مثلها ولكنها وجدت من يخطفها منى فأقفلت بابها فى وجهى . ها ها ها ها .

أتعرف من هى ؟ زينب التركية زينب الشقراء . أتعرف من هو . . . صاحبها . الرجل العظيم الذى كنت أصفق له وأصفر وأهتف . كان ذلك منذ سنوات طويلة . رآها مرة عند ما بعثتها إليه تطلب بعض النقود لأنى كنت مريضاً . وهى بغير شك جميلة يا سيد أفندى . فأسعفنى ببعض النقود ولكنه خطفها منى . أتفهم ؟ وبعد أسبوع واحد طردتنى من بيتها ها ها ها . النهاية يا عم سيد . عمر الشقى بقى . لم أمت عند عند ذلك وقلت لها فى داهية ، وذهبت إلى زينب الأخرى — زينب الفلاحة التى أعيش عندها . وهى تعاملنى وأعاملها كما يعامل الكلاب بعضها بعضاً . أليس معك نقود يا بو زهير ؟

فأخرجت من جيبى ورقة بخمسين قرشاً وقذفتها أمامه ودفعت إلى خادم القهوة ثمن الشاى وكانت الساعة قد بلغت منتصف الليل

فقلت لحمادة : أظنك تقدر على السير وحدك . ألا تحاول أن تكون رجلا ؟ .

فضحك قائلا : ومن قال لك إنى أريد أن أكون رجلا ؟ اذهب إذا شئت ودعنى . أنا حشرة . أنا كلب ضال . دعنى أسرع . دعنى أجرى . طريق عفنة مظلمة كلها خوف وقذارة . خوف بالليل والنهار

وخوف من أمامى ومن خلفى ، قلبى وعينى وسمعى كلها مخاوف . الأمس مخيف والغد مخيف والحاضر فزع ، وأنا أجرى وأجرى أطلب النجاة ولكنى أتعثر وأقع وأتخبط والطريق مظلم والأوحال تجعلنى أنزلق ، ومن ورائى أشباح كثيرة تطاردنى ، فأسرع لكى أتخلص — أتخلص من هذه الحياة ومن الأشباح التى تطاردنى فيها . ولكنى لا أرى أمامى طريقاً للهرب . أتعرف الخوف يا سيد أفندى؟ هو الذى يجعلنى أهرب ولكنى عند ما أحاول الهرب لا أجد مكاناً أهرب إليه ، فأهرب من نفسى . أريد النسيان لأهرب ، أريد المرأة لأهرب . أريد الخمر لأهرب . اذهب عنى أنت ودعنى .

وامتلأ قلبى غماً مما سمعت وكان منظره وهو يتكلم يشبه منظر المجنون الثائر . فانصرفت من أمامه حزيناً أسائل نفسى هل يستطيع أحد أن ينقذ ذلك المسكين ؟ وعدت إلى المدينة وأقوال حمادة البائس اليائس تتردد فى ذهنى . وكانت الطرق خالية موحشة والدكاكين مغلقة ولكن الجو كان رطباً لطيفاً . ولما وصلت إلى كوبرى السكة الحديدية اتجهت فى الطريق المؤدى إلى شبرا وهو طريق مظلم زاده السكون رهبة لولا رجل مخمور آخر يسير متطوحاً ويغنى «الفجر أهو لاح قوموا يا تجار النوم» ! هو الآخر يحاول الهرب والنسيان ولكنه يغنى ؛ وتركته ورائى لأنه كان يتقدم خطوة ويتأخر خطوة . كم بين الناس من هؤلاء المساكين الذين يحطمهم الخوف ! أيستطيع أحد أن يمد إليهم يد المساعدة ؟

وبلغت منزلى وكانت أمى وأختى تنتظران فى قلق من غيابى ، وحاولت أن أظهر لهما هادئاً ، بل حاولت أن أكون مرحاً . ولكنى استأذنت

لأذهب إلى غرفتى ؛ وما كدت أدخلها حتى وجدت نفسى أبكى بكاء مراً .

وكان ذهنى يضطرم بشعور مختلط من الحزن والغم والرثاء والعجز والضآلة . كانت صورة حمادة تمر فى خيالى فى أوضاع شتى بين تاجر الأسواق المرح وبين قائد المظاهرة المهرج وبين السكير البائس المحطم .

وأخذت قلمى وجعلت أكتب ولا أدرى ماذا أريد أن أكتب ، ولكن الأشباح التى كان حمادة يتحدث عنها صارت تطاردنى وأنا أكتب ، وكان قلمى يسرع كأنه يريد أن يجد هو الآخر سبيلا إلى الهروب .

ولما تعبت من الكتابة وضعت يدى على رأسى فوجدته يتقد حرارة ، ولكنى لم أتوقف عن الكتابة ، وكلما فرغت من ورقة ألقيت بها على الأرض فتطير وتقع حيث تشاء . ولم أشعر بمضى الوقت وكنت لا أكاد أعى ما أكتب . وكلت يدى من الكتابة ولكنى لم أتوقف حتى فرغت من القصة . ولست أدرى أكان فراغى منها هو الذى جعلنى أحسن الإعياء أم أن الإعياء هو الذى جعلنى أفرغ منها . وقمت أترنح حتى استلقيت على سريرى بملابسى ، وكان رأسى يدور ويهتز كأن فى داخله عاصفة ، وكانت عضلات جسمى تنبض كما ترف العين . وأحسست فى ظهر وعيى طرقاً على الباب ولم أعرف من الطارق ، وكان آخر ما أذكر أنى رأيت وأنا مغمض عينى كأن شريطاً أغبر اللون يمر أمام بصرى فى سرعة .

١٠

فتحت عينى على أثر لمسة فوق جبينى ورأيت أمى جالسة إلى جانبى وهى تضع منديلا مبللا على رأسى ، وشممت رائحة (كولونيا) . وكانت أختى منيرة واقفة على بعد خطوة منها جاعلة ذراعيها على صدرها وتنظر نحوى فى لهفة وعلى وجهها ابتسامة حزينة . ولمحت شخصاً آخر يقف فى الناحية الأخرى من المنضدة التى فى وسط الغرفة وسمعته يقول « صباح الخير يا سيد » . وكان صوت عبد الحميد عباد . فهمست بصوت خافت « ماذا جرى ؟ » .

وقالت أمى فى ابتسامة ضئيلة : كيف أنت يا سيد ؟ وكانت الدموع تملأ عينيها .

وأردت أن أتحرك لأجلس ولكن وسطى ومفاصلى وعيناى آلمتنى فعدلت عن الحركة وبدأت أسعل سعالا شديداً . فذهبت منيرة إلى المنضدة وملأت ملعقة من زجاجة هناك وجاءت إلى لأشربها ، وقالت وهى تتظاهر بالمرح : أخرج هذا البرد الذى ملأ جسمك » .

فاستسلمت لها وشربت الدواء ، فمدت منيرة يدها إلى بمقياس الحرارة ففتحت فمى هادئاً كأنى طفل مطيع . وعدت أسأل سؤالى عند ما أخرجت منيرة مقياس الحرارة من فمى فقلت : ماذا جرى ؟

فقال عبد الحميد : المسألة بسيطة . كنت غائباً عن الوعى منذ

يومين ، ثم بدأت تفيق الآن . وكانت حرارتك أربعين درجة فصارت الآن سبعة وثلاثين » .

ولم يدهشني هذا الخبر كأني كنت أعرفه من قبل ، وبدأت أتذكر أني كنت أكتب قصة . فحركت رأسي لأنظر إلى أرض الغرفة قائلا : ألم تكن هنا أوراق ؟

فقال عبدالحميد في مرح : عظيمة يا أستاذ سيد . ولماذا لا تكتب على كل ورقة رقمها؟ وجدت صعوبة كبيرة في ترتيب الأوراق قبل أن أقرأها .

فقلت في اهتمام : وأين هي ؟

فقالت أمي : لا تجهد نفسك يا ابني .

وقالت منيرة : سأحضرها لك إذا شربت المرقة التي أعددتها لك .

وخرجت مسرعة فلم تسمع جوابي عند ما قلت :

— لا أريد شيئاً .

وقال عبد الحميد : لم أعرف أنك أستاذ في القصة .

فقلت في سرور : هل قرأتها ؟

فقال : رائعة .

فأردت أن أتكلم ولكن السعال منعني وكان شديداً يكاد يمزق صدري.

ودخلت منيرة تحمل صينية صغيرة وضعتها على المنضدة وقربتها من السرير قائلة : كن ولداً طيباً .

وجلست جنبي على السرير أخذت رأسي فوق ذراعها وجعلت تسقيني ملعقة بعد أخرى وكان عبد الحميد يتحدث عن القصة في حماسة . ثم قال :

ــ إنها تفيض حياة يا أستاذ سيد وأشخاصها يشعون حرارة . أهنئك. أهنئك بكل قلبي ولو جمعت ما كتبت من هذا النوع لكان كتاباً بديعاً .

فأزحت الملعقة التي كانت في يد منيرة وقلت : إنها أول قصة .

فصاح : مستحيل ؛ أهذه أول قصة ؟

وأخرج الأوراق من جيبه وجعل ينظر فيها .

ولم أرض أن أشرب شيئاً بعد ذلك من المرقة فحملت منيرة الصينية وخرجت بها فقلت لعبد الحميد :

ــ أظنك تجاملني .

فقال في هدوء : لو أردت المجاملة لما أرسلتها إلى بريد الأحرار .

فصحت : بريد الأحرار ؟

وعاودني السعال الشديد فصاحت أمي : يا ابني لا تجهد نفسك !

ومع كل ألمي من السعال كان قلبي يهتز فرحاً وزهوا .

وقلت في صوت خافت : أتظن الجريدة تنشرها ؟

فقال عبد الحميد مبتسما : أظنه ينشرها من أجل عنوانها على الأقل .

وأخذت أتذكر العنوان فلم أذكره وقلت :

ــ لست أذكر عنوانها .

فتبسم عبد الحميد قائلا : وضعته أنا « الفيلسوف المحطم » أليس هذا عنواناً يستحق النشر ؟

وعلى فكرة ــ كان الأستاذ على مختار صاحب بريد الأحرار من أقرب أصدقائي في الدراسة .

لا مؤاخذة إذا تركتك الآن يا أستاذ سيد ؟ وسأحضر في المساء

بعد إلقاء دروسى .

واستأذن منصرفاً فضغطت على يده شاكراً ولكن يدى كانت ضعيفة. فقلت له :

— أشكرك بكل قلبى .

ولم أحسب أن ذلك المرض يطول بى خمسة عشر يوماً كاملة ، ثم لا يفارقنى إلا هزيلا ضعيفاً ، فوق ذلك السعال الشديد الذى استمر يضايقنى مدة شهرين . ولكن الضعف والهزال والسعال لم تعكر على السعادة التى غمرتنى عند ما عرفت من عبد الحميد أن بريد الأحرار ستنشر قصتى . وبدأت أخرج إلى المدينة بعد شهر من بدء مرضى وكانت حركة الانتخابات تجتاحها وتلهبها ، كانت جموع المظاهرات تتدفق وتتصادم كل يوم ، وكانت اللافتات معلقة فى كل مكان — فوق الأعمدة وعلى جدران المنازل وعلى أبواب الدكاكين ، وكانت الأبواق المكبرة للصوت تصيح فى كل ركن . وذهبت عند أول خروجى إلى مطبعة العجمى لأعرف ماذا تم فى جريدة السيد أحمد جلال ، وكان العجمى زميلا قديماً فى المدرسة ، فوجدت عنده جمعاً كبيراً من الموظفين والتلاميذ ووكلاء المحامين ووزانى المحالج يستمعون إلى خطبة يلقيها (مهنى أفندى) وكيل الأستاذ زكريا إبراهيم المحامى . وسمعته يتكلم عن ثورة الشباب على « عملاء الإنجليز »

ولما رآنى العجمى رحب بى وقدمنى إلى الحاضرين على أنى كاتب دمنهور العبقرى ، وأخذ يتحدث عن قصتى « الفيلسوف المحطم » التى نشرتها « بريد الأحرار » فى ذلك الصباح بالذات . فاستقبلنى الجمع بالتصفيق وطلبوا أن يستمعوا إلى كلمة منى ، فاضطررت أن أقف خطيباً

لأول مرة فى حياتى بعد أن فرغ الأستاذ مهنى من خطابته . وكانت خطبتى تدور حول الشعب المحطم الذى ينتظر من يأخذ بيده ولا يجد من القائمين على حكمه إلا الطغيان والأنانية والمبالغة فى تحطيمه . وأحسست وأنا أخطب أن المعانى تتدفق على لسانى وكنت أجد صدى حماستى فى السامعين الذين قاطعوا كلمتى بالتصفيق العالى .

ولما سألت العجمى عن الجريدة بعد انصراف الجمع قال لى :

— لن نعمل لحساب أحد من هؤلاء يا أستاذ سيد . وقد عزمت على ترشيح نفسى .

فكان ذلك نبأ سعيداً عندى ووعدته بأن أجاهد معه بكل ما أستطيع ، حتى تضرب دمنهور مثلا فى انتخاب المخلصين وإن كانوا من صفوف الشعب .

ومنذ ذلك اليوم أقبلت على معركة الانتخاب فجعلتها معركتى ، وبدأت من ذلك اليوم بوضع خطة مع « أنصار الشباب » لنكتسح المرشحين من « المنافقين »

وأخذنا نعد اللافتات وكتبنا عليها بخط أيدينا عبارات تسترعى الأنظار مثل « الأعيان أعوان الطغيان » و « متى يسقط البرلمان حكومة ؟ » و « برلمان الأعيان بناء من القش » وأمثال هذه من عبارات الدعاية الشديدة.

وكتبت بيدى لافتة وضعتها فى وسط الطريق أمام مطبعة العجمى وعليها عبارة « أيها الشعب — أنا الشعب » ، ونسيت فى وسط هذه الحماسة ذكر قصتى وما كنت أعلقه على نشرها من الاهتمام وكنت أقضى يومى كله وجزءاً كبيراً من الليل فى اجتماعات وخطابة وتدبير الخطط واجتذاب

الأنصار . واجتمع لنا عدد كبير من شبان المدينة ولكن صاحبي عبدالحميد أصر على الابتعاد عن هذه « المهزلة » وقال عند ما فاتحته فى الانضمام إلينا :

ـــ لقد شاهدت هذه الملهاة التافهة مراراً حتى مللتها .

ولكن رفضه الانضمام إلينا لم يزدنى إلا إصراراً على عزيمتى ، وبدأت أحس أن إيماناً جديداً بدأ يقوى ويتجدد فى نفسى . هؤلاء المساكين الذين تطحنهم الحياة لا يجدون لساناً ينطق بآلامهم فعلينا أن ننطق نحن من أجلهم . هذه الألوف المؤلفة من الجياع العراة الجهلة لا يجدون من يعطف عليهم ، وعلينا نحن أن نعمل من أجلهم . وكانت الخطب التى ألقيها تزيد يوماً بعد يوم والأنصار الذين يحيطون بنا يتضاعفون ساعة بعد ساعة ، واعتقدنا جميعاً أن العجمى قد اجتاح منافسيه فى الانتخابات بغير جدال .

وتواعدنا قبل موعد الانتخاب باربعة أيام على عقد اجتماع كبير فى مسجد التوبة بعد العشاء ، لأننا كنا لا نقدر على إقامة سرادق كبير يتسع للجموع التى اعتادت أن تتوافد على محافلنا .

ولما بدأ الاجتماع تعاقب الخطباء واحداً بعد واحد يتحدثون عن الشباب المخلص والأحزاب المزيفة التى ضلت الطريق ، والحرية التى تتطلب الدماء ، والجهاد الوطنى من أجل الجلاء . وجاء دورى فأعلن منظم الحفلة اسمى ووصفنى بالأديب الكبير والخطيب القدير وأضاف إلى ذلك عدداً آخر من الصفات جعلنى أخجل ، وإن كنت فى الوقت عينه امتلأت زهواً وثقة بنفسى .

وقمت لأتكلم فبدأت بطيئاً هادئ الصوت . ورتلت بعض عبارات موزونة كنت نمقتها وحفظتها، وأضفت إليها ألفاظاً رنانة وسجعات مختارة فطرب السامعون لها ، وتعالى تصفيقهم إعجاباً وأطمأنت نفسى إلى ذلك وبدأت أتدفق. فمن شاء أن يكون خطيباً ناجحاً فعليه أن يتحقق أولا من الاستيلاء على عواطف سامعيه فيكون بذلك كأنه يعوم على اتجاه تيار الماء .

وكان لذلك الاجتماع دوى كبير فى المدينة فى اليوم التالى وتحدث به الناس مرددين ما قيل وتجادلوا فيه بمجالسهم ، فمنهم من أنكره ووصفه بالدعوة إلى الثورة ، ومنهم من رضى عنه ووصفه بالإصلاح ، ولكن الجميع آمنوا بأن الأمر قد انتهى إلى فوز مرشح الشباب محمود العجمى .

ولم يبق على يوم الانتخاب إلا يومان فاستقر رأينا على أن نضرب الضربة الأخيرة فى الليلة المقبلة ، وتواعدنا على الذهاب بعد العشاء إلى المسجد وأذعنا فى أنحاء المدينة أنه الاجتماع الأخير ، ولم ندخر وسعاً فى نشر الدعاية بكل ما استطعنا من الوسائل ، حتى لقد استأجرنا ثلاث سيارات تجوب الأحياء وفى كل منها مذياع لإعلان موعد الاجتماع ومكانه .

وبكرت قبل الموعد بنصف ساعة ذاهباً إلى المسجد، وكنت قد أعددت فى نفسى حديثاً نارياً تخيرت له مقدمة مسجوعة تأنقت فى عباراتها ، وكنت وأنا سائر فى الطريق إلى المسجد أرددها واستمع إلى جرس ترتيلها لأقدر موقعها من نفوس السامعين إذا بدأتهم بها . ولما وصلت إلى منعرج الطريق إلى الشارع الضيق الذى فيه المسجد وجدت بعض جنود الشرطة يسدون منفذ الطريق وهم يلبسون الخوذ الحديدية ، ويمسكون

فى أيديهم العصى الغليظة . وهب الضابط رئيسهم عن كرسيه فسألنى عن وجهتى . فلما أجبته قال لى فى جفاء « إن المسجد مغلق » فأدهشتنى المفاجأة وأخذت أجادله فأمسك بكتفى فى غلظة ودفعنى قائلا « تفضل ! »

وهممت أن أدفعه كما دفعنى . ولكنى تذكرت أن ذلك قد يؤدى إلى عقد لا ينبغى أن أتورط فيها فى ذلك الوقت ، وانصرفت عنه فى مظهر التحدى الصامت . ولما بعدت عنه وقفت متردداً أفكر فى ذلك الطارئ الذى لم نتوقعه ، ولم أدر كيف نستطيع أن نتدارك الأمر. وتلفت حولى لعلى أرى أحداً من أصحابى وأنا قلق حانق ، فرأيت بعد بضع دقائق أربعة منهم يجرون أقدامهم فى خذلان ويقبلون من ناحية طريق المسجد، فأسرعت إليهم ليفرغ كل منا حنقه إلى الآخرين وكاد شعورنا بالخيبة يصرفنا إلى أن نيأس وننفض أيدينا من الأمر كله ، ثم اتفقنا على أن نذهب إلى العجمى لنرى رأيه، ولعلنا نجد عنده بعض أصحابنا الآخرين فنتداول الرأى فيما نصنع بعد هذه الصدمة . وكانت أفواه الطرق إلى بيته مغلقة بجماعات من رجال الشرطة فاضطررنا إلى أن نتفرق أفراداً ونتسلل من الحوارى الضيقة إلى البيت . وكان العجمى هناك يغلى حانقاً لأنه سبقنا إلى المسجد وحدث له مثل ما حدث لنا . واجتمع إلينا بعد قليل عدد كبير من أصحابنا وأغلقنا علينا الأبواب وأطفأنا الأنوار إلا شمعة ضئيلة فى الغرفة التى كنا بها فى آخر البيت .

وبعد ساعة من جدال عنيف أجمعنا الرأى على أن نقيم لنا سرادقاً كما يقيم الآخرون سرادقاتهم، فإن الإدارة لن تجد سبيلا علينا ما دامت تبيح ذلك لغيرنا . وتبرعت فى حماستى بخمسة جنيهات واندفع بعض

الأصحاب يتبرعون حتى اجتمع لنا ما يكفى لإقامة السرادق واستئجار الأثاث والمصابيح ، ولم أعد إلى منزلى فى تلك الليلة إلا فى ساعة الفجر بعد أن اتفقنا مع الفراش على إقامة سرادقنا فى فضاء واسع فى جنوب المدينة .

وكان اليوم التالى آخر أيام الدعاية ولابد لنا من أن نضرب فيه ضربتنا الأخيرة ، فتفرقنا فى أنحاء المدينة نعلن على الناس نبأ الاجتماع السرداق الكبير الذى يحمل اسم « شباب دمنهور » .

وقضيت ساعتين بعد الظهر فى إعداد خطبتى ثم ألقيتها مرتين لأسمع صوتى وأقدر ما يكون وقعها فى الأسماع ، فلما حانت الساعة الموعودة كنت مستعداً مطمئناً . وخفق قلبى سروراً عندما ذهبت إلى السرادق فوجدته مزدحماً بألوف من أهل المدينة . واستقبلنى جمعهم بالتصفيق والهتاف كأنى أصبحت زعيماً .

وقدمنى الأصحاب لأتكلم أولا وصعدت متمهلا وأخذت أخطب هادئاً واثقاً من عطف الأسماع ، فما هى إلا دقائق قليلة حتى كنت أشعر بأنى أسبح مع التيار . وعلا صوتى شيئاً فشيئاً واتقدت حماستى حتى لم أجد داعياً إلى قراءة خطبتى ، فوضعت الأوراق وتدفقت فى الحديث ، وتحركت وكانت المعانى والصور تتمثل لى وتستولى على انتباهى حتى كدت لا أبصر شيئاً مما تقع عليه عينى ، فلم أتنبه إلى شىء إلا عندما لمحت فجأة أن هناك حركة فى الصفوف المتزاحمة فى السرادق . وسمعت أصواتاً تتعالى عند المدخل ، فتوقفت قليلا لأرى ما تلك الحركة الطارئة فإذا الصفوف المتراصة تتحرك ثم تسرى الحركة فيما يليها وما هى

إلا دقيقة قصيرة حتى صار السرادق كله إلى فوضى شاملة ، وبدأ البعض يتماسك بالبعض عند المدخل ، وتعالت الكراسى وهبطت واهتزت المصابيح وانطفأ أكثرها ، وتدافع الناس خارجين إلى الطريق من كل جانب ، فلم أفهم من كل ما حدث إلا أن الاجتماع قد فشل وحلت محله معركة .

وأسرعت إلى مدخل السرادق متحفزاً للعراك ، والغضب يكاد ينفجر بصدرى ، فلما بلغت مكان المعركة رأيت بعض أصحابى مشتبكين فى صراع عنيف فاندفعت معهم أضرب بيدى وقدمى ، وأصابتنى لكمات كثيرة لم أعبأ بما نالنى منها ، ولم أقف لأفكر فى جدوى ذلك العراك بعد أن ضاع علينا كل تدبيرنا . وفيما أنا منصرف بكل جوارحى إلى المعركة رأيت جمعاً كبيراً يهبط علينا من أقصى الطريق وفى أيديهم هراوات يلوحون بها فى الهواء ويصيحون « يلا من هنا ؛ » فتركت أنا وأصحابى من كان فى أيدينا من الخصوم ووقفت مبهوتاً لا أكاد أصدق عينى عندما رأيت فى طليعة العصابة شخص حمادة الأصفر يحمل فى يده هراوة أطول من قامته ، ويشير بها نحوى قائلا : « يلا من هنا ! » . فأعمانى الغيظ عن كل حكمة واندفعت نحوه آخذاً بتلابيبه قائلا : « أنت تقول لى هذا ؟ » وأحاط بى أصحابه ووجوههم تنطق بالشر ، فتخلص حمادة من يدى وارتد إلى الوراء . قائلا فى وقاحة :

« لا تمد يدك إلى — يلا من هنا ، قلت لك » فقلت فى حقد : « أيها النذل ؛ أيها العبد ! »

فضحك ضحكة عالية حتى بدت أسنانه ونظر إلى أصحابه الذين اندفعوا نحوى وصاح بهم :

— دعوه يا جماعة . ارفع يدك أنت وهو ! « ثم اتجه إلىّ قائلا : مالك أنت؟ أنا نذل وعبد وكلب ابن كلب. مالك أنت؟ يلا من هنا ! »
ثم وضع أصبعيه فى فمه وصفر صفيراً عالياً وقال : اسمعوا يا جماعة ! يحيا السيد أحمد جلال ! » فصاح الجمع بعده يرددون هتافه وصفر لهم مرة أخرى وصفق وضحك صائحاً « هيسه ! » مع المد الطويل . فضحكوا جميعاً وصاحوا مثله ، ثم صفر مرة ثالثة مثل القطار ورفع هراوته إلى كتفه وجرى أمام أصحابه وهم من ورائه يصيحون وتركونى واقفاً فى مكانى الذى لم يبق به غيرى . وكان حنقى لا يزيد عليه إلا خجلى وشعورى بالخيبة. وتلفت حولى كالمذهول فلمحت حمادة الأصفر يعانق مصطفى عجوة فى آخر الطريق . وا أسفاه ! وطفرت الدموع من عينى وشعرت بقلبى كأن يداً قاسية تعصره . أهذا حماده الأصفر الذى أراه حقاً ؟ وعدت إلى منزلى يائساً أحدث نفسى أنها مأساة مضحكة مبكية ، هكذا يحشد السادة عبيدهم المحطمين دائماً ليضربوا لهم أعداءهم ، حتى يتمكنوا بعد ذلك أن يعودوا إليهم ليجلدوا ظهورهم بالسياط !

١١

تيقظت من نومى فى الصباح على صوت أمى وأنا دهش من أثر السهر والتعب ورأيتها تمد إلى يدها بورقة ، فسألتها ما هى فقالت « جاء بها رجل وقال إنها مستعجلة »

وكانت الورقة بخط ردىء بالقلم الرصاص وفيها :

« سيد زهير شياخة أبو طاقية صناعته وزان ينبه على المذكور بالحضور فى الساعة التاسعة صباحاً لأمر هام إلى مركز البوليس »

فقلت فى نفسى — مركز البوليس ؟ ماذا أفعل هناك ؟ وبدأت أتذكر ما حدث فى الليلة السابقة ، وكانت الساعة عند ذلك الثامنة ، فالوقت متسع لأفطر وأشرب فنجاناً من الشاى وأرتب فى ذهنى الحوادث التى وقعت . وقمت مسرعاً لأستحم وأتوضأ ، وكانت الساعة التاسعة تماماً عندما بلغت مركز البوليس . ولم أكن خبيراً بأسرار مكاتب المركز فعرجت على أول حجرة قابلتنى وسألت الجندى الذى كان فيها فلم يرد على لانشغاله بتلميع حذائه . وذهبت إلى الغرفة التى تليها ، ولكن المكتب كان خالياً ، فما زلت أخرج من غرفة إلى أخرى لسبب أو لآخر حتى بلغت آخر الردهة وكانت طويلة مظلمة فيها حائط على اليمين وأبواب على اليسار . ووجدت فى النهاية غرفة مزدحمة بأخلاط من الناس عليهم مظهر البؤس والشراسة ، فعرجت على اليمين فى ردهة أخرى فوجدت فى صدرها حجرة صغيرة فيها مكتب يجلس عليه جندى ضخم له أربعة أشرطة حمراء على ذراعه ، وشارب مفتول فى وجهه ، وهممت أن أسأله عن سبب دعوتى ولكنى لم أجرؤ ، لأنه بدأ فى تلك اللحظة يصيح بأعلى صوته يخاطب شاباً أمامه قائلا :

— من أنت ؟ من أنت حتى تجيبنى بهذه اللهجة ؟

وكان الشاب الذى أمامه طويل القامة يلبس جلباباً من الصوف على زى أهل دمنهور ، وعلى رأسه طربوش وفى قدميه حذاء ، فاستنتجت

أنه لم يكن من عامة الشعب ، ولكني لم أر وجهه لأنه كان متجهاً إلى المكتب . وسمعته يجيب في شيء من الأنفة :

ــ أنا على الحفار ؟

فصاح به الجندى :

الحفار ؟ تشرفنا يا حضرة ؛ يعنى حضرتك حفار قبور ؟ أو هى صناعة الوالد ؟

فقال الشاب فى حنق :

ــ إذا كنت لا تعرفنى فلا داعى لهذا الكلام . سألتنى عن اسمى وهذا هو اسمى . وأنا تاجر من أهل البلد .

فقال الجندى : تشرفنا يا أفندم . أقوم لك وأضرب السلام ؟ أهكذا تخاطبنى وتصيح فى وجهى يا قليل الأدب ؟ أهكذا تكلم . . ؟

فقاطعه الشاب غاضباً : لا تخرج عن حدودك .

فقام الجندى هائجاً من مقعده وخرج من وراء المكتب صائحاً :

ــ حدودى ؟ ما هى حدودى يا ولد ؟ أنت قليل الأدب . قليل الأدب ألف مرة وتستحق التأديب .

وأقبل هاجماً عليه فضربه على وجهه ضربة شديدة اهتز لها الشاب وثار رافعاً يده للإجابة عليها ، فأسرعت من ورائه بغير تفكير وأمسكت بذراعه . فالتفت إلى غاضباً ونزع يده منى .

فقلت له أهدئه : تمهل يا أخى حتى لا يتعلل هذا الرجل بأنك اعتديت عليه . كنت واقفاً هنا ورأيت كل شىء وسأشهد بما حدث .

واتجهت إلى الجندى قائلا : بأى حق تعتدى على هذا الشاب ؟

وهدأ الشاب نفسه على مضض ووقف ينظر نحو الجندى فى حنق . فضحك الجندى واتجه إلى قائلا :

— وحضرتك محام ؟

ونظر إلى يفحصنى من أعلى طربوشى إلى كعب حذائى فقلت له فى غيظ :

— ليس لك حق فى ضرب أحد . ليس الناس عبيداً لك .

وكان ما يزال واقفاً فوضع يده فى خصره ومد رأسه نحوى مثل ديك محارب وقال :

— ومن أنت أولا ؟ من أنت يا حضرة ؟

فأجبته متحدياً ؛ اسمع أنت ياحضرة . أنا الذى أسألك من أنت حتى تضرب الناس وتشتمهم ؟ القانون لا يسمح بهذا ويجب أن تعرف الطرق القانونية التى تتبعها .

فتقدم نحوى ثائراً وقال : يظهر أنك تريد أن تعرف القانون . القانون هو هذا .

ودفعنى فى صدرى بعنف ليخرجنى قائلا :

— اخرج من هنا . ليس هذا المكتب قهوة لتدخله هكذا .

ولست أدرى ماذا جعلنى أفقد اتزانى عند ذلك وأقدم على العمل الذى منعت منه الشاب ، فإنى اندفعت بغير تفكير ورفعت يدى بقوة ودفعت الجندى بقبضة يدى دفعة شديدة صدره ارتد منها إلى الوراء وهو يتطوح . وبخن رأسى فوقفت مستعداً لأعيد عليه الكرة إذا عاد لمهاجمتى ، ولكنه لم يتقدم نحوى بل ذهب إلى مكتبه وخبط بيده على الجرس صائحاً :

ـ ما هذه المصيبة التى تصبحنا ؟ ما هذا الشيطان الشرس الذى طلع علينا ؟ يا قرنى ! يا على يا مبارك ! يا محمد يا بو زبطة !

ودخل جندى وراء آخر فضربوا السلام ونظروا إلى الجندى ثم التفتوا إلىّ وإلى الشاب الآخر فى دهشة .

فصاح بهم صاحب الأشرطة الحمراء :

ـ خذوا هذا اللعين ؛ خذوا هذا المجرم ابن المجرم .

فصحت : اخرس .

واندفع هائجاً : سأعرف كيف أؤدبك . تضربنى أنا ؟ نهارك اسود . وتقول لى اخرس ؟ إلى السجن حالا ! أما تسمع يا قرنى ؟ إلى السجن حالا ! مالك واقفاً هكذا يا على يا مبارك ؟ يابو زبطه يا حمار !

فأحاط الجنود بى ليقبضوا على فارتددت إلى الوراء صائحاً فى ثورة :

ـ لا تقتربوا منى !

وتحفزت لأدافع عن نفسى . فتقدموا نحوى واحداً وراء الآخر ، ودفعتهم عنى واحداً بعد واحد ، فغضبوا وهجموا على هجمة واحدة يضربوننى ويجروننى وصاحب الأشرطة الحمراء يصيح بهم :

إلى السجن إلى السجن ؛ حالا ! المجرم ! الكلب ! ابن الـ . . .

فما كدت أسمعه يهم بذكر أبى حتى انطلقت من فمى شتائم لا أدرى كيف تدفقت من فمى . وكانت قبضة الجنود على ذراعى الاثنتين وعلى رقبتى مثل كماشات الحديد ، فحملونى غصباً وقذفوا بى فى عنف إلى غرفة وأغلقوا بابها ورائى . وكاد يغمى علىّ من الألم والغيظ ،

فلم أتنبه إلى ما حولى إلا بعد لحظات ، فقمت وأعضائى كلها تنبض ألماً وجعلت أتحسس جوانب الغرفة المظلمة فعلمت أنى فى جحر ضيق لا يزيد على مترين فى مترين ، وأرضه من البلاط وهواؤه عفن الرائحة .

وكادت روحى تزهق من الضيق والحنق والشعور بالإهانة والظلم ، واندفعت مثل المجنون أصيح بأعلى صوتى وأخبط على الباب بجمع يدى غير مبال ما يصيبنى من الألم . وجعلت أنطق بشتائم مقذعة وألفاظ عجيبة لو سمعتها من غيرى لضحكت سخرية منها . كنت أصيح قائلا « افتحوا لى أيها المجرمون — أنا الشعب — افتحوا لى أيها اللصوص وستجدون جزاءكم — أنا الشعب — أنا الشعب » . ولكن صيحاتى وشتائمى كانت ترتد إلى أذنى ساخرة ضاغطة قاسية ، وكلت يداى من الخبط وخارت قواى وبح صوتى ، فتكومت على الأرض مستنداً إلى ظهر الباب وخيل إلى أنى انتقلت إلى عالم فظيع ممقوت ليس من عالم الإنسان . وأخذت أسأل نفسى « أهكذا يعامل اللصوص والمجرمون ؟ » فلو كنت مجرماً بادئاً أو لصاً صغيراً ثم عوملت هذه المعاملة لخرجت من هذه الغرفة وأنا مصمم على أن أكون قاطع طريق وسفاك دماء .

ومرت اللحظات بطيئة وخيل إلىّ أننى سأبقى هناك طول حياتى بغير أن يهتم أحد بأمرى ، أو يقدر أحد على أطلاقى كأننى حشرة أو فأر أو كلب . وعدت أسأل نفسى أأنا الشعب الذى كنت أتحدث عنه فى خطبتى فى المسجد وفى السرادق؟ هل أنا الشعب الذى يخطب السادة وده فى دعاياتهم الانتخابية ، ومن أجله ينشئون مقالات التمجيد فى الجرائد اليومية ؟

وتصاعد برد البلاط إلى عظامى فأحسست قشعريرة فى جوفى وألماً فى رأسى ، وغثياناً فى نفسى ، فقمت منتفضاً . وتضاعف حنقى حتى كدت أخرج عن وعيى . وأخذت أخبط الباب مرة أخرى بيدى الاثنتين وأصيح بأعلى صوتى واشتم وألعن وأهدد . وعزمت على أن أواصل الخبط حتى تتحطم يداى ثم أخبط بعد ذلك بقدمى حتى تتكسرا . وبرأسى حتى يتفتت . ولست أدرى كيف استطعت أن أستمر على الخبط والصياح هذه المدة التى مرت كأنها ساعات طويلة. ثم سمعت بعد حين صوت المفتاح يدور فى القفل وانفرج الباب وتدفق شعاع من النور فى الظلام . وتنفست حانقاً وأنا ألهث من الثورة . ولاشك أن منظرى كان مخيفاً لأن الجندى الذى فتح الباب تنحى عن طريقى فى فزع . وكانت يداى تلتهبان من الألم ولكنى لم أعبأ بهما وخرجت مسرعاً فاتجهت إلى غرفة الجندى ذى الأشرطة الحمراء عازماً على أن أقتص منه غير مبال ما قد يكون بعدها .

وصحت بأعلى صوتى عندما اقتربت من غرفته قائلا « أين أنت أيها النذل الطاغية . أيها العنكبوت الحقير ! » ولكنى لم أجده وراء المكتب ، فقلت مستمراً فى صياحى أين صاحب الشوارب المصبوغة ؟ أين العنكبوت الذى كان هنا ؟ » فضحك الضابط الشاب الذى كان جالساً وراء المكتب وقال « تفضل هنا » وأشـــار إلى كرسى بجانبه . وكان وجهه يتألق بشراً كأنه يرى منظراً مسلياً ، ولكن منظره هدأ كثيراً من فورة نفسى . وكان فتى لايزيد على الخمس والعشرين كأنه تلميذ حسن الهيئة ، وأسنانه بيضاء تلمع من وراء ابتسامته، ووجهه الأسمر الوديع

الذى خلا من الشوارب يخالف فى كل شيء شكل صاحب الأشرطة الحمراء .

وأعاد الضابط قوله: « تفضل هنا » مشيراً إلى الكرسى الذى أمامه، فجلست صامتاً أفرك يدى وأنا أنهج من الجهد ، وكان رأسى ساخناً وحلقى ملتهباً . فقدم الضابط إلى فنجان القهوة الذى كان أمامه فلم أتردد فى أخذه شاكراً ، وكان ألذ شيء عندى فى تلك الساعة . وكان الضابط فى تلك المدة مطرقاً فوق المكتب ينقر عليه بقلم ذهبى فى يده ، وخاتمه الماسى يلمع بأشعة براقة مع حركة يده . ودق جرس التليفون فاستند إلى ظهر كرسيه وابتسم وأخذ فى الحديث متبسطاً مسترسلا كأنه لا يريد شيئاً سوى ذلك الحديث ،فكان يشير بيده إشارات رشيقة معبرة كأنه يريد أن يؤثر فى سامعه على الطرف الآخر من السلك . وكان أسلوبه فى الضحك أنيقاً له نغمة ظريفة سلت من نفسى كثيراً من حنقى ، ولم أستطع أن التفت إلى موضوع حديثه لأنى شغلت عن ذلك بما كان يدور فى رأسى من الأحاديث الحانقة .

ولما فرغ من الحديث اعتدل مجلسه ونظر إلى قائلا :

— هيه ؟

فلم أدر بأى شيء أجيبه ولا كيف أعبر له عن سخطى واحتجاجى . وما ذنبه هو إذا كان صاحب الشوارب الطويلة قد أساء إلى وظلمنى ؟ وقلت له هادئاً :

— لست أدرى يا سيدى ماذا أقول لك ولكنى أهنت هنا وأوذيت واعتدى على حريتى ولن أتنازل عن حقى .

فنقر على المكتب قائلا :

ـ هذا شيء آخر . على كل حال الحاج أمين مخطئ ولكنه رجل طيب . وكان يجب عليه أن يبدأ بكتابة المحضر بغير دخول فى مناقشات لا فائدة منها . ولا ضرورة لها . على كل حال لا حاجة إلى تكبير هذه المسائل الصغيرة .

فصحت : أية مسائل صغيرة ؟

فقال : هذا موضوع آخر نعود إليه فيما بعد . هل أنت سيد أفندى زهير .

فدهشت وكدت أعود إلى غضبي ولكنى قلت فى استنكار :

ـ نعم أنا سيد زهير .

فقال : هناك بعض أسئلة صغيرة وإن كانت خطيرة . نعم هى أسئلة صغيرة يجب أن تستوفى الإجابة عليها أولا . . .

ولكن التليفون قطع حديثه مرة أخرى فاستند على كرسيه وأخذ يتحدث متبسطاً كما فعل فى المرة السابقة وبدأت أحدث نفسى فى أثناء ذلك عما أصابنى من الدفع والجر وعن الجحر الأسود المظلم ، وقلت فى نفسى غاضباً هل يريد هذا الشاب أن يترك كل هذا بمثل هذه السهولة ويسمى كل ما وقع لى « مسائل صغيرة » ؟

ولما فرغ من حديثه قلت له فى غضب مكتوم :

ـ أحب أن أعرف معنى كل هذا . لم دعيت إلى هنا ؟ وماذا تريد أن تفعل لتقتص لى من هذا الجندى الفظ ؟ أنا فرد من الشعب . أنا الشعب إذا شئت . فهل تهدر كرامتى هكذا وألقى فى السجن مثل

كلب عقور ثم يقال لى « هذه مسائل صغيرة ؟ »

فقال الضابط مبتسما : حصل خير يا سيد أفندى . قل لى أولا هل خطبت فى مسجد التوبه .

فقلت فى دهشة : وما علاقة هذا بموضوعنا ؟

فقال فى هدوء : هذا هو موضوعنا . هنا شكوى لا يمكننى أن أسكت عنها ، كنت أتمنى أن تمر هذه الانتخابات بسلام ولكن ماذا أصنع فى هذه الشكوى ؟

فصحت : أية شكوى ؟ كنت أحسب أنى دعيت لكى تسمعوا الشكوى التى عندى . كنا بالأمس ضحايا اعتداء فظيع من أنصار المرشح المنافس لنا — حسبت أن فى هذا البلد حكومة تمنع الاعتداء وتحفظ على الشعب حريته . هذا ما حسبت أنى مدعو من أجله .

فقال الضابط محركاً يده فى رشاقة :

— هذا موضوع آخر يا سيد أفندى .

ومد يده إلى دفتر وجعل يقلب صفحاته .

فقلت محاولا أن أكتم غيظى : وهل يمكن أن ننظر فى هذا الموضوع الآخر ؟

فقال فى هدوء : لابد أن كل الأمور تأخذ مجراها . هذه الشكوى أولا وهى تقول أنك اعتديت على الذات الملكية .

فصحت من المفاجأة : خبر أسود !

واستمر قائلا : وأهنت الحكومة وحرضت على قلب نظام الحكم وفرقت بين الطبقات .

فقلت متكلفاً الهدوء : متى فعلت كل هذا ؟

وأخذ قلبي يدق عنيفاً ، ونسيت الموضوع الآخر .

وقال الضابط : هذه أقوالك مكتوبة ، وإذا شئت فاقرأها .

ومد يده إلى بالورقة وأخذت أقرؤها وأنا لا أصدق عينى . كانت بعض أقوالى هناك حقًّا ، ولكنها كانت مقتطفات مقطوعة من هنا وهناك ووضعت كأنها عبارات متصلة . فهى أشبه شىء بمواد الديناميت المتفجرة إذا أخذ كل منها على حدة كان مأمون الجانب ، وأما إذا ركب بعضها مع بعض كانت مادة مدمرة . وبلعت ريقى مراراً وأنا اقرأ والضابط ينظر إلى صامتاً وهو ينقر على المكتب بقلمه الذهبى . فلما فرغت من القراءة نظرت إليه مبهوتاً فقال باسماً : هيه ؟

فقلت فى ثبات : هذا تشويه مقصود . هذا من نوع قراءة « ويل للمصلين » بغير تكملة الآية .

فضحك مسروراً من التشبيه وقال :

— ولكنها من أقوالك أليس كذلك ؟

فقلت : نعم من ألفاظى ولكنها ليست أقوالى .

فسألنى : أتعرف كاتب هذا البلاغ ؟

فقرأت الاسم وقلت : لا . لم أسمع بهذا الاسم فى حياتى .

فنظر إلى فى دهشة وقال : ألم تكن وزاناً فى محلج السيد أحمد جلال ؟

فقلت فى أنفة : هذا كان من زمن .

فسألنى : وكيف لا تعرف مصطفى البلقينى ؟

فتوقفت حيناً أفكر ثم هززت رأسى بإصرار وقلت : لا أعرفه قطعاً .

فنادى الضابط الجندى الواقف عند بابه قائلا :

— هات مصطفى البلقينى .

وبعد لحظة عاد الجندى ودخل بعده مصطفى ، وصحت فى حنق :

— مصطفى عجوة ؟

فقال الضابط ضاحكاً : أنتما صديقان على ما يظهر .

فقلت مندفعاً : لا يمكن أن أكون صديقاً لهذا . هذا أكذب كاذب وأنذل نذل وأجبن جبان .

فقال مصطفى فى استياء : اسمع يا حضرة الضابط . اكتب هذا فى المحضر .

فصحت ثائراً : أى محضر ؟ أنتم مجموعة من الحشرات القذرة ! من الكلاب الضالة . لا تترددون فى سفالة . من أجل لقمة تافهة يلقى بها سيدكم عند قدمه تبيعون ضمائركم ، ولم تتدارى يا مصطفى يا عجوة فى الذات الملكية والحكومة والطبقات وكل هذه الكلمات التى لا تفهم معناها ؟ أما كفاك أنك جئت بهؤلاء المجرمين بنبابيتهم لتهدموا السرادق علينا ؟ هذه طريقة قطاع الطرق التى تليق بك إذا أردت أن تخدم سيدك وتستحق مكافأته .

ونظر مصطفى عجوة إلى الضابط بابتسامة بلهاء قائلا : أتسمع يا سيدى ؟

فتجاهلت قوله والتفت إلى الضابط قائلا :

— ليس فى الأقوال التى قلتها فى خطبتى سوى الطعن فى الأنانية والفساد والظلم والطغيان . ليس فى أقوالى سوى الاحتجاج على الرشوة

وانحطاط الأخلاق العامة وتعريض سمعة البلاد للسخرية بين أمم العالم . ليس فى أقوالى غير التحريض على مقاطعة اللصوص وأصدقاء الشيطان والقوادين ومصاصى الدماء وأصدقاء الساقطات وسماسرة السوء . ليس فى خطبتى شى عن ذات ملكية ولا غير ملكية ولا حكومة ولا طبقات . لم أقل سوى أوصاف عامة يريد الشعب أن يتخلص من أصحابها ومن عارها ومفاسدها . فإذا كان هذا يؤخذ على أنى أقصد الذات الملكية والحكومة فالذى يقول هذا هو الذى يجب أن يسأل عن تأويله هذه الأقوال العامة وتفسيرها بأن المقصود هو الذات الملكية والحكومة . هذا هو الجدير بأن يؤاخذ ويحاكم إذا كان الأمر يدعو إلى المؤاخذة والمحاكمة لأنه هو الذى يوجه الإهانة . إنها تجارة رخيصة يستغلها مثل هذا النذل كما يستغل كل سلعة رخيصة .

ونسيت نفسى وأنا مندفع فى أقوالى فلم أتنبه إلى أن التليفون دق مرة أخرى وبدأ الضابط يتحدث بطريقته الخاصة . وسكت حتى فرغ من الحديث وخيل إلى أنه يتكلم مع شخص كبير لأنه كان يجيب قائلا حاضر يافندم ! حالا يافندم !

وعجبت عندما وضع السماعة ونظر إلى مصطفى قائلا :

ـــ اذهب أنت الآن وسندعوك إذا احتجنا إليك .

ودهشت لهذا الانقلاب الفجائى وكدت أقول له :

« أريد إذن أن أعرف ماذا تنوى أن تفعل مع صاحب الأشرطة الحمراء ومع الذين أفسدوا علينا حفلتنا الانتخابية ، ولكنى كنت متعباً كارهاً للبقاء فى ذلك المكان الذى تعذبت فيه منذ الصباح وكان أحب

شيء عندى أن أعود إلى بيتى لأستريح من أثر ما عانيت من الآلام والحزات النفسية مع ما كنت فيه من الضعف من آثار المرض .

وقال لى الضابط « تفضل الآن أيضاً إذا شئت ، وسأدعوك إذا قضت الضرورة »

فقمت فاتراً وقام الضابط ليحيينى باسماً وشكرته بكلمتين مبهمتين وسرت خارجاً أسأل نفسى عن معنى كل هذا . الجحر المظلم والذات الملكية والطبقات ومصطفى عجوة ؛ ثم هذا الانقلاب السريع من التحقيق إلى التحية الباسمة . ولكنى كنت فى حالة إعياء وكنت تلوح أمام عينى فى كل خطوة أخطوها مناظر أسرة أريد أن أستلقى عليها .

وفتحت باب البيت ودخلت إلى غرفتى آخر الأمر متسللا حتى لا يرانى أحد واستلقيت على السرير بملابسى .

١٢

كنت أحسب أن النوم يسعفنى لشدة تعبى ، ولكنى أحسست بأن كل عصب فى جسمى مشدود إلى مداه ، وأن كل عرق فى بدنى يرف ، وأن هموم الحياة كلها تتجمع فى أعماق صدرى . فوضعت يدى تحت رأسى ونظرت إلى سقف الغرفة ، وأخذت أعد عروق الخشب مرة بعد مرة لعلى أغفل وأغمض عينى ، وهى حيلة كنت ألجأ إليها لأصطاد النوم إذا شرد عنى ، ولكنى أعدت العد حتى مللت ، ورأسى ما يزال

مشدوداً كأنه يريد أن ينفجر . وجعلت أدقق فى العروق القديمة السمراء وكانت كثيرة العقد ، وجلت بنظرى فى الألواح الغبراء اللون التى تحتها وقد زالت عنها قطع واسعة من دهانها الجيرى القديم . وكانت بعض أنسجة العنكبوت تلتصق فى حناياها وزواياها ، والعناكب السوداء فى داخلها تتربص بفرائسها وتداعب خيوطها بأرجلها الطويلة راضية عن نفسها . ورأيت منها عنكبوتاً ضخمة تتحفز لذبابة حمقاء تقترب من بيتها ، فقلت فى نفسى « هذا هو ! » ولو كانت فى تلك العنكبوت شارة حمراء لما شككت فى أن الله قد مسخ إليها الجندى الفظ صاحب الأشرطة الحمراء . ورأيت برصاً كبيراً له لون أحمر قاتم ، وكان واقفاً فى ركن السقف فتعجبت كيف لا يهوى إلى الأرض وهو يمشى مقلوباً برجليه إلى أعلى . وكان غليظ الجسم كبير الرأس وكان وجهه منقطاً بآثار تشبه آثار الجدرى كأنه وجه مصطفى عجوة . هذه الحشرات القذرة التى تتربص بفرائسها وتلتصق بأقدامها إلى السقف وتدلى رؤوسها إلى أسفل !

وكان هناك ثقب فى جانب اللوح يصلح أن يختفى فيه البرص ويتدارى عن عينى ، ولكنه لم يفعل . حتى الأبراص لا تحب الجحور المظلمة وأما أنا فإنى أسجن فى تلك الغرفة الخانقة ويغلق على الباب ، وما تزال قبضة يدى تؤلمنى من أثر الخبط وما تزال أنفاسى تضطرب من أثر الغيظ .

ونظرت إلى الساعة التى فى يدى فوجدتها الثانية بعد الظهر وأرهفت سمعى إلى حركة البيت فلم أسمع حسا . وكان عجيباً أن يكون الهدوء عميقاً فى يوم الجمعة وأمى وأختى بالمنزل ، وشعرت بشىء من الخيبة لأنى

بقيت فى الغرفة وحدى ولم يسأل أحد عنى .

وعدت أنظر إلى السقف وغاظنى منظر البرص والعنكبوت فأغلقت عينى حتى أتجنب النظر إليهما .

ولم أدر كم كانت الساعة عندما بدأت أغنى لأنى لم أتنبه من نومى إلا بعد المساء وكانت أمى جالسة فى سكون إلى جانب سريرى تنظر نحوى والدموع تسيل من عينيها الحمراوين . فلما فتحت عينى قامت إلى وأهوت على جبينى تقبلنى وهى تبكى بكاء مرًّا .

وقالت فى بكائها :

— لم تعرض نفسك للأذى يا ولدى ؟

وجلست على الكرسى تمسح عينيها وقالت :

— لم نعرف ما حدث إلا من هذه الورقة التى تركتها على المنضدة ، لم تقل لى كلمة وأنت خارج وتركتنا هكذا لا نعرف أين أنت . . . ولما قرأت منيرة الورقة اصفر وجهها كأنه ليمونه ، فعرفت أن فى الورقة شيئاً مزعجاً . . . إنها داهية كبيرة يا ابنى ، وحماك الله من مركز البوليس ومن كل ما يؤذيك . وأما عبد الحميد فالله يبارك فيه . . . هذه دعوة خالصة من قلبى . . . الله يحميه لأمه المسكينة . . . لم أر أمه منذ سنين ولما رأيتها وجدت كأنى لم أنظر إليها منذ مائة سنة ... وطلبت منها أن ترجو عبد الحميد أفندى ليذهب معى إلى أحد المحامين وإلى مركز البوليس لنعرف السبب فى دعوتك إلى هناك . . . وفى دقيقة واحدة كان عبد الحميد أمامى وأراد أن يخرج وحده ليعمل كل شىء وهو لا يعلم أن قلبى يشتعل . . . هكذا الشباب دائماً لا يعرفون قلوب

الأمهات . ولكنى قمت معه لأراك ولو من بعيد . . . مركز البوليس ؟ إنها داهية كبيرة . وركبنا عربة ولم أعرف ماذا قال عبد الحميد أفندى للسائق ، حتى نزلنا أمام بيت السيد أحمد جلال . . .

فوثبت من سريرى وقلت فى صيحة مبحوحة :

ــ السيد أحمد جلال ؟

فقالت أمى : الله يستره السيد أحمد ويحميه يا ابنى . والله لولا هو لما أمكننا أن نعمل شيئاً . . . ومن كان يقدر أن يكلم الحكام كما كلمهم ؟ . . ومن كان يقدر أن يجعل المدير يأمر الضابط . . . .

فقاطعتها فى ضيق : كانت الحجرة المظلمة أهون على من هذا .

فصاحت وهى تخبط صدرها : الحجرة المظلمة ؟ يا للمصيبة ! . . قلبى أحس بهذا عندما عرفت أنك فى مركز البوليس ، حيث يذهب اللصوص وقطاع الطريق والفلاحون المجرمون . . . الله يبارك فيك يا سيد أحمد يا جلال .

فعدت مستلقياً على ظهرى ، ووضعت يدى تحت رأسى ، وعزمت على أن أستغرق فى التفكير فى العنكبوت لأصرف نفسى عن سماع أقوال أمى . ووضعت أمى يدها على رأسى وأخذت ترقينى ، ودخلت منيرة عند ذلك فقالت فى مرح :

ــ الحمد لله على السلامة ؛ كفارة يا سيد بك !

فلم أرد عليها . وفرغت أمى من القراءة فالتفتت إلى منيرة قائلة :

ــ لا تنسى أن تزورى منى ياحبيبتى ، حماها الله وحمى الشباب جميعاً . كانت تحي أختك كأنها أختها وجلست طول الوقت جنبى

ومالت على يدى وهى تسلم على عند انصرافى .

يا رب يا ابنى أعيش حتى أرى لك عروسا مثلها ؛ كانت أمها من الفرحة مثل شابة بنت عشرين سنة ، العقبى لك يا ابنى . كان الباشا هناك ليقدم الشبكة .

وأحسست برأسي يدور لانتقال أمى فى حديثها من موضوع إلى آخر ولكنى ما كدت أسمع ذكرها لمنى حتى تحولت كل أعصابى المشدودة إلى آذان . عروس مثلها ؟ والعقبى لك يا ابنى ؟ والباشا يقدم الشبكة ؟ فهل كان مصطفى عجوة صادقاً ؟

وقلت فى صوت خافت :

ـ شبكة من ؟

فقالت أمى : شبكة منى . وعريسها محمود خلف الله يحمى الشباب يا ابنى .

فطنت أذناى وحاولت أن أصرف النظر إلى السقف ولكنى لم أر أمامى شيئاً ، ودوت فى رأسى رحى تقول كلمة واحدة « شبكة منى » !

ولولا وجود أمى وأختى إلى جانبي لأدرت وجهي إلى المخدة وبكيت حتى أخفف الضغط الذى ملأ قلبي .

وقلت لأمى متكلفاً الهدوء :

ـ أحب أن أستريح قليلا .

ووليتها ظهرى كأنى أريد أن أنام .

ولما أغلق الباب من وراء أمى وأختى وجدت نفسى أنفجر باكياً كأنى طفل بائس ، ومرت على ساعة مظلمة قبل أن أسمع صوت أمى

من خارج الباب تناديني :

— أنت صاح يا سيد ؟

فقلت فى فتور :

— من ؟

فقالت : عبد الحميد أفندى هنا .

فقلت : سأحضر حالا .

وقمت مسرعاً لأغسل وجهى أولا ، وتعمدت أن أبدل قميصى ، وأمشط شعرى حتى أبدو نشيطاً وذهبت إلى غرفة الجلوس . فأخذنى عبد الحميد بين ذراعيه وكان قلبى يفيض بشكره ولكنى لم أقل له سوى كلمة عتاب :

— أهكذا تحملنى جميل السيد أحمد جلال ؟

فقال فى جد :

— لم يكن أمامى إلا أن ألجأ إليه هو . أدركت من أول الأمر أنه هو الذى حرك عليك البوليس وأنه هو الذى يقدر على صرف البوليس عنك .

وشعرت بكلمته تلذعنى ولكنى لم أجب بل أخذت أقول فى نفسى ساخراً « أنا الشعب ! »

وأخرج عبد الحميد من جيبه بعض أوراق ثم مد إلى يده بظرف أنيق قرأت عليه اسم « بريد الأحرار »، فأخذته منه فى فتور قائلا :

— ما هذا ؟

فقال : هذا خطاب جاء إلى الآن من صديقى على مختار ، فاقرأه

وقل لى رأيك .

وأخذت أقرأ الخطاب وعيناى تقفزان فوق الأسطر حتى بلغت آخره ووجدته يستحق أن يقرأ فى عناية . فأعدت قراءته مرة أخرى ولاشك أن وجهى كان ينطق بما فى نفسى من الاهتمام . محرر فى بريد الأحرار ؟ وعشرون جنيهاً فى الشهر دفعة واحدة سوى أجر القصص التى أكتبها ؟

ـ خمسة جنيهات للقصة الواحدة ؟

وأعدت الخطاب إلى صاحبى وأنا صامت وذهنى مشتعل . وماذا بقى لى فى دمنهور ؟ أأبقى هناك لأحضر حفلة خطبة منى ؟ يا للسخرية ! ولكنى تذكرت المعركة التى دخلت من أجلها الحجرة السوداء وقلت لصاحبى فى دفعه :

ـ لن أستسلم هكذا .

فقال : لست أفهم .

فقلت : سأبقى هنا حتى تنتهى المعركة .

فقال : حتى بعد هذا الجميل الذى قدمه السيد أحمد جلال ؟

فقلت فى عناد : بل من أجل هذا الجميل .

فقال فى تهكم : ولكن المعركة كادت تنتهى أو قد انتهت .

فقلت متحدياً : إنها لم تبدأ بعد . سيعرف السيد أحمد جلال أنى لا أرهبه . سيعرف أنه لا يقدر على تحطيمى . لقد قال لى مرة إنه يستطيع أن يسحقنى وأن يحطمنى . وأظنه يحسب الآن أنه جعلنى أعرف مقدرته على ذلك . لن أترك دمنهور حتى يعرف أنه لا يستطيع أن يحطمنى .

فقال عبد الحميد فى هدوء : إذا شئت أن تحارب وحدك فافعل . اجعلها معركة من جانب واحد مثل دون كيشوت إذا شئت .

فقلت فى غيظ : لن أترك المعركة .

فقال : حتى بعد أن تنازل العجمى ؟

فصحت : مستحيل !

فقال : هذه هى الحقيقة . لقد تنازل العجمى عن ترشيحه .

فقلت فى مرارة : نذل آخر ، لاشك أنه لم يكن فى تمام عقله .

فقال ضاحكاً : بل كان فى تمام عقله لأنه عرف مصلحته .

فقلت: إنها سخرية . عبث دنىء وإهانة للشعب الذى كنا نتحمس له . هل كنا نخدع الناس ونهزأ بهم عندما كنا نتحدث إليهم . لست أدرى ماذا حمل ذلك الأحمق على هذا التنازل .

فقال فى سخرية : كان تعويضه عظيماً .

وامتلأت غيظاً لقول صاحبي كأنه هو الذى تنازل عن الترشيح وصحت به : أى تعويض ؟

فأجاب باسماً : التعويض عن رسوم الانتخاب وعن الأضرار التى أصابته فى هدم السرادق وعن أتعاب أنصاره الذين كانوا يقومون بالدعاية لترشيحه .

فقلت حانقاً : النذل ! أتعاب أنصاره ؟ هل نحن هؤلاء الأنصار ؟ أكان العجمى يستأجرنا للدعاية ؟ ألم يدفع له أهل المدينة تأمين الانتخاب؟ ألم نجمع نحن فيما بيننا أجرة السرادق ؟ هل قال حقاً إنه كان يدفع أجراً للأنصار الذين كانوا يساعدونه بالدعاية ؟

فقال كأنه يريد غيظى : طبعاً ؛ وهذا ما يقوله الناس جميعاً . هل يظن أحد أن هناك حمقى يساعدون مرشحاً لوجه الله تعالى ؟

وكنت أزيد غلياناً كلما رأيته يضحك ساخراً ، ولكنى كدت أنفجر غيظاً عندما استمر قائلا :

ــ واعلم أيضاً يا سيد ى العزيز أن محمد باشا خلف تنازل هو الآخر للسيد أحمد جلال . أما تزال تريد أن تخوض المعركة ؟

فوثبت على قدمى كأنى أتحفز لمصارعة ، وتمنيت لو كانت الحجرة واسعة فانطلق فيها صارخاً كالمجنون ألعن وأشتم وأهتف بسقوط الأنذال جميعاً . أهكذا تجرى الأمور ؟ ولم تنازل محمد باشا خلف ؟ أكانت منى ثمناً لتنازل الباشا الأجوف ؟

وقلت لصاحبى فى حقد وحنق : سأسافر غداً إلى القاهرة فى أول قطار .

ثم عدت إلى مقعدى خائراً كأن هذه الوقفة القصيرة كانت مجهوداً شاقًّا ، وأخذت أحدث نفسى بصوت عال : إنها مخزاة أن نعيش فى مجتمع كهذا . الرجال عبيد يساقون بالسياط أو يشترون بالمال ، والنساء أيضاً يعرضون فى أسواق الرقيق كما كانت الجوارى تشترى . الذهب هو المعبود . ومن أجل الذهب يبيع الجميع كل ما عندهم حتى الحرية والكرامة ، وحتى الحب . هى معركة أكبر خطراً لا تتسع لها دمنهور .

وكان عبد الحميد ينصت إلى وهو مطرق مستند إلى ذراعيه فوق المنضدة . وقال ولم يرفع رأسه :

ــ هذا صحيح يا صديقى . اذهب أنت وجاهد بقلمك وأعاهدك

على أن أذهب أنا كذلك واستمر على جهادى فى مدرستى . لا أمل لنا فى شىء إلا أن نعلم ونعلم ونعلم حتى تذهب هذه الأجيال الملوثة ، ثم يخرج جيل جديد . أنا أعلم فى المدرسة وأنت تعلم بقلمك فى الصحافة حتى ينشأ جيل جديد يستطيع أن يفهم الحرية والأمانة والصدق .

فصحت مندفعاً : هذا عين الخطأ يا سيدى ، لست أقصد شيئاً مما تقول يا سيدى . هذا خطأ يقع فيه كل الذين يفكرون بعقولهم وحدها . ماذا يعنينى من قلمى ومن مدرستك ؟ إذا كان لا بدلنا أن ننتظر حتى ينشأ جيل يستطيع فهم الحرية والأمانة والصدق فلننتظر طويلا . لا أفهم هذا أبداً .

فقال : وماذا تفهم إذن ؟

فقلت فى غل : لا أفهم سوى ما يفهمه كل حى . أفهم أن أذهب لأجاهد ، وأجمع الناس من أهل هذا الجيل نفسه ليجاهدوا . هؤلاء الذين أعيش بينهم وأراهم وأعاملهم هم الذين يقع عليهم واجب الجهاد من أجل حريتهم وكرامتهم وحقوقهم المسلوبة ، لا شىء غير أن يقوم العبيد بالثورة من أجل حريتهم .

فقال فى ثبات : هذا تكليف الطبيعة فوق طاقتها . العبيد لا يعرفون الحرية ولا يتحمسون لها ولا يجاهدون من أجلها . الأدب والعلم مثل قطرات الماء تنزل على الصخور قطرة قطرة فتذيبها وتحللها .

هذا محقق وإن كان يحتاج إلى زمن .

فصحت ساخراً : الزمن ! الخرافة ! ألست أنت الذى قلت إن الزمن لا معنى له إلا فى عقولنا ؟ ما هذه التشبيهات المضللة : الماء

والصخرة والقطرات التى تنزل نقطة نقطة ؟ هذه كلها مغالطات نلجأ إليها عندما لا نريد أن نعرض أنفسنا للمجهودات الشاقة أو الأخطار الشديدة .

فقال فى تحد : كأنك تريد الثورة .

فقلت فى غيظ : أتريد أن ترهبنى بهذا السؤال ؟ نعم أريد الثورة ولا شىء غير الثورة .

فهز رأسه قائلا : أنا أخالفك هنا . الثورة الشعبية تدمر ولا تفكر . ولو فرضنا أن الثورة نجحت فإنها لن تجد الشعب الذى يحسن الاستفادة منها . قد نرضى عن الثورة التى تدمر إذا جنينا من ورائها خيراً ولكن الثورة التى لا يستفاد منها لا تكون إلا شراً محضاً .

فقلت فى عناد : وماذا يمنع من أن نستفيد من الثورة ؟ لقد قرأت كثيراً عن ثورات التاريخ وتعلمت من ذلك حقيقة واحدة خالدة ، نحن جميعاً من البشر وفينا جميعاً عناصر الخير والشر وفينا عناصر القوة والضعف ، فى نفوسنا الأنانية والتضحية ، وفينا الشجاعة والجبن وفينا العدل والطغيان . نحن ننطوى فى الوقت عينه على السماحة واللؤم وعلى السمو والإسفاف . من الممكن أن تتغلب علينا عناصر الشر التى فينا ، كما أنه من الممكن أن تتغلب علينا عناصر الخير . العبرة بالقوة التى تثير هذه العناصر أو تلك .

فقال فى هدوء : عظيم يا سيدى . ولكن هل نسيت أنك تجعل كل الأمور متوقفه على شرط غير موجود ؟ أين هذا المحرك الذى يبعث عناصر الخير ؟ هذا المحرك لا وجود له إلا فى داخلنا وعلينا أن نخلقه فى

الناس بالأدب والتربية .

فقلت فى عناد : المسألة مثل الحلقة المفرغة . لن نسطيع أن نصلح داخلنا ما دامت السيادة فى أيدى الأنذال والأشرار والسفلة .

ولا نستطيع أن نصلح أمورنا إلا إذا أصلحنا داخلنا — حلقة مفرغة لا نعرف أين طرفاها .

ليس أمامنا إلا أن نثور على هؤلاء السادة المفسدين لنخلع عنا نيرهم ونحل فى محلهم من يثير فى الناس عناصر الخير . نحن الشعب . نحن العبيد المحطمون . علينا أن نثور إذا شئنا أن ننجى أنفسنا من العار ونحمى ظهورنا من ضرب السياط . الثورة ولا شىء غير الثورة !

فقال صاحبى فى نغمة حزينة :

— قد أوافقك إذا أمكن أن تكون الثورة عاقلة لا تهدم بل تبنى وتضع الأمور فى أيدى الحكماء لا الحمقى . ولكن هيهات !

فقلت فى تبرم : هادئ مثل الملائكة !

فرفع رأسه وكان وجهه محتقناً كما كان يحتقن فى صباه إذا كبت شعوره . ثم قال :

— كنت دائماً تتهمنى بالهدوء وتقصد بذلك الفتور ، لأنى لا أرضيك بالتحمس الثائر . لا يا سيدى فأنت لا تعرف ما فى داخل قلبى . لست أخشى الثورة ولكنى أخشى الفوضى .

وضاق صدرى من هذا الجدل فقلت وأنا قائم :

— هذا أسلوبك فى التكفير دائماً . أنت تريد أن تنتظر مع الزمن مع أنك تؤمن بأن الزمن خرافة ، وأن الحركة هى الحقيقة ، وأنا أريد

أن أستعجل الأمر بإحداث الحركة القوية التى تختصر الزمن .

فقام ومد يده مصافحاً وقال مبتسماً :

ــ هذا حسن يا صديقى . دعنى أمد لك يدى لأقول لك إننا مختلفان حقاً فى الأسلوب وإن كانت غايتنا واحدة . لعل فى طبعك أن تكون مجاهداً فى الطليعة ، فدعنى أنا لأكون مجاهداً فى المؤخرة .

فقلت وقد شعرت بالأسف على عنفى :

ــ أحب أن تعرف يا صديقى مبلغ شعورى بأنى مدين لك .

وشددت على يده فى إخلاص ثم قلت :

ــ سأحاول أن أعود إليك بين حين وآخر لأتزود من أحاديثك فإنك بمناقشاتك تفتح لى آفاقاً جديدة ما كنت أراها .

وقمت لأشيعه إلى الباب وأنا شاعر بأنى أشيع أستاذى .

١٣

قمت مبكراً فى اليوم التالى لأسافر فى أول قطار إلى القاهرة وجلست للإفطار مع أمى وأختى وأحسست عند ذلك بأنى مقدم على خطوة خطيرة . سأفارق كل من لى فى الحياة وسأترك دمنهور التى عرفتها حارة حارة وبيتاً بيتاً ودكاناً دكاناً ، وخيل إلى أنها أعز البلاد وإن كنت قاسيت فيها ما قاسيت . ولم أجد قبولا لأكثر من فنجان من الشاى باللبن وقبلت يد أمى فى شغف وحملت حقيبتى وعرضت على منيرة أن تسايرنى فى ذهابها

إلى المدرسة حتى نبلغ المحطة . ونزلنا ودعوات أمى تشيعنا من فوق السلم ، ولم أنس أن أقرأ الفاتحة لسيدى (أبو طاقية) عندما مررت قريباً منه ، وأخذت أحدث أختى عن خطتى التى عقدت النية عليها ، وهى أن أفارق دمنهور العزيزة إلى الأبد . وشعرت بغصة فى حلقى وأنا أقول لها هذا ، وكدت أحدثها عن منى ، ولكنى لم أجرؤ . فاكتفيت بأن قلت لها : هل أعددت ثوبك الجديد ؟

ولكنى ارتبكت عندما تذكرت أنها لم تدع لحفلة الخطبة إلا منذ ليلة فأسرعت قائلا :

— عندك أسبوع كامل لتذهبى إلى خياطة ماهرة . ستكونين بغير شك أجمل فتاة هناك .

فقالت باسمة : ما عدا منى طبعاً . إنها أظرف فتاة عرفتها وكأنى لم أفارقها منذ كنا أطفالا .

وكان بودي أن أسألها هل كانت سعيدة ، وهل قالت لها شيئاً عن خطيبها ، وهل سألتها عنى ، ولكنى لم أجرؤ ، وتركتها تسألنى عن نيتى فى الإقامة بالقاهرة وهل أعتزم الإقامة وحدى أم ننتقل جميعاً لنكون معاً ، وأخذت أجيبها إجابات مبهمة لأنى كنت فى الحقيقة لا أدرى بم أجيب .

وبلغنا المحطة فصافحتها بهزة من يدى وأخرى من قلبى وسرت مسرعاً والحقيبة الخفيفة تهتز فى يدى ، وخيل إلى أن منظر الميدان وما حوله من الأبنية أجمل المناظر وأن نسيم الصباح الرطب أروح الأنسام . وعرجت على شباك التذاكر فاشتريت تذكرة من الدرجة الثالثة ودفعت جنيهاً

من الجنيهات العشرة التى أخذتها من أمى قبل خروجى . ثم سرت لأهبط إلى المحطة فسمعت صوتاً من خلفى يصيح قائلا « يا أفندى » فالتفت إلى ورائى وكان أحد الحمالين ينادينى قائلا « نسيت بقية الجنيه » فعدت إلى شباك التذاكر واستردت ما بقى لى ثم اشتريت نسخة من « بريد الأحرار » من بائع الصحف وكان منظرها فى عينى بديعاً ، وأخذت أتأمل عناوينها الكبرى باللون الأحمر واللون الأسود والصور الأنيقة التى تزين صفحاتها وداخلنى شعور بالاعتزاز بأنها جريدتى .

وجاء القطار وكان الزحام شديداً فاستطعت بعد جهد أن أدخل العربة وأضع حقيبتى على طرف الرف ووقفت على مقربة من الباب وارتكنت على ظهر المقعد الذى ورائى وأخذت أقلب صفحات الجريدة على مهلى .

ولكن الحقول الخضر كانت تنتزع نظرى من الصحيفة فلم أستطع أن أقرأ شيئاً ، كانت جوانب الطريق بساطاً أخضر من القمح والبرسيم تزدهر بما فيها من النوار والبقر والغنم والأطفال فى ملابسهم الملونة . ورأيت طفلا عارياً كما ولدته أمه يتمرغ فى طين بركة فلوحت له بيدى ورد على التحية بأن قذفنى بحفنة من الطين ، وبصق فى وجهى من بعيد . مسكين هو الآخر لأنه لم يعرف للتحية رداً سوى هذا . وفيما كنت سابحاً فى أفكارى شعرت بيد تسحب الجريدة من تحت إبطى فالتفت إلى الوراء لأرى رجلا ضخماً فى المقعد الذى ورائى يبتسم لى قائلا « تسمح ؟ » ولم ينتظر حتى أسمح وأخذ الجريدة قبل أن أقول له « تفضل » .

ولما وقف القطار فى المحطة التالية خلا المقعد الذى إلى جنب الرجل فدعانى للجلوس وبدأ يحدثنى :

فقال : إلى أين ؟

فقلت مختصراً : إلى مصر .

ـ أنت موظف ؟

وتمنيت لو سكت ولكنه استمر قائلا :

ـ أنت أبونيه ؟

ـ لا .

ـ لا مؤاخذة . أظننى كنت مخطئاً . هو يشبهك تماماً .

ـ من هو ؟

ـ على أفندى مبارك الأبونيه . اسم الكريم ؟

ـ سيد زهير .

ـ تشرفنا . كنت فى يوم من سنتين ـ ولا مؤاخذة ـ كنت أركب هذا القطار نفسه . فركب على أفندى الأبونيه من دمنهور وكنت لا أعرفه ـ وتعارفنا كما نتعارف نحن الآن . ونصب على فى جنيهين .

ولم أجد جواباً فبقيت صامتاً .

واستمر يقول : من ذلك اليوم صرت أتوقع أن أراه كلما مررت بمحطة دمنهور . ومن العجيب أن الجميع يشبهونه ولهذا سألتك هل أنت أبونيه .

فانفجرت ضاحكاً وقلت : أشكرك . على كل حال لست أنا .

فضحك هو الآخر قائلا : لا مؤاخذة يخلق من الشبه أربعين ..

ومد رجليه واستند إلى الكرسى قائلا :

ــ فرصة سعيدة على كل حال . أنا الحاج عبده صاحب محل الصابون العطرى .

فقلت ــ مصنع ؟

فأجاب ضاحكاً : كل الناس يقولون هذا إذا سمعوا الاسم . ولكنه صالون حلاقة ــ وأرجو أن تشرفنا . شارع المحطة بكفر الزيات . مع السلامة !

وكان القطار قد هدأ سرعته للوقوف فى المحطة ، فقام الرجل يستعد للنزول وسألنى أن أساعده على حمل ربطاته الكثيرة ، فناولته إياها من النافذة وانشغل عنى بمقاولة حمال المحطة حتى تحرك القطار .

وجلست إلى جانب النافذة فى المكان الذى خلا من الرجل وأخذت أنظر فيما حولى . ثم استرعى سمعى خصام رجلين من الركاب ، وما لبث أن اشترك سائر الركاب فى المناقشة . وأصغيت إلى حديثهم الخانق مرغماً وأنا أعجب من حرصهم على النزاع مع أنهم فى رحلة . ولكنى رجعت إلى نفسى فقلت إن الخصام أمر طبيعى لأحيله للناس فيه وإن كانوا فى رحلة قصيرة . وهل حياتنا نحن إلا رحلة قصيرة مهما طالت ؟

واستمرت المناقشة تخبو حيناً وتستعر حيناً حتى اقتربنا من القاهرة فكانت تسلية مفيدة سهلت على الركاب قطع الوقت بغير أن يملوا . ألسنا نفعل ذلك عندما نقضى حياتنا فى خصومات متصلة ؟

ووصلت إل القاهرة أخيراً وركبت الترام إلى « بريد الأحرار » ولما صرت أمام المبنى الكبير وقفت فى حيرة لا أدرى ماذا أصنع بحقيبتى .

ولو كانت حقيبة محترمة لما همنى أمرها ولكنها كانت قديمة من الورق المقوى ولا أعرف كيف أسمى لونها ، لأنى نسيت ماذا كان لونها عندما كانت جديدة . وكان لها قفل واحد سليم يعلوه الصدأ وأما الآخر فكان يأبى إلا أن يمد لسانه إلى فوق كأنه يسخر منى . ورأيت على مقربة من الدار دكان بقال فذهبت إليها لعل صاحبها يرضى بإيداع الحقيبة عنده حتى أعود من مقابلة الأستاذ على مختار ، وكان صاحب الدكان رجلا كهلا له لحية وخطها الشيب وتبدو على ملامحه الطيبة . ولكنه بعد أن رد على السلام فى بشاشة لم يرض أن أودع الحقيبة عنده خشية من أولاد الحرام الذين اعتادوا أن يضعوا فى حقائبهم أشياء خبيثة يدسونها على الناس ليوقعوهم فى التهم .

ففتحتها له وأنا فى خجل شديد منها وأخذت أنفض له كل قطعة فيها ليرى براءتها حتى قبل آخر الأمر أن يودعها عنده .

١٤

كانت المقابلة الأولى بينى وبين الأستاذ على مختار مرضية لكبريائى ، فقد استقبلنى فى مكتبه الأنيق مرحباً باسماً ونادانى قائلا :

— مرحباً يا أستاذ سيد .

وهو شاب صغير الجسم له نظرة تدعو إلى الإيناس وصوت ملىء يبعث الثقة . ونظر فى وجهى أو بقول آخر نظر فى عينى ولم يفحص

بنظراته ملابسى ولا حذائى بل لم يلتفت إلى لحيتى التى طال شعرها .
وهو فى مثل سنى ويسترعى النظر بعنايته بملابسه وشعره ورباط رقبته،
وفى يده خاتم يلمع فى ضوء الكهرباء وفى صدره دبوس ذهبى له فص
لا يقل عنه لمعاناً . ولم يقم لاستقبالى بل مد يده نحوى وهو جالس وأشار
إلى كرسى بجواره ودق الجرس ثم طلب فنجانين من القهوة .

ولم يضع وقتاً فى كلام كثير ولكنى شعرت من أول لحظة بارتياح
واطمئنان ، ولهذا لم أتحفظ فى كلامى كما كنت عازماً من قبل .
سألنى :

— متى وصلت إلى القاهرة ؟

فقلت : ظهر اليوم

فقال : آسف إذ فاتتنى فرصة الغداء معك .

فقلت ضاحكاً : فاتتنى أنا .

فقال باسماً : وأين نزلت ؟

فقلت : لا تزال حقيبتى عند الشيخ مصطفى حسنين ، وهو بقال
قريب من هنا .

فضحك ملء صدره قائلا : بداية حسنة .

وتذكرت كلمة مثلها قالها لى السيد أحمد جلال فى موقف يختلف
كل الاختلاف عن موقفنا هذا . ومع انصرافى التام إلى حديث الأستاذ
على مختار لم أملك نفسى من العودة حيناً إلى صورة منى . أما من سبيل
لأعلمها بأنى أصبحت فى القاهرة ومحرراً فى بريد الأحرار ؟

وجاء الفراش يحمل القهوة فأتاح لى فرصة لتأمل صورة منى .

لقد بدت لى فى آخر مرة رأيتها فيها مثل الزهرة البديعة تظهر فى بستان رائع من وراء السور الشائك ، فرسمتها فى قصيدتى وناجيتها كما أناجى الزهرة الجميلة التى لا أستطيع أن أمد إليها يدى . وها هى ذى الأيام تظهر لى أن ذلك الخاطر كان أصدق من نبوءة .

ولما رفعت بصرى إلى الأستاذ على مختار وجدته ينظر إلىّ فاحصاً ، فاعترانى شىء من الارتباك ولكنى سارعت إلى التغلب عليه ، وأخذ يسألنى عن صاحبى عبد الحميد ففتح لى باباً واسعاً من الحديث وانطلقت أحدثه عن الاختلاف الذى بين نظرتى إلى الأمور وبين نظرته — بين الثورة السريعة وبين التطور الذى ينتظر مرور القرون قبل أن يهيئ الشعب للحرية .

وكان يستمع إلى فى صمت كأنه يريد أن يسبر أغوارى .

ولما فرغت من حديثى وجدته ما يزال ينظر إلىّ باسماً وقال :

— أشكرك على الإسراع إلى إجابة رجائى . وأعتذر إليك من قلة المرتب الذى عرضته عليك .

فقلت مسرعاً : هذا فوق الكفاية .

فتبسم قائلا : أنت رجل طيب فترضى هكذا سريعاً . ولكن الجريدة تشق طريقها برغم كل شىء . وسنكبر معاً .

فقلت متحمساً : أنا سعيد بأن أعمل معك يا سيدى .

فقال مبادراً : أحب أن أبين لك طريقتى فى العمل حتى لا يداخلك شىء من سوء الظن عندما تعرف أنك ستبدأ عملك بقراءة البروفات . هذه هى طريقتى .

فقلت فى سرى : هكذا أبدأ دائماً . كتابة الأرقام على البالات هناك وقراءة البروفات هنا . »

وأخرجت من جيبى مجموعة من الأوراق فيها قصة جديدة ومددت بها يدى نحوه .

فأخذها قائلا : قصة أخرى ؟ أهنئك يا أستاذ سيد ببراعة أسلوبك . ولا تظن أنى أقلل من شأنك عند ما أطلب منك أن تراجع البروفات . هذه طريقتى عند ما يدخل إلى الأسرة عضو جديد . أحب أن يتعرف هذا العضو الجديد إلى كل الأعضاء الآخرين وأحسن وسيلة لمعرفتهم هى قراءة أفكارهم فى دقة واهتمام . ستعرف أفراد هذه الأسرة من ناحيتها الهامة وهى أفلامها .

فقلت مسروراً : هذه نظرة صائبة وأنا سعيد بأن أعمل معك .

ووقفت لأنصرف فمد إلى يده مصافحاً ولكنه وقف لى فى هذه المرة قائلا :

ـــ إلى اللقاء غداً فى الصباح .

وخرجت من عنده وأنا أسأل نفسى أى صنف من الناس هو . ومع كل ما ظهر لى من بشاشته وأدبه خرجت من عنده وأنا أحس أنه أعمق غوراً مما يبدو .

وذهبت إلى دكان الشيخ مصطفى فوجدته جالساً على الدكة عند مدخل الدكان وفى يده رغيف محشو بجبن يقضم منه، فلاقانى كما لو كنا أصدقاء منذ سنوات وقال لى :

ـــ مرحباً .

وفسح لى مكاناً إلى جنبه وأخذ يسألنى عما جئت من أجله ولما علم أنى كنت مع الأستاذ على مختار قال فى حماسه :

ــ على بيه ؟

فقلت : أتعرفه ؟

فأجاب ضاحكاً ! أراه كل يوم ولكنى لا أعرفه .

وكنت لم أطعم شيئاً منذ الصباح فقلت :

ــ أتسمح لى بشىء من الطعام ؟

فمسح فمه بيده قائلا : رغيف وجبنة وحلاوة وسردين وكل ما تريد .

وقام ليجهز لى الطعام ثم وضعه على الدكة فوق ورقة قديمة من أوراق الصحف قائلا :

ــ تفضل بألف هنا .

وأخذت آكل بشاهية عظيمة وهو يبادلنى الحديث . وأخذ يسألنى عن قصدى حتى عرف أنى جئت لأعمل محرراً فى الجريدة .

ولما عرف أنى من دمنهور قال لى :

ــ تشرفنا . أحسن تجار أهل دمنهور .

فقلت مباهياً : وأنا كذلك كنت تاجراً .

ففرك يديه بعد أن فرغ من طعامه وقال :

ــ الحمد لله ؛ رضا ؛ اسمع يا أفندى . الأرزاق بالله فلا تحزن ولا تيأس . التجارة مثل المرأة اللعوب تضحك مرة وتغضب عشرين . هل خسرت كثيراً .

فقلت : لم أخسر بل ربحت .

فقال فى دهشة : ومع ذلك نترك التجارة ؟ وماذا تريد من هذه الجريدة ؟ تكتب فيها ؟ ما هذه الخيبة ! اسمع يا سيدنا الأفندى . إذا كنت لم تخسر فى التجارة فارجع إليها حتى تخسر . اسمع نصيحتى ولا تشتغل فى الجرائد . كلام فارغ . كل جريدة تشتم الأخرى وكل كاتب يقول للآخرين « أيها اللصوص » « أيها الخونة » يعنى إن الجميع لصوص وخونة . فماذا تريد ؟ ارجع إلى التجارة وافعل مثلى . والله لو أعطانى على بيه خمسين جنيه فى الشهر لم أقبل أن أترك التجارة .

فضحكت قائلا : لست أصلح للتجارة .

فقال : قلت لك إنها كالمرأة اللعوب . تضايقك ؟ لا تتضايق . تحزنك ؟ لا تحزن . صالحها ، ضاحكها راجعها بكل وسيلة ، وإذا لم ترض عنك عاملها بالقوة . اضربها . العنها . جرها من شعرها . ولكن لا تيأس . الحمد لله . رضا !

وأخذ يقبل يده ظهراً لبطن .

فقلت له : يظهر أنى لم أخلق لها .

فقال وهو يهز رأسه : مسكين ! الله يساعدك .

ولما فرغت من طعامى مسحت يدى وفمى فى منديلى ودفعت له الثمن وقمت قائلا :

— تسمح لى بإبقاء الحقيبة عندك ؟

فقال : مرحباً ! محلك يا سيدى . تفضل فى أى وقت لغاية الساعة العاشرة . أين تقيم ؟

فقلت : لا أدرى .

فقال : اسمع يا أفندى . اسم الكريم ؟

فقلت : سيد زهير .

فقال : عاشت الأسامى ؛ اسمع يا سيد أفندى . أنت رجل طيب ويظهر أنك ابن ناس طيبين . وعندنا غرفة فى سطح البيت وكان فيها رجل طيب مثلك . فيها سرير وكرسى أسيوطى وكنبه وشباك بحرى وقدمها أخضر . لم يبق صاحبنا هناك إلا سنة ثم انتقل بترقية . عقبى لك . سافر إلى الإسكندرية درجة ثامنه .

فضحكت قائلا : يا سلام ! لابد أنه كان متعلقاً بآخر عربة فى القطار .

فضحك هو الآخر قائلا : أقصد أنه نقل إلى الإسكندرية وأنه موظف درجة ثامنة فنية . موظف فنى مهم . قدمها أخضر مائة فى المائة .

فقلت : وأين المنزل ؟

فأشار إلى ورائه إشارة مبهمة قائلا : قريب من هنا . فى الخدمة يا سيد أفندى .

وخرجت من الدكان أسير إلى غير قصد لأقطع الوقت حتى يأتى المساء ، وجعلت أنظر حولى حتى لا أضل الطريق عند عودتى . وكانت المناظر متشابهة والأبنية كلها عالية كأنها توائم ، لا يمكن تمييز أحدها عن الآخر . فعرجت على أقرب قهوة حتى لا أبعد فى المسير وكانت الساعة قد بلغت الثالثة والنصف .

وكان اسم القهوة « نادى الأدباء » فسررت إذ وجدته فألا حسناً . وجلست فى ركن على جانب الطريق وطلبت فنجاناً من الشاى ، وأخذت

أفكر فيما أفعل . وكان منظر الطريق مسلياً كأنه فلم سينمائى لا تنقطع فيه الحركة . فخطر لى أن أقيد ملاحظاتى حتى لا تشرد مى تشبهاً ببعض من قرأت عنهم من الأدباء ، وفتحت عينى لكل ما يمر بى وأخرجت كراسة صغيرة كانت فى جيبى وأخذت أنظر وأكتب . يالها من لحظات سخف ما أزال أضحك منها كلما تذكرتها ، وما أزال إلى اليوم محتفظاً بهذه الكراسة الصغيرة كتذكار لهذه الجلسة .

وأضاءت الأنوار إيذاناً باقتراب المساء فقمت وكانت الساعة السادسة ، فلما وصلت إلى دكان الشيخ مصطفى وجدته ما يزال جالساً على الدكة عند مدخل الدكان وإلى جواره عدد من الناس يأكلون وهم وقوف ويتحدثون أحاديث شتى تتخللها السخرية ويمضغون كلماتهم مع اللقم التى يقضمونها من الأرغفة التى فى أيديهم . هى السياسة دائماً .

فجلست على الدكة إلى جانب الشيخ وشاركت فى الحديث وكان يدور حول ما يتناقله الناس من فضائح ، كأن المدينة قد خلت إلا من أعوان الشيطان .

وكان الشيخ مصطفى محور تلك الأحاديث ، يضيف إلى كل قول كلمة من رأيه تثير ضحكة عالية .

ولما صارت الساعة الثامنة صرت لا أحتمل البقاء طويلا فقلت للشيخ :

ـــ متى تعود إلى المنزل ؟

فنظر إلى ساعته وقال : ياسلام ! أتحب أن نذهب الآن ؟

فقلت أحب أن أستريح إذا أمكن ذلك . فنظر إلى أصحابه قائلا :

ـــ عن إذنكم ياجماعة . تعالوا نتم سهرتنا فى المنزل ونوصل صاحبنا هذا .

وأغلق دكانه وسرنا فى حلقة صاخبة نتبادل الفكاهات عن كل ما يقع عليه بصرنا وأدهشنى الشيخ لأنه كان أكثرهم مرحاً وطرباً حتى خيل إلى أنه شخص آخر غير الذى رأيته فى ساعة الظهر .

ولم يكن المنزل بعيداً فدخلنا من بابه الخشبى القديم إلى ردهة مظلمة سرنا فيها على ضوء أعواد الكبريت حتى بلغنا فناء مربعاً فيه مصباح بترول صغير على حامل خشبى مثبت فى الجدار وفتح الشيخ الغرفة التى فى صدر الفناء حاملا إليها المصباح ودعا أصحابه للدخول فيها حيث جلسوا على حصير حوله بعض (الشلت) الصغيرة ، ثم عاد وأوقد عوداً من الكبريت ليضىء لى الطريق إلى أعلى السطح حيث كانت غرفتى .

وكان القمر ساطعاً فأغنانا عن إشعال الكبريت فى السطح ، وفتح الشيخ باب الحجرة وأوقد مصباحاً على رف خشبى فيها فاستطعت أن أرى منزلى الجديد .

وكان هناك سرير قديم ولكنه نظيف وكرسى أسيوطى و (كليم) صغير ومنضدة وكنبه ، ولم أجد فرقاً كبيراً بينها وبين الغرفة التى اعتدت النوم فيها بمنزلى ، فأظهرت الارتياح وشكرت الشيخ فاستأذن مسروراً عندما عرف أن الغرفة أعجبتنى .

١٥

ألفت الحياة فى القاهرة وبدأت أعتاد ضجتها وسرعة حركتها وضخامة هيكلها ، وبدأت أتذوق ما فيها من معالم القرن العشرين وأطلال العالم القديم .

فكنت فى ذهابى إلى بيتى أمر بشارع فؤاد وأنقل بصرى فيه متأملا ما هناك من تبرج وبراعة وسذاجة وصراحة فيها شبه من بلاهة الطفولة المدللة المغرورة ، ثم أمضى فى سبيلى حتى إذا اقتربت من مسجد أبى العلاء وجدت نفسى فى مدينة أخرى من بقايا عالم قديم كان يمتاز بالغموض والكبرياء والوعى الغريزى ولكنه عالم اندثر ولم يبق منه إلا روح متمرد جبار يتحصن فى بقايا الأطلال المتداعية حتى لا تقهره المدنية الجديدة .

فإذا اقتربت من بيتى — أو بقول آخر إذا اقتربت من بيت الشيخ مصطفى حسنين خيل إلى أيضاً أننى انتقلت من مدينة إلى أخرى أو من عالم إلى عالم آخر . ولست أدرى ما الذى جعلنى أرتاح إلى الإقامة فى هذا الحى على ما فيه من قذارة وظلام وفوضى ، فإنى مع شعورى بكل ما فيه من عيوب كنت أجد فى جوه شيئاً مؤنساً ساحراً لا أدرى ما هو .

وكانت عطفة الشيخ مصطفى لا تكاد تبلغ فى سعتها أربعة أمتار وكانت دائماً مبلله بما يلقى إليها من الماء القذر من أعلى البيوت أو من أسفل الأبواب . وأما جدران البيوت فكانت عارية تبرز منها أسنان من الطوب الأحمر المتآكل وتتخللها نوافذ لا تزيد على ثقوب تسترها قطع من الصفيح أو القماش أو جانب قفص من الجريد . ومع هذا فإنها أصبحت مألوفة عندى . وألفت غرفتى حتى صرت لا أجد فيها شيئاً من الضيق عندما كنت أضطر للاستحمام فى (محل الأدب) من صفيحة ماء ، ولا عندما كان الهواء البارد يهب على فى ساعة الصباح من النافذة المكسورة .

وكنت فى كل يوم أقضى ساعة بعد عودتى إلى المنزل لأعد عشائى

مما أحمله معى من البيض والجبن والزيتون ، ثم أجلس ساعة قصيرة أشرب بعض أكواب صغيرة من الشاى الذى كنت أتحرى فى اختياره وأتأنق فى إعداده ، وأبدأ بعد ذلك فى عمل الليل وهو القراءة والكتابة.

واشتريت مصباحاً جديداً قوى الضوء حتى لا أتعب بصرى بضوء المصباح الصغير الذى أعده الشيخ مصطفى لساكن غرفته . فكان ذلك يساعدنى على الاستمرار فى القراءة والكتابة إلى ما بعد نصف الليل أحياناً . ولكن النوم العميق الذى كنت أغرق فيه بعد هذا كان يجعلنى أهب فى الصباح نشيطاً صافى الذهن مستبشراً

هكذا قضيت الشهرين الأولين من إقامتى بالمنزل حتى رأيت يوماً فطومة ابنة الشيخ مصطفى تأتى إلى فى الصباح الباكر وفوق رأسها صينية كبيرة عليها طعام من الفول المدمس والطعمية والبيض المقلى وفنجان من الشاى الثقيل القاتم اللون .

وشكرتها مخلصاً على هذه الخدمة لأنى كنت بدأت أضيق بخدمة نفسى . فصارت الفتاة تحمل إلى إفطارى كل صباح فتضعه على عتبة الباب حتى إذا قمت من النوم وجدته ينتظرنى . ولما مضت بضعة أسابيع أخرى بدأت فطومة تترقب الميعاد الذى أستيقظ فيه فإذا أحست بأننى أتممت لبسى صعدت إلى تحمل الصينية فتضعها على المنضدة ثم تجلس عند عتبة الباب حتى أفرغ من الأكل فتحملها . وكان من الضرورى أن أتفق على ثمن هذا الطعام ، ورضيت فطومة بعد تمنع كثير أن أدفع كل شهر جنيهاً واحداً . ولكنى كنت أدفع لها مائة وخمسين قرشاً لأن هذا أقل ما كنت أفطر به فى المدينة فوق ما فى طعام البيت

من كرامة وراحة ونظافة . ولما مضت أشهر الربيع أصبحت فى المنزل كأنى أحد أفراد الأسرة وصرت لا أغض طرفى كلما مررت بشقة الشيخ مصطفى كما صارت فطومة تصعد إلى غرفتى فى أوقات مختلفة من اليوم وتقضى معى أحياناً ساعة طويلة تثرثر وتغنى .

وكانت فتاة فى نحو الخامسة عشرة من العمر ولكنها تبدو فى أحاديثها ومعاملاتها أكبر سناً من هذا . كانت وهى تنتظر فراغى من الإفطار تجلس عند الباب تقص على أحاديث شتى من الشرق والغرب عن أمها وأبيها وجيرانها رجالا ونساء، وتعيد على الأخبار التى تتلقفها من الطريق ومن حوانيت السوق ، وكنت أعجب أشد العجب من إلمامها بما لا تلم به صغيرة مثلها ، كما كنت أعجب من دقة نظراتها التى تنم عن أنها على مقدار عظيم من الذكاء الفطرى .

وكانت لا تخجل أن تحدثنى عن نفسها أحاديث تخجل الفتاة الصغيرة من مثلها ، فقد عرفت منها أن شهاب أفندى الموظف الذى كان يسكن فى الغرفة من قبلى كان يريد أن يتزوجها وقصت على بعض أخباره ونوادر مغازلاته فكنت أشعر بالحرج من سماعها وأنكمش فى نفسى خجلا ولكنها كانت تضحك مكركرة فى مرح جرىء عندما تلمح خجلى.

وأما عملى فإنى اندمجت به بعد قليل ووجدت فيه عالماً واسعاً ممتعاً بعد أن كنت فى مبدأ الأمر شاعراً بالغضاضة من أنى لا أزيد على قارئ بروفات . وقد تعرفت زملائى من قراءة بروفات مقالاتهم أكثر مما كنت أعرفهم من وجوههم حتى صار لكل منهم فى ذهنى صورة مجردة تميزه عن الآخرين تمييزاً واضحاً .

وبدأ الأستاذ على مختار يطلب منى الكتابة بعد أن قضيت فى الدار الشهور الثلاثة الأولى ، ولم ألبث إلا قليلا حتى طلب منى أن أستقل بباب خاص فاخترت له عنوان « أنا الشعب » مستعيراً تلك الصرخة التى كنت أصرخها وأنا فى سجن مركز دمنهور . وكان الأستاذ يبدى إعجابه بأسلوبى « الحريف » فشجعنى ذلك على أن أطلق العنان لما كان يجيش فى صدرى من المشاعر الثائرة التى تجد وقوداً كل يوم من أحوال الناس والسياسة ، فصار لما أكتب صدى قوى على ما ظهر لى من الرسائل التى أخذت تنهال على مع البريد كل صباح .

كانت الثورة تتأجج فى النفوس من تحت الرماد ولا يمنعها من الانفجار إلا الخوف من العسف .

وتطوع الأستاذ على مختار بعد قليل بزيادة مرتبى إلى ثلاثين جنيهاً فى الشهر كما زاد أجرى على القصة إلى عشرة جنيهات ، فأصبح ما يصل إلى فى كل شهر نحو خمسين جنيهاً ، وهو دخل لم يخطر لى ببال فى يوم من الأيام .

وهكذا صرت قادراً على أن أبعث إلى أمى ما يزيد على كفايتها .

والتحقت بقسم الصحافة بالجامعة الأمريكية ووجدت فى هذه الدراسة تسلية فوق ما فيها من فائدة ، لأنها شغلت جزءاً من الوقت الذى كنت أضيق به كلما خلوت من العمل .

هكذا قضيت فى القاهرة شهراً بعد شهر بغير أن أذهب إلى دمنهور مع أنى عندما سافرت إلى القاهرة فى أول الأمر كان يخيل إلى أننى لن أنقطع أسبوعاً واحداً عن زيارة مسقط رأسى العزيز . ومنى ! أنسيتها ؟

ما أعجب أسرار النفس الإنسانية وما أشدها غموضاً . لم أنس ذكر منى فى هذه المدة يوماً واحداً ولكنى كنت أتعمد أن أصرف نفسى عن التفكير فيها . كنت أحس شيئاً يشبه الخنق كلما خطرت لى صورتها العزيزة ، ولكنه كان مع هذا أبعد شيء عن الحنق عليها . هو شعور أقرب إلى الحنق على نفسى وعلى كل شيء آخر غيرها . وماذا يجدينى الاسترسال فى التعلق بها وهى لا تزيد على أمل بعيد يشبه النجم فى السماء أو الأفق وراء الجزيرة أو السراب فى الصحراء . كنت أصرف نفسى عنها عامداً كما يتعمد المسافر أن يصرف نفسه عن الحبيب الذى يفارقه خوفاً من الانهيار فى موقف الوداع . ولكن العجيب فى أمرى شيء آخر قد لا يخطر على بال أحد وذلك أن فطومة الساذجة المسكينة الصغيرة بدأت تؤنسنى كلما جاءت إلى تحمل صينية الإفطار .

وبعد مرور عدة أشهر بدأت تتجرأ فى بعض الأحيان وتدخل الغرفة لتجلس على طرف الكنبة بدلا من الجلوس على العتبة ، وكنت أحياناً أضيق بها إذا تكلمت عن أشياء لا أعرف عنها شيئاً أو لا تهمنى أو تثقل على سمعى فأقول لها فى عنف « مالى وكل هذا ؟ » ولكنها كانت لا تغضب بل تضحك قائلة : « وماله ؟ »

وتبين لى بعد حين أن لها براعة فى الغناء والفكاهة فكنت لا أردها عن زياراتى وأدعها تمضى على سجيتها كطفلة مرحة خفيفة الروح وأجد فى انطلاقها ما يرفه عنى إذا كنت متعباً . وكانت أحياناً تثير رحمتى عندما تذكر أنها تشتهى شيئاً ولا تستطيع أن تشتريه فأعطيها ما تشتريه به وأجد جزاء وافياً فى تعبيرها عن سرورها بطريقتها الساذجة ، إذ كانت

تهب كالعاصفة وتطوق عنقى بذراعيها وتغنى أغنية بلدية فيها مداعبة جريئة فأنزع ذراعيها عن عنقى فى ترفق وأعنفها تعنيفاً يسيراً لا يزيدها إلا معابثة ومرحاً .

ولكن المسكينة بدأت بعد حين تتكشف عن نواح أخرى لم أتوقعها من قبل ، فقد حدث يوماً أن جاءت إلى ومعها قطعة من مادة سمراء رفعتها أمام عينى بين أصابعها قائلة :

ـ إحزر ما هذه .

فسألتها : ما هذا ؟

وهممت بأن آخذها منها لأفحصها . فابتعدت عنى ضاحكة وقالت هامسة :

ـ نصف ريال .

فأعدت سؤالى : ما هذا ؟

فضحكت قائلة : فرفوشة !

فسألتها متعجباً عن معنى « فرفوشه » فضحكت ضحكة عالية فيها شيء من التبذل وقالت :

ـ كان شهاب أفندى يطلب منى كل يوم قطعة ويعطينى ريالا . ولكنها لك بنصف ريال . كنت أموت من الضحك عندما أسمعه يتكلم بعد أن يضعها فى سيجارة ويشربها . ألا تعرفها يا سيد أفندى ؟ جرب ! ضعها فى سيجارة وأشعلها تجد نفسك سعيداً .

وضحكت مرة أخرى قائلة :

ـ تعيش بها فى الجنة يا سيد أفندى !

وأدركت من قولها أنها قطعة من الحشيش فانقبض صدرى من أجلها . طفلة مسكينة لا تحس بأنها ترتكب إثماً .

وسألتها فى عنف وحدة :

ــ من أين أتيت بهذا !؟

فأجابت فى نغمة غضب وعتاب : الحق على يا سيد أفندى . ولوت رأسها وأسرعت نازلة وقضت بعد ذلك ثلاثة أيام لا تزيد فى زيارتها على حمل صينية الإفطار فى الصباح وتركها عند باب غرفتى .

وفى اليوم الرابع جاءت بالإفطار وهى تبتسم ابتسامة عتاب فلم التفت إليها وجلست لأفطر . فقالت وهى تضع يديها من ورائى حول عنقى :

ــ لو كان شهاب أفندى لخطفها منى .

فقلت فى رحمة ممزوجة بالغضب :

ــ إنك مجنونة ! لولا خوفى عليك لأخبرت والدك .

فوضعت يديها على فمى قائلة :

ــ هس ! لو عرف يموتنى ! طلق أمى مرة لأنه رآها تأخذ قطعة من جيبه .

ولاأستطيع أن أصف دهشتى عند ذلك . الشيخ مصطفى يتجر فى الحشيش ! وعادت إلى ذهنى بعض لمحات لم أفطن إلى معناها من قبل : العمال وهم يلتفون به عند باب دكانه ، والاضطراب الذى كان يبدو عليه أحياناً عندما أقف أمام بابه وهو مشغول بشىء أمامه فى منديل أحمر ، فيبادر بلف المنديل ويدسه فى أحد الرفوف ثم يقول لى « ألف نهار أبيض ! » وهؤلاء الأصحاب الذين يذهبون معه إلى البيت ويواصلون

السهرة فى المنظرة . كل هذه اللمحات كانت تمر بى بغير أن أفهم لها معنى ، ولكنها اتضحت لى فى تلك اللحظة .

وأخرجت ريالا من جيبى وقدمته للفتاة قائلا :

ــ هذا لك وكلما أردت نقوداً فاطلبيها منى وأرجو أن تمتنعى عن هذه القطع السمراء . فخطفت الريال من يدى وأسرعت خارجة من الغرفة وهى تغنى فى قلة اهتمام : « يا عرقسوس شفا وخمير »

ولست أدرى لماذا كدت أبكى عند ذلك مع أنها كانت تغنى سعيدة . وامتنعت فطومة بعد هذا من عرض قطعها السمراء على ولكنها لم تنقطع عن عادتها فى زيارتى والثرثرة إلى جانبى والغناء فى أثناء ذلك ،وكان صوتها حقاً من أبدع الأصوات التى سمعتها . وكنت أعطيها بين حين وآخر بعض النقود القليلة لعل ذلك يحميها من الالتجاء إلى مثل فعلتها الأولى . ولكنى كنت أحس شيئاً من الضيق عندما كنت أجدها تأخذ النقود فى جرأة كأنها تخطفها ، وكنت فى كل مرة أجادل نفسى هل من الخير أن أيسر لها مد اليد ولكنى كنت أعود فأعطيها مرة بعد أخرى ، ومهما يكن من الأمر فإنى تعودت حياتى هذه حتى كأنى كنت أحياها طول عمرى ، واستمر نجاحى فى عملى وكنت فى كل يوم أتقدم فيه خطوة وازدادت خبرتى بشئون الحياة واطلعت فى هذه الشهور الأولى من حياتى على كثير مما كنت لا أحلم به فى حياتى الأولى ، وكان من أشد ما عرفت وقعاً على نفسى أننى كشفت حقيقة بشعة وهى أن كثيراً من الناس لا يؤمنون بشىء ، وكان مما زادنى ألماً فوق عجبى أن هؤلاء الذين لا يؤمنون بشىء هم الذين يخضع لهم الناس ويسمونهم السادة . وقد

تعودت فيما بينى وبين نفسى أن أسمى هؤلاء السادة المزيفين باسم المساكين ولكن هذا لم يعصمنى من محاولاتهم فى إفسادى. نعم فقد حاول بعضهم أن يساومنى على ضميرى كما تعود أن يفسد غيرى .

دعانى يوماً محسن باشا أحد كبار الزعماء وكانت ليلة الاحتفال بذكرى وطنية . ولما جلست مع الزعيم قربنى وأظهر لى ما لا مزيد عليه من الإكرام والإجلال وبدأ يتملقنى على مسمع من الحلقة المحيطة به ، ووكد لى مودته وتقديره لحسن أسلوبى وطلاوة عبارتى وسداد آرائى وبدأ يعرج على ما كنت أكتبه فى مقالاتى تحت عنوان « أنا الشعب » حتى قال لى بعد تمهيد طويل :

ـ أنا واثق من حسن قصدك ولكن الناس قد يفهمون أنك تقصدنى .

وكنت حقاً أقصده بكثير مما أكتب فى هذه المقالات فقلت له فى بساطة :

ـ لست أكذب عليك فإنى أقصد كل من يصدق عليه قولى .

فقال متمالكاً نفسه :

ـ تعجبنى فيك الصراحة دائماً ، وإنه لمما يسعدنى أننا متفقان فى الرأى .

فقلت فى شىء من السخرية : هذا يسعدنى أكثر .

فقال : أننا جميعاً طلاب حرية .

فقلت فى دفعة : المهم هو تحديد معنى الحرية .

فقال : المعنى واضح لا يحتاج إلى تحديد . الحرية هى الحرية . هى المبدأ الذى نجاهد من أجله .

فاندفعت قائلا فى حنق : لست أفهم يا سيدى هذا اللفظ إلا إذا كان يترجم فى حقائق . أين تكون الحرية بغير العدالة التى تكفل للجميع حقوقهم وترعى حرماتهم وتسوى بينهم فى الواجبات . أين تكون الحرية إذا انعدمت الأخلاق العامة وفسدت النزاهة وعمت عبادة المال ؟ أين تكون الحرية إذا كان السادة يسرقون ويضاربون ويضربون أمام أعين الجماهير أسوأ الأمثلة للأخلاق ؟ ما هى الحرية إذا انعدمت المقاييس الأخلاقية وانفرط عقد الناس وصاروا فوضى لا يؤمن كل منهم إلا بنفسه ومصلحته ؟

فاحتقن وجهه ولكنه كظم غيظه وقال عاتباً :

ــ أما كان أولى بك لو جئت إلىّ فأطلعك على الحقائق .

فقلت فى ارتياح : هذا يسعدنى ولك يا سيدى أن تكذب ما تراه كاذباً من أقوالى .

فكبر قولى على الجالسين فى الحلقة وبدأوا يتدخلون فى الحديث وأدهشنى أن الزعيم انفجر فى أحدهم بدلا من أن ينفجر فىّ أنا وصرخ فيه قائلا :

ــ اخرس أنت !

وأدهشنى أكثر من ذلك أن ذلك السيد التابع خرس فعلا وانزوى فى ركنه صامتاً مع أنه كان ينتفش إذا ظهر أمام الناس كالديك الرومى .

واتجه الزعيم إلىّ قائلا :

ــ إنى فضلت أن أدعوك إلى هنا لأكلمك حتى تعلم أنى لا أريد بك إلا كل خير . بل إنى فكرت فى أن أسند إليك وظيفة .

فابتسمت فى سرى وقلت له :

ـ أشكرك يا سيدى لأنى لا أطلب وظيفة .

فزاد وجهه احمراراً وبدأ يرفع صوته فى المناقشة وكان كلما سمع أحد أتباعه يتكلم يصيح به فى جفاء قائلا « أسكت أنت ! »

وكانت لفتاته ونغمة صوته تدل على أنه كان ينفس من غيظه بالانفجار فى هؤلاء الأتباع الذين يعرف أنهم حوله مثل الكلاب الأليفة .

واستمرت بيننا مناقشة طويلة وكانت حرارة الزعيم تزداد شيئاً فشيئاً ولم يطل انتظارى للانفجار المتوقع فإنه أخذ بعد قليل يخبط بيديه على المكتب الذى أمامه ويصيح بأعلى صوته :

ـ من لا يكون معى أحطمه ! من لا يكون معى أكسره !

وخيل إلى أننى حيال مجنون هائج فضحكت فى رثاء وكانت ضحكتى هذه المرة ظاهرة ، وتذكرت موقفى القديم مع السيد أحمد جلال عندما قال لى هو الآخر إنه يحطمنى . وقلت فى نفسى إن هؤلاء جميعاً لا يعتمدون إلا على مقدرتهم فى التدمير والتحطيم ، فلننظر !

وقلت له هادئاً : وماذا يدعوك إلى تحطيمى ؟

فزاد حنقاً من هدوئى واستمر يخبط بيديه الاثنتين على المكتب كأنه ثور مسعور وانتفخت أوداجه حتى كأنه يريد أن ينفلق .

وتذكرت موقفى القديم من السيد أحمد جلال وما قلته له عندما هددنى فاندفعت صارخاً فى وجهه :

ـ اعلم أنك لا تقدر أن تحطمنى ولا أن تكسرنى . ومن أنت حتى تحطمنى ؟ لست إلهاً ولست صاعقة وما أنت إلا بشر مثلى . لا تصدق

أنك تستطيع أن تحطم أحداً إلا إذا كان هو يحطم نفسه . إنك أنت تحطم نفسك بمثل هذا الغرور الذى يجعلك تظن أنك إله . ليكن سلطانك ما يكون فإنك لن تجد سبيلا على لأنى لا أطمع فى شىء عندك .

وقمت لأنصرف ، فتمسك بى أتباعه وأجلسونى قسراً وتعجبت من الزعيم الكبير عندما رأيته يهدأ على أثر دفعتى ، بل إنه أخذ يخاطبنى خطاباً ليناً ويقول لى فى هدوء « إنك أسأت فهمى ولم أقصدك بكلمتى وما أنت إلا مثل ولدى . »

ولم أبق فى المجلس بعد ذلك إلا ريثما يهدأ الجو بعد المنظر العاصف ثم قمت خارجاً فقام ورائى عدد من الأتباع وجعلوا يلومونى على أنى رفعت صوتى فى حضرة الزعيم الذى لا يجرؤ وزير على أن يرفع صوته أمامه .

فقلت لهم فى هدوء :

ـــ أحمد الله على أن لى صوتاً أرفعه .

ثم مضيت من ساعتى إلى « بريد الأحرار » لأكتب مقالا آخر عن « الزعماء المزيفين » .

١٦

عندما دخلت فى اليوم التالى على الأستاذ على مختار بادرنى قائلا :

ـ عظيم يا أستاذ سيد !

وكان منهمكاً فى قراءة المقال الذى كتبته فى الليلة السابقة . فلما أتم القراءة نظر إلىّ حيناً فى صمت ثم قال :

ـ عندى مهمة لا يقوم بها على أتم وجه إلا أنت .

ومد إلىّ يده بتذكرة دعوة .

واستمر يقول : هذه دعوة إلى حفلة كبرى بمنزل الوجيه حسام الدين بمصر الجديدة . . . حفلة استقبال أمير كبير وولى عهد دولة شرقية صديقة . ستكون فى الساعة التاسعة من مساء اليوم والآن الساعة العاشرة صباحاً . لا تعتذر بشىء فلك أن تشترى من الملابس ما تشاء ، وسيكون المصورون تحت أمرك . ستكون هذه الحفلة موضوع أحاديث المجالس والأندية والمنازل طوال الأسبوع المقبل ، وستسهر الإدارة حتى ترسل إليها المقال الذى ستكتبه فى وصفها . لك صفحة بيضاء تكتب فيها ما تشاء بغير مراجعة . وستكون عربتى الخاصة تحت تصرفك .

لست أقول لك « ما رأيك » ولكنى أقول « ها هى ذى يدى . إلى اللقاء » .

ليس عندى شىء أقوله لك إلا أن تكتب كما تكتب دائماً . وهذه

مائة جنيه تصرفها كما تشاء .

وتبسم عاطفاً وهو يضع أمامى ورقتين من ذوات الخمسين جنيهاً . فوجدت نفسى مثل رجل يرى نفسه واقفاً أمام طيارة على غير انتظار وشخص آخر يدفعه قائلا له « هلم إلى نيويورك » .

أ أقول له لا أريد أن أذهب ؟ هذه هى الكلمة التى كدت أنطق بها لولا أننى سمعته يقول لى باسماً « لا تضيع الوقت فى الوقوف هكذا يا أستاذ سيد . سنطبع عشرين ألف نسخة فوق ما نطبعه كل يوم . »

وخرجت من عند الأستاذ وأنا أسأل نفسى كيف يفكر هذا الرجل . وأى نوع من المقالات يريد منى ؟ أهى دعاية للسيد الوجيه ؟ أم هى دعاية للأمير ولى عهد الدولة الصديقة ؟ أم هى خطة لا أعرفها للبدء فى معركة ؟ لقد علمتنى الأشهر التى عملت فيها مع الأستاذ على مختار أنه رجل عميق الأغوار .

وسألت نفسى إلى أين أذهب ولكنى ركبت عربة الأستاذ وقلت للسائق أول اسم خطر لى : محل مانويل .

ثم قلت فى نفسى ماذا أصنع بهذه الجنيهات كلها ؟ بدلة عظيمة وحذاء جديد طبعاً من النوع اللامع وماذا أيضاً ؟ رباط رقبة ومنديل وقميصان مثلا . ثم ماذا ؟ أظن أن البائع سيفتح لى أبواب الشراء على وسعها فلا حاجة بى إلى التفكير فى طريقة الإنفاق منذ لآن . وتحقق ظنى فلم أجد صعوبة فى صرف الجنيهات عندما دخلت إلى محل (مانويل) كما لم أجد صعوبة فى اختيار الملابس والألوان . أخذت النقود تطير منى كالعصافير . قميص بخمسة جنيهات ورباط رقبة

بثلاثة ، ولم يكن من المناسب أن يكون لى قميص واحد ، أو رباط رقبة واحد . والبدلة بثلاثين جنيهاً والحذاء بخمسة . وتذكرت أنى فى حاجة إلى ملابس تحتانية لأن مثل هذه البدلة لا يليق بها أن تعتلى ملابسى القديمة . وبعض مناديل حريرية وجوارب وعلبة سجائر وقفاز وبعض زجاجات عطور .

ومجمل القول أنى صرفت أكثر الجنيهات التى أخذتها من الأستاذ ولم يبق فى جيبى إلا بعض جنيهات (فكة) . ولبست البدلة لأجربها فوجدتها بديعة كأنها مفصلة على قدى ونظرت إلى صورتى فى المرآة ولست أبالغ إذا قلت أنى كنت وجيهاً حقاً ، بل إنى كنت أوجه من محمود خلف . وتمثلت نفسى واقفاً أمام منى أقول لها . أما تعجبك هذه البدلة السوداء ؟ »

وحمل عامل المتجر ما اشتريت إلى السيارة فنفحته بربع ريال ثم ركبت حتى وصلت إلى مدخل حارة الشيخ مصطفى، ولم تهمنى نظرة السائق عندما أمرته بالوقوف هناك أمام حارة ضيقة قذرة وطلبت منه فى تعال أن يعود إلى قبل منتصف الساعة التاسعة من المساء .

ولم أجد صعوبة فى حمل الربط التى اشتريتها لأنها لم تكن ضخمة وعرجت على بقال قريب من المنزل فاشتريت منه رغيفاً وبعض الجبن وعلبة من الفاكهة المحفوظة وسرت إلى المنزل وأنا أتأمل فى تفاهة الجنيهات المائة التى أحمل ما اشتريته بها فى يدى اليمنى وتحت إبطى .

وقضيت بعد ظهر اليوم فى الاستعداد للحفلة فحلقت دقنى واستحممت وأكلت واسترحت إلى قريب من ساعة الغروب ثم بدأت

ألبس ملابسي من تحتانية وفوقانية وشعرت بوقع خطوات فطومة خارج الباب . ولست أدري ما الذي جعلها تأتي إليّ في تلك الساعة وأنا في ملابسي الأنيقة ، فقد خجلت من الظهور بها أمامها .

ولما رأتني الفتاة وقفت أمامي تحملق في وجهي مندهشة ثم شهقت وضربت صدرها بيدها واندفعت نحوي تطوق عنقي بذراعيها قائلة : مبروك !

ولم أعرف كيف أرد هذه التحية العنيفة وتمنيت لو كنت تذكرتها لأشتري لها هدية تفرح بها وخطر لي بعد لحظة أن أهديها أحد المناديل الحريرية التي اشتريتها فأخرجته من ربطته وقلت لها كاذباً : هذا المنديل هدية اشتريتها لك يا فطومة .

فسحت يديها في ثيابها وأخذت المنديل وهي تصيح في فرح قائلة : الله !

وجعلت تنظر إلى المنديل بعد أن نشرته أمام عينيها وأخذت تصيح في فرحة عظيمة « الله يخليك ياسيد أفندي ». ونفضته وثنته ونظرت إلى ألوانه معجبة ثم جعلته حول كتفيها وأمسكت طرفيه بيدها فوق صدرها وتمايلت في تأنق إلى اليمين والشمال وهي تضحك قائلة : ألست أعجبك هكذا ؟ .

وأخذت تسير متمايلة في الغرفة في زهو ، ثم رفعت المنديل وشمت رائحته وقالت في دهشة : الله !

رائحة الست هدى ! ألا تعرفها ؟

ولم أعرف من هي الست هدى لأن فطومة كانت تغمرني في

أحاديثها بأسماء لا حصر لها . ووددت لو انصرفت عنى حتى أستعد للخروج ولكنى لم أجرؤ أن أطلب منها أن تخرج .

واقتربت منى وجعلت تفحص ثيابى قائلة :

ـ أين تذهب الليلة ؟

فقلت بغير اهتمام : إلى حفلة .

فقالت فى دفعه : فيها ستات ؟

فأشرت برأسى : نعم .

وقلت لأصرفها : أريد أن أتم استعدادى للنزول يا فطومة .

فقالت فى شىء من الحنق : طبعاً ! حفلة ستات . وتريد أن أذهب من عندك .

ووضعت المنديل على أنفها وشمته قائلة :

ـ هى هى الرائحة . هى الأخرى تذهب إلى الحفلات ولكنها لا تريد أن تأخذنى . أتدرى لماذا ؟

ونظرت إلى فى خبث ثم ضحكت ضحكة طويلة وهمست :

« تقول لى إنى ما زلت صغيرة الآن » .

وتقدمت منى مرة أخرى وجعلت تبدى إعجابها بلون رباط رقبتى بعبارات ساذجة وقالت :

ـ حتى السنما لا أذهب إليها لأن أبى لا يرضى .

أتدرى لماذا ؟

وهمست مرة أخرى : لأنى صغيرة وهو لا يريد أن أرى الروايات التى تعلم الحب .

وضحكت ضحكة طويلة أخرى .

وتعلقت بذراعى فجأة وهى تقول : خذنى معك يا سيد أفندى . سأضع المنديل هكذا حول كتفى . وسألبس الفستان الجديد . بجنيه المتر الواحد . اشتراه لى شهاب أفندى وأراد أن أذهب معه إلى السينما من وراء أبى ولكنى لم أذهب . سأذهب معك ولن يعلم أبى لأنه فى كل ليلة يدخل إلى (المندرة) مع أصحابه ويغلقها . ويمكننى أن أخرج وأعود قبل أن يفتح الباب .

وعادت تضحك ضحكاً طويلا .

واندفعت علىّ فجأة فطوقت عنقى بذراعيها ورفعت وجهها نحوى .

وكانت مفاجأة لم أتوقعها فذهلت ورفعت يدى إلى يديها لأبعدهما برفق ولكنها تمسكت بعنقى ونظرت إلىّ نظرة التجاء قوية التعبير ، فمسحت على رأسها برفق وملت على وجهها المرفوع فقبلت جبينها قائلا :

ــ لا أستطيع أن آخذك هذه المرة يا فطومة ، وأعدك أن أذهب بك إلى السينما فى ليلة أخرى بعد استئذان والدك .

فحلت يديها فى حنق وصرفت وجهها عنى نافرة وهى تقول :

ــ طيب خلاص !

ثم انفلتت مسرعة من الغرفة .

ونظرت خلفها وهى خارجة ولمحت صورتها وهى مطبوعة أمام ضوء القمر الذى يغمر السطح ، ولأول مرة عرفت أن التى كانت أمامى امرأة لا طفلة . كان قوامها وهى تتحرك مسرعة فى غضبها يشبه قوام أنثى من الوحش تنساب فى غابة ، جسم لدن ملىء حسن التقسيم وملامح يفيض

فيها الشباب القوى ودفعة وحشية تمتاز برشاقة تشبه رشاقة النمور فى حركتها .
ولا أدرى كيف أصف شعورى وأنا واقف فى مكانى أنظر فى أعقابها ، فقد كان مزيجاً من العطف والنفور والإعجاب والتقزز مع شعور آخر من إدراك ما فيها من محاسن ومن لوم النفس على أنى لم أتخذ معها موقفاً حاسماً . وارتميت على الكرسى الطويل حائراً حزيناً مضطرباً بين هذه المشاعر المتضاربة لا أدرى ماذا ينبغى لى أن أفعل بعد هذا . فهل أصدمها صراحة وأقول لها أننا لا ينبغى أن نستمر فى هذه المهزلة ، وأننا من عالمين مختلفين لا يستطيعان أن يمتزجا ؟ ولكن أتفهم فطومة قصدى إذا قلت لها مثل هذا القول ؟ وهل يمكن أن نفهم أن تعلقها برقبتى هكذا مهزلة ؟ وكيف يمكننى أن أعرف ما يدور فى أعماق نفسها وهى تتعلق برقبتى ؟

ولست أخفى أننى كنت فى قرارة نفسى اخشى أن أصدمها فإنها كانت بغير شك تدخل كثيراً من الأنس إلى وحدتى . فكيف تكون الحياة فى هذه الغرفة الحقيرة بغير فطومة التى تحمل إلى إفطارى وتثرثر لى وتغنى وتجمع ملابسى إذا اتسخت وتعود بها إلى نظيفة مكوية وتنظم لى حجرتى فى عناية وذوق حتى أصبحت لا أحس بأنى غريب عن بيتى . ثم هى فوق ذلك تبعث إلى وحدتى شيئاً آخر أخفى من كل هذا على إدراك العقل فإنها كانت تؤنسنى بشخصها . ألم أكن حقاً أشجعها على التعلق بى وإن كنت لا أفطن إلى أنى أشجعها ؟ ألم أكن أبتسم لها كلما جاءت إلى غرفتى وأحييها وأعطيها شيئاً من النقود بين حين وآخر ؟

وانتقل بى هذا التفكير المضطرب إلى محاسبة نفسى وتشديد اللوم عليها وانتهى ذلك إلى عزمى المؤكد على الانتقال من البيت حتى لا أدع لها ولا

لنفسى فرصة أخرى لمثل هذا الموقف المحفوف بالمخاطر لها ولى أيضاً .
ونظرت إلى ساعتى فوجدت أن موعدى مع سائق السيارة قد فات فقمت مسرعاً وقفزت على السلالم القريبة من مدخل شقة فطومة حتى لا ترانى . ولما بلغت الشارع كان المصورون وسائق العربة قلقين فى انتظارى عند مدخل الحارة الضيقة وهم لا يعرفون أين منزلى. وفى لحظات كنا فى الطريق إلى مصر الجديدة . وما زلت فى أثناء السير أحس فى أعماقى حزناً غامضاً وأجادل نفسى فى موقفى من فطومة ، ولهذا لم أشعر بطول الطريق حتى وقفت العربة ووجدت نفسى أمام قصر السيد الوجيه حسام الدين . فنزلت وأقبل خدم القصر نحوى وانحنوا لتحيتى ورددت على التحية متنازلا كما يفعل العظماء. واتجهت داخلا ولكنى ما كدت أرى المنظر الذى أمامى حتى تسمرت فى مكانى وسألت نفسى أين أنا ؟ هل أنا فى مصر الجديدة أم فى مصر القرون الوسطى ؟ ومن أى سوق اشتريت هذه الجوارى الحسان الواقفات فى صفين على مدخل القصر المنيف .

نعم كان أمامى صفان من فتيات يلبسن ثياباً حريرية من طراز الف ليلة وليلة تبدى محاسنهن وتصف أجسامهن وتظهر لين قدودهن . ولست أستطيع أن أصف ما اعترانى عند ذلك من الشعور . لم يكن شعورى كما ينتظر سروراً بالمنظر الرائع ولا افتتاناً بالحسن البارع بل شعرت بغصة فى حلقى وثورة فى قلبى وكدت أصيح بالذين رأيتهم أمامى قائلا : ما هذا ؟ ما هذا التجنى على الإنسانية ؟ ما هذا الامتهان للآدمين ؟ هل عادت لنا عهود الرق التى كانت المرأة تشترى فيها لتكون متعة للعين أو لعبة للهو ؟ ولولا أنى كنت موفداً من « بريد الأحرار » لأؤدى وظيفتى الصحفية

لوقفت حيث كنت والقيت محاضرة فى كرامة الإنسان . ولكنى تمالكت نفسى ودخلت بين صفى الفتيات كما يدخل المقاتل إلى ميدان حرب وقلبه مفعم بالقتال. ولم تطاوعنى نفسى أن أنظر إلى يمينى أو يسارى فاتجهت بعينى إلى الأرض وكانت الأرض مفروشة بممشى من السجاجيد الفاخرة التى تزرى بألوان الأزهار فى أحواض الحديقة المحيطة من الجانبين ، وكانت الأنوار الملونة على جانبى الممشى تخلع على الزهر بهاء فوق بهاء الربيع والأنوار الساطعة فى القصر تنادى من بعيد بالعظمة والأبهة . وسمعت من خلفى نداء هامساً فالتفت فإذا هو مصور يستلفت نظرى إلى صفى الفتيات ويطلب أمرى أن يأخذ لهما صورة . فقلت له فى اختصار « خذ أنت وأصحابك ما تشاءون فأنتم أخبر منى بما ينبغى » .

وتركتهم خلفى وسرت متجهاً إلى القصر . فصعدت على السلم الرخامى الواسع حتى إذا ما بلغت البهو كنت فى جهد شديد أريد أن أستريح كأننى كنت فى رحلة شاقة طويلة ، فما كدت أدخل حتى عمدت إلى ركن من الأركان البعيدة وتهالكت على مقعد ووضعت ساقاً على أخرى واستندت إلى الظهر وأخذت أرقب من هناك من يدخلون من الباب ورأسى مشتعل بما يشبه الحمى .

وكان المرح يشيع فى الجو الدافىء ، والحسان الكثيرات يقلبن أبصارهن فى الحضور من وراء أكتاف الرجال الجالسين حولهن ، ويوزعن البسمات الفاتنة هنا وهناك .

ورأيت حسناء تجلس وحدها فى ركن قريب منى وتشعل سيجارة وتضع ساقاً على الأخرى كما فعلت أنا ، ولست أدرى ماذا جعلنى أبتسم

من تلك الحركة التافهة . فحسبت الحسناء أننى ابتسم لها فردت بابتسامة عاطفة . وجاء صاحب الدار الشاب عند ذلك فحياها وتحدث معها بكلمتين فى رقة ثم أقبل على يحيينى ، ولما عرف أنى مندوب « بريد الأحرار » رحب بى ترحيباً كريماً ودعانى إلى استقبال الأمير فقمت معه وبدأت أتعرف إلى بعض الوجوه المزدحمة قريباً من مدخل البهو . وكان هناك صحفى عرفته ذات يوم فى دار النقابة وهو شاب يمتاز بشخصية عجيبة استرعت نظرى منذ أول جلسة . ولما رآنى أسرع نحوى وصافحنى ووقف إلى جنبى والظاهر أنه استأنس بى عند ما رآنى كما استأنست به لأننا كنا غريبان هناك . وأخذ الأستاذ عطية يحدثنى أحاديث لاذعة عن الواقفين حولنا فى همسات عالية شعرت منها بجرح شديد. وأشار فى أثناء حديثه إلى الحسناء السمراء التى بادلتها الابتسام عن غير قصد وأخذ يحدثنى عنها قائلا :

ـ أتعرف من هذه الفاتنة ؟

فقلت :

ـ لم أرها إلا فى هذه الساعة ولكنا تبادلنا الابتسام .

فضحك ضحكة عالية ثم قال بهمسته العالية :

ـ حاذر يا صديقى فإنها جبارة . هى الست هدى العبقرية.

وكدت أصيح عندما سمعت اسمها . وتذكرت اسم السيدة التى تحدثت عنها فطومة . واستمر الأستاذ عطية يقول : هى تجمع فى شخصها عالماً كاملا : صحفية وتاجرة وسياسية وموردة للجيوش وواسطة خير فى كل شىء وغير ذلك ما يخطر وما لا يخطر على بالك . ثم هى بعد ذلك صاحبة صالون

مدهش للكبار من المصريين والأجانب ولكل من له موهبة من الشباب من الجنسين .

وضحك ضحكة عالية أخرى .

فقلت فى فضول : وأين تسكن ؟

فنظر إلىّ فى خبث وقال : هكذا سريعاً ؟ هى تسكن فى كل القاهرة. لها بيوت فى كل الأحياء من السيدة إلى بولاق ومن جاردن سيتى إلى مصر الجديدة .

وحدثت حركة فى المستقبلين عند ما جاء الأمير وتسابق من هناك إلى التقدم بين يديه فوقفت فى مكانى وجعلت أقرأ الحركات من بعيد . وكان الأمير شاباً أسمر الوجه وسيما تبدو عليه علائم الفتوة وكانت تحياته تجمع بين التعطف والتحفظ ، واتجه فى حلقة مستقبليه إلى مكان الصدر وابتدأت بعد قليل مراسم الحفلة .

وأخذت أجمع فى وعيي كل ما تقع عليه عينى . الحسان يتهافتن على الأمير كأنهن الفراشات يتدافعن نحو الأنوار وسارع بعضهن إلى خدمة الضيوف فى المقصف وهن شبه عاريات . فما هذه الملابس التى لا تستر ألاما دون الأكتاف ، وكانت تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها نساء فى هذا الزى بعينى . أنها ملابس تكشف عن مفاتن الجسم وإن كانت تدعى أنها تسترها . وقدمت كؤوس الشمبانيا فكانت تتلألأ فى أيديهن وتباهى خواتيم الماس التى فى أصابعهن .

وأقبل الأستاذ عطية على المقصف متعطشاً إلى الشرب وإلى التمتع بالمنظر البديع ، فبقيت وحدى أحاول أن أتناول ما أعرفه من الأصناف

وهو قليل إلى جانب ما لا أعرف . وبعد أن لعب الشراب فى الرؤوس بدأ دور الموسيقى وذهب الراقصون اثنين اثنين إلى المرتع الصقيل الذى يتوسط البهو الفسيح ، فذهبت إلى ركنى الأول الذى كنت فيه وجلست واضعاً ساقاً على أخرى ، وجاءت السيدة السمراء ذات العينين الواسعتين اللامعتين تتأبط رجلا أنيقاً . . . أهو السيد أحمد جلال حقاً أم تخدعنى عينى ؟ وماذا يصنع هنا ؟ وتذكرت فى تلك اللحظة أنه أصبح نائب دمنهور وأنه لا ينبغى له أن يغيب عن تلك الحفلة التى تحتوى كل العظماء . . . وجلس معها فى ركن قريب يتفرجان على الراقصين ويميل إلى صاحبته بين حين وآخر هامساً ثم تنطلق منهما ضحكة مرحة .

وهم بنفسى أن أمر أمامه حتى يرانى ووددت لو أمكننى أن أسلم عليه وأرى كيف يستقبلنى ولكنى لم أفعل ، وبقيت فى مكانى أقرأ الوجوه والحركات . وتدافع الراقصون فى رشاقة وهم يتناظرون بلحاظ وانية ، وكانت ملابس النساء تلمع تحت الأنوار كأنها قوس قزح ، والوجوه الحسان السابحة فوق المرتع تبرق بالأدهان والألوان من فوق أكتاف الفرسان الذين يخاصرونهن ، ويجلن عيونهن النجل فى الآخرين والأخريات يفحصن أيهن وأيهم أبهى رونقاً . وكانت الظهور البضة العارية تتمم محاسن النحور الغضة السافرة ، وأطراف الملابس الزاهية تتطلع نحو الصدور المرمرية كأنها تعجب من بعيد بمحاسنها . وتذكرت فطومة وضحكت فى سرى وأنا أقول لنفسى « ماذا كانت تصنع لو كانت هنا ؟ »

وكان المصورون فى شغل جاد يلتقطون المناظر وأنا ساكن فى مكانى فرأيت الأستاذ عطية يتجه إلى السيدة السمراء الجالسة مع السيد أحمد جلال

ويطلب منها فى ظرف أن تقوم لمراقصته . فقامت تراقصه بعد أن نظرت إلى السيد كأنها تستأذنه بابتسامة أنيقة .

وكانت الساعة عند ذلك الحادية عشرة وجاء المصورون ليقولوا إنهم قد فرغوا من التصوير، فشعرت بارتياح إلى أنى أستطيع أن أخرج من الحفلة وقمت معهم خارجاً بغير أن أحاول أن أستأذن السيد الوجيه صاحب الدار .

وتعمدت فى خروجى أن أقترب من السيد أحمد جلال وأمر من أمامه ، والتفت نحوه كأننى التفت عفواً ثم أظهرت دهشتى من رؤيته هناك كأننى رأيته فجأة ، ومددت يدى إليه لأحييه ولا أستطيع أن أصف دهشته عندما رآنى أمامه ، فإنه قام مرتبكاً وحيانى مرحباً تحية صديق عزيز قديم ودعانى إلى الجلوس معه ولكنى اعتذرت وحييته منصرفاً برأس مرفوع . وداخلنى زهو عظيم وسرور فيه كثير من الخبث عند ما رأيت أمارات الدهشة والارتباك التى بدت على وجهه عند انصرافى .

ولما وصلت إلى العربة ارتميت على مقعدى كأنى خارج من صراع عنيف وبقى رأسى يدور بما فيه من الصور حتى وصلت إلى « بريد الأحرار » ودخلت إلى مكتبى وأخذت أكتب وصف الاحتفال .

ولت أدرى بأى أسلوب كتبت ولا ماذا كتبت ولم يكن الأستاذ على مختار هناك ولكنه ترك أمراً بإعداد وصف الحفلة للنشر فى الصفحة الأولى. وبقيت فى مكتبى حتى قرأت البروفة وخرجت ذاهباً إلى منزلى وكان الإعياء النفسى والذهنى قد بلغ منى مبلغاً عظيما فما كدت أخلع ملابسى وأرقد على سريرى حتى غبت فى النوم فلم أشعر بشىء حتى ضحى اليوم التالى .

١٧

نزلت متأخراً فى الصباح التالى من أثر السهر فى الليلة السابقة ، فلما وصلت إلى دكان الشيخ مصطفى كانت الساعة تقترب من الظهر . وحيانى الشيخ قائلا :

ـ ألف مرحباً .

وكانت الألسنة منذ حين تلوك قصة الوزير الذى يستقبل قاصديه بعدد من المرحبات وهو يقصد الجنيهات التى يطلبها منهم لقاء قضاء حاجاتهم

فقلت ضاحكا : لا أستطيع والله يا شيخ مصطفى .

فقال لى مقهقهاً : لا تخف يا سيد أفندى فأنا أعرف أنك لا تحتمل عشر مرحبات . وعلى فكرة أرجو أن تدفع لى المرحبا التى عندك فقد كسروا صندوقين من (الكوكا كولا) .

ولاحظت عند ذلك أن أمام الدكان عدداً من الزجاجات المحطمة .

فقلت : ما هذا ؟

فقال : الحمد لله يا سيد أفندى خلصت منهم بجلدى . يا حفيظ يا رب . تقول ألفين تقول عشرة آلاف . ولا بد من تكسير « بريد الأحرار » .

فصحت فى فزع : من هم ؟

فقال الشيخ : غيلان ! مجانين ! أعوذ بالله يا أستاذ سيد . أخذوا كل

الأرغفة وشربوا الكوكاكولا وكسروا زجاجها ولكن الحمد لله . كم شباك من بريد الأحرار وهتفوا بسقوط الخائن على مختار وانصرفوا .

ولكن مالى أنا ؟

وأسرعت ذاهباً إلى الجريدة لأرى ما أصابها ولم يكن بها سوى آثار تحطيم قليل ، فذهبت إلى مكتب الأستاذ على مختار لأعرف منه ما حدث وكان ظاهر الوجوم يدخن سيجارته صامتاً .

وبدأنى قائلا : أتعرف ماذا حدث !

وكنت أتوقع أن يحدثنى عن المظاهرة فقلت فى دفعة :

ــ هذا إعلان إفلاس من الحكومة . هى لعبة قديمة أصبحت مرذولة.

فأشار بيده إشارة استخفاف قائلا :

ــ تقصد المظاهرة ؟ هذا عبث لا يهمنى . بعض صيحات وبعض ألواح من الزجاج وبعض مضايقات صغيرة . ولكنهم صادروا العدد . ألف جنيه خسارة على الأقل . مائة ألف نسخة كل نسخة بقرش .

وتبسم فى مرارة وهو مستمر فى حديثه :

ــ ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد . وأنا آسف يا سيد افندى لأنك تأبى ألا أن تكتب بإمضائك . كان يمكننى أن أتحمل المسئولية وحدى وأحميك أنت لو كنت تكتب بغير إمضاء أو باسم مستعار كما نصحتك . فأنت مطلوب معى للنيابة فى الساعة الثانية بعد الظهر .

ونظر إلى ساعته قائلا :

ــ أوه ؛ قم بنا فإن الموعد قد جاء .

وقام عن مكتبه لنذهب إلى دار نيابة الصحافة ، وأنا شاعر فى قرارة

نفسي أنني المسئول عن كل هذه المتاعب . ومما زاد ضيقي أنني كنت عازماً على السفر إلى دمنهور في المساء بعد انقطاعي عن أهلي كل هذه الأشهر . ووقفت بنا العربة آخر الأمر أمام دار نيابة الصحافة ونزل الأستاذ على مختار ونزلت وراءه حتى دخلنا إلى مكتب السكرتير وكان مزدحماً بالجالسين فذهب الأستاذ على إلى الجالس على المكتب وهمس له بكلمات .

فهز الشاب رأسه وتلفت حوله في فتور ثم قام ودخل إلى مكتب محقق النيابة فبقي فيه حيناً ثم عاد إلى الأستاذ فدعاه للدخول .

وبقيت وحدي أتلفت حولي إلى وجوه الجالسين وكانوا أخلاطاً لا أعرف منهم وجهاً . وتطلعت نحوي عيون كثيرة تفحصني وكنت في ملابسي القديمة فخشيت أن تحتقرني الأنظار . فرفعت رأسي وسرت في هدوء واستعلاء نحو النافذة القريبة فاتكأت عليها وأشعلت لفافة من صندوق السجائر الفاخر الذي اشتريته بالأمس وجعلت أنفخ دخانها وأنا أدير بصري في الغرفة ثابتاً .

ولم يطل بقائي هناك ثم رن الجرس وقام السكرتير مسرعاً إلى غرفة المحقق وهو المدعي العام نظراً لخطورة التهمة .

ثم خرج بعد قليل ونادى باسمي . فألقيت عقب السجارة على الأرض ودستها بقدمي في شيء من التحدي وسرت نحو الغرفة رافعاً رأسي ، حتى دفع السكرتير الباب بيده ونقر عليه بأصبعه مستأذناً فدخلت بغير أن ألتفت إليه . ووجدت نفسي في غرفة صغيرة ليس فيها سوى كرسي كبير من الجلد يجلس عليه الأستاذ على مختار وكرسي آخر يجلس عليه كاتب النيابة .

فالتفت حولى لفتة توحى بأنى أبحث عن كرسى لأجلس عليه فقال المحقق هادئاً :

ـ لا مؤاخذة فإن المقاعد قليلة ؛ ولن نحتاج إلى وقت طويل .

وأخذ يقلب فى ملف الأوراق التى أمامه على المكتب ، وكاد الغضب يدفعنى إلى أن أحتج لولا أن الأستاذ على مختار نظر إلىّ باسماً وأشار إلى جانب كرسيه الجلدى لأجلس عليه . فوجدتها فرصة لإظهار ما فى نفسى من التحدى وجلست على طرف ذراع الكرسى ووضعت ساقاً على أخرى .

ولم يخف عنى ما داخل المدعى العام من الامتعاض فشعرت بارتياح جعلنى أنتظر هادئاً .

وسألنى قائلا بعد المقدمات المعروفة :

ـ ماذا تقصد بقولك « هذا العهد التعس ؟ »

فقلت فى فتور :

ـ لست أفهم أولا ما هى تهمتى . ما هو الموضوع الذى جئت من أجله ؟ وأى مقال هذا الذى تشير إليه ؟ وهل تقصد مقالا أم تقصد كلمة قلتها فى الطريق ؟

فقال فى شىء من الامتعاض :

ـ طبعاً هنا نيابة الصحافة . وهذا مقالك الذى كتبته بالأمس .

فقلت فى دفعة : هذا كلام بسيط واضح ليس فيه غموض . أقصد هذا العهد التعس الذى نعيش فيه اليوم . هذا العهد الذى أهدرت فيه القيم الإنسانية وكل الأقداس القومية وكل أصول الحكم المستقيمة ؛ حتى بلغ الأمر إلى ما نراه كل يوم ونسمعه كل يوم ، وحتى أصبح الناس

لا يستطيعون أن . . .

وكدت أمضى فى شبه محاضرة عن فساد الأحوال ولكن المدعى العام قاطعنى قائلا :

ــ هذا غير ما أقصد ، فإنى أسألك عما تقصد بكلمة العهد ، فإن العادة أن تستعمل كلمة العهد إذا قصد الملك .

وكانت صدمة شديدة ذكرتنى بالتحقيق الذى بدأ فيه الضابط فى دمنهور ، ولم أملك نفسى من الضحك قائلا :

ــ أهى اللعبة المعروفة ؟

فصاح غاضباً :

ــ أرجو أن تزن ألفاظك يا أستاذ .

فقلت مندفعاً : أظن أنى أعرف كيف أزنها لأنى أقصد ما قلته تماماً : هى لعبة قديمة لأن هذه ليست المرة الأولى التى أسمع فيها مثل هذه القصة . إننا نكتب للقائمين بالحكم ولسنا نقصد من وراء هذا أن نخاطب الملك . الملك لا يحكم كما هو نص الدستور . فماذا يدعوكم إلى تأويل قولى على أنى أقصد الملك ؟ فهل كلمة العهد لا تقال حقاً إلا إذا قصد منها الملك ؟

لو كنا فى بلد تقول فى صراحة إن الملك يحكمها حكماً مطلقاً لكان هذا القول الذى تقوله يا سيدى المحقق معقولا . ولكنا فى بلد يزعم أن له حكومة دستورية مسئولة تعود عليها كل تبعات الحكم إذا كان فاسداً ، الملك يحكم بواسطة وزرائه . ولا يعفى الوزير من المسئولية أن يوجه إليه الملك أمراً كتابياً يخالف القانون . أليس هذا هو الدستور ؟ سلنى إذا

شئت عن البراهين التى تدل على أن هذا العهد تعس حقاً تجد عندى من الأدلة ما يكفى للبرهان على أنه تعس قذر نجس . إن الأولى بالمحاكمة هم هؤلاء الجالسون فى مقاعد الحكم . فلا تحاورنى بالتعريج على ناحية العرش فإنها لعبة قديمة كما قلت .

فضحك المحقق ساخراً وقال :

ـ يظهر أنك قديم العهد بالتحقيق فى معنى كلمة « العهد »

متى كان ذلك التحقيق ؟

فوثبت على قدمى قائلا :

ـ هل دعيت إلى هنا لأسمع سخرية ؟ ما تهمتى حتى أعرف فى أى موضوع تسألنى ؟ أم هو تحقيق غير محدد يشمل كل تحقيق سابق لا علاقة له بالوقت الحاضر ؟ أحب أن تثبت فى هذا المحضر أنى محتج على سؤالى فى موضوع سابق لا تعرف عنه شيئاً إلا من كلمة عارضة قلتها .

ففال فى جمود : لك أن تقول كل ما تحب وهذا الكاتب يثبت كل ما تجيب به . فقل لى الآن ماذا كان موضوع تهمتك الأولى .

فقلت فى تحد : لم توجه إلىّ تهمة .

فقال : ألم تقل إنها لعبة قديمة ، وإن مثل هذه التهمة وجهت إليك من قبل .

فقلت : أقول لك إنه لم توجه إلىّ تهمة ، كانت لعبة أراد بعض خصومى أن يلعبوها فلم ينجحوا . أرادوا أن يهوشوا علىّ بألعوبة العيب فى الذات الملكية ولكن البوليس نفسه لم يجد من مصلحته التورط فى اللعبة فصرف الموضوع بغير أن يعلق عليه أهميته ، حتى إنه لم يكتب لى محضراً . هذا كل شىء .

فاستمر فى جموده وقال : من هو الطاغية الذى يفسد الأخلاق و يهدم تقاليد البلاد .

فشعرت بالخطر ولم أتذكر أنى كتبت شيئاً من هذا فقلت فى دهشة :

ـ أرجوك أن تقرأ لى الفقرة التى تشير إليها .

فأخذ يقرأ فى هدوء :

« وكان أول ما طالعنى منظر هذه الفتيات فى ثيابهن الحريرية الملونة.

فصحت قائلا : هذا مثال لم يظهر لأنه عدد الجريدة صودر .

فقال : ولكنك كتبت هذا أليس كذلك ؟

واستمر فى قراءته : « ألا ما أبدعها من ألوان زاهية مفصلة على قدودهن الرائعة الممتلئة بالحياة . ولكنى لم أتأمل تلك القدود كما لم أتمتع بحسن الوجوه لأنى شغلت عن ذلك بسؤال خطير . فهل انتقلت القاهرة فجأة من القرن العشرين إلى القرون الخالية التى كان فيها الرجل يستطيع أن يشترى غادة هيفاء من السوق المجاورة ؟ هل اشتريت هذه الفتيات كما يشترى البطيخ الحلو أو كما تشترى باقة الأزهار البديعة ؟ إنها لنكسة شديدة أن نعود إلى العصور المظلمة فى هذا العهد التعس الذى هوى به الطغيان إلى حضيض الفساد ، ودنس فيه أسمى ما كسبته الكرامة الإنسانية » ووقف المدعى العام عن القراءة فنظر إلى كأنه يقول إنه صرعنى تحت قدميه .

فقلت فى هدوء : أهذا كل ما هناك ؟

فأجاب متحدياً : ألا يكفيك هذا ؟

فقلت : وأين ذكر الطاغية . لم أذكر سوى الطغيان .

فأجاب قائلا : هذا لا يهم فالجريمة تقع بغير حاجة إلى ذكر الشخص صراحة . العيب فى الذات الملكية هو ذلك الشيء « الذى يمكن أن يمس من قريب أو بعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تصريحاً أو تلميحاً تلك الذات الملكية .

فقهقت قائلا : هذا تعريف بديع يليق أن يكون شركاً لكل صيد كبير أو صغير سواء تكلم أو أشار أو تنفس أو سعل . لا يا سيدى . هذا كلام غير جدير بعقولنا . واسمح لى أن أمتنع عن الإجابة فإنى أراها مهزلة .

وتجهم وجه المحقق حتى حسبته ينفجر غاضباً ولكن فى تلك اللحظة دخل علينا سكرتير المكتب وهمس فى أذنه .

فقام فى شيء من التأفف إلى غرفة مجاورة وأغلق بابها حيناً وبقيت مع الأستاذ على مختار وحدنا فقلت له فى دفعة :

— أنا آسف ياأستاذ على لأنى سببت لك هذه المتاعب . لم أعرف من قبل أن مقالى هو السر فى مصادرة عدد اليوم .

فقال الأستاذ على :

— هى خطة مدبرة لا علاقة لها بمقالك ولا بمقالى . إذا لم يصادر العدد بسببك فإنه يصادر بأى سبب آخر . ألا تذكر أن هذه هى المصادرة الرابعة فى بحر ثلاثة أشهر . ومع ذلك فقد كان القضاء يفرج عن العدد فى كل مرة .

ودخل المحقق فقال :

— مبروك : أفرج عن العدد وأمامنا وقت طويل للاستمرار فى التحقيق .

ولا أستطيع أن أصف الشعور بالخلاص الذى غمرنى فى تلك

اللحظة ، حتى أستطيع السفر إلى دمنهور .

وكان سرور الأستاذ على مختار أشد من سروری وأوضح ، فما كدنا نصافح المحقق ونخرج من الغرفة حتى أمسك بذراعى وضمها إليه ونحن سائران قائلا : لن تبقى فى السوق نسخة واحدة من عدد اليوم بعد هذه المصادرة المؤقتة .

فقلت : وأظنك تسمح لى بالسفر إلى دمنهور لقضاء يومين مكافأة لى على هذا .

فقال ضاحكاً : هذا غير ممكن . علينا أن نستفيد من كل الظروف التى تتهيأ لنا . غداً صباحاً سيظهر مقال من أعنف مقالاتك فى مهاجمة الجبناء الذين يتدارون وراء العرش ليستروا فساد حكمهم .

واضطررت أن أستأذنه قبل أن تغلق أبواب مكاتب البريد لأرسال حوالة بريدية إلى صديقى عبد الحميد عياد لكى يوصلها إلى أمى كما أفعل دائماً فى أول كل شهر .

١٨

مضى علىّ أسبوع وأنا لا أكاد أفيق لنفسى من غمرة العمل ، وكنت لا أكاد أجد فراغاً إلا فى ساعة الظهر لاخطف لقمة صغيرة حيث أكون.

وذهبت فى ساعة الظهر فى أحد الأيام إلى دكان الشيخ مصطفى حسنين لاشترى غدائى فسمعته يبادرنى قائلا :

– البقية فى حياتك يا سيد أفندى .

فقلت فى لهفة : ماذا حدث ؟

فقال : ألست من دمنهور ؟ السيد أحمد جلال : تعيش أنت !

وكنت لم أقرأ صحف الصباح من كثرة مشاغلى فأخذت « الأهرام » التى مد الشيخ بها يده وأخذت أقرأ :

« جاءنا من مراسلنا فى دمنهور أن المدينة روعت على غير انتظار فى ساعة متأخرة من الليلة الماضية بوفاة محسنها الكبير وزعيمها الوطنى العظيم السيد أحمد جلال ! !

وتخاذلت قوتى فجلست على الدكة وأنا ذاهل أعيد قراءة الخبر مرة بعد مرة كأنى لا أصدق عينى . أما كان فى تمام صحته وقوته فى ليلة الاحتفال بدار السيد الوجيه جمال الدين منذ أسبوع ؟ .

وكنت كلما قرأت الخبر مرة قلت فى تأثر : لا حول ولا قوة إلا بالله إنا لله وإنا إليه راجعون .

ولو كنت فقدت أعز الناس عندى لما شعرت بهزة أشد من الهزة التى شعرت بها عند ذلك ، وامترج فى قلبى الأسف والرثاء والحزن والدهشة فى وقت واحد . وغلبتنى عينى فجعلتنى لا أبصر من وراء غلاف الدمع ، وسبحت فى تأمل الحياة فى خشوع العاجز الذى يظهر له عجزه على حين فجأة وهو ساه عن الحقيقة الخالدة فى ضجة الحياة الزائلة . إنها دنيا صغيرة فيها أشباح تأتى صورها وتذهب فوق سحابة ولكننا معشر الفانين نحسبها حقائق ثابتة .

ونادانى الشيخ قائلا : أتعرفه ؟

فقلت فى صوت خافت : كان له فضل عظيم علىّ ولكن الظروف قطعت بيننا ولم تطل به الأيام حتى أستطيع أن أوفى له دينى .

مات وما زال دينه باقياً فى عنقى .

وهز الرجل رأسه متأثراً وقال :

— البقية فى حياتك يا سيد أفندى . دنيا زائلة . دنيا فانية . هل ترك أولاداً .

فقلت : فتاة وحيدة .

وخفق قلبى خفقاناً شديداً وأنا أتصور حزن منى الشديد فى وحدتها .

فقال : أكان مريضاً .

فقلت : رأيته فى أتم صحة منذ أسبوع .

فهز رأسه مرة أخرى قائلا : آجال يا سيد أفندى .

ولم أسمع ما قاله بعد ذلك لأنى انصرفت إلى أفكارى الحزينة وإلى منى .

وقمت مسرعاً بغير أن ألتفت ورائى وذهبت إلى دار الجريدة فكتبت ورقة وسلمتها للبواب ليوصلها للأستاذ على مختار إذا عاد فى المساء وذهبت من ساعتى إلى المحطة لأسافر فى أول قطار أجده على الرصيف . وكان من حسن حظى أن وجدت قطاراً يقوم بعد ربع ساعة . وكنت طوال الطريق غارقاً فى حديث داخلى مستمر . أين دمنهور وما للقطار يسير بطيئاً ؟ هكذا الدنيا تمضى سريعة بنا ونحن نستبطئ الأيام والليالى والشهور . والقطار يسير دائماً إلى الأمام لا يرجع إلى الوراء خطوة ويقطع الطريق شبراً شبراً حتى يجمع الأميال بعد الأميال لكى يصل أخيراً إلى دمنهور — إلى الغاية الأخيرة كما تفعل بنا الحياة . هكذا بلغ السيد أحمد نهاية الطريق .

الانتخابات والسرادقات والمظاهرات ومصطفى عجوة وحمادة الأصفر وكل ذلك ينتهى فى لحظة . ووقف القطار فى طنطا وبدأ الناس ينزلون ويصعد غيرهم إلى العربة . كل هؤلاء يجتمعون ويتحادثون ويتجادلون ثم يهبطون من القطار لكى يستقبل القطار طائفة أخرى غيرهم حتى ينزل الجميع آخر الأمر إذا جاءت النهاية . وتذكرت يوم سافرت إلى القاهرة أول مرة ورأيت راكبين يتعاركان . هل هناك أحمق من راكب فى قطار يعارك جيرانه ؟ إنه لن يلبث أن يتركهم أو يتركوه !

وكانت عودتى إلى منزلى مفاجأة . وبكت منيرة عند ما رأتنى وأما أمى فقد ضمتنى إلى صدرها وقالت فى حزن :

– طبعاً عرفت المصيبة الكبرى . مسكينة منى !

ووثب قلبى عند ما سمعت اسمها وقلت :

– هل ذهبت للعزاء ؟

فقالت : طبعاً يا بنى . من كان يحسب أنه يموت هكذا ؟ وماذا أخذ المسكين معه ؟ إنها قسمة يا ابنى ، ومنى المسكينة ! تكاد تقتل نفسها من البكاء ، لو أنصفت الدنيا لكانت منى من نصيبك يا بنى .

يا ليتها لم تكن غنية . منى الجميلة الوديعة ! مسكينة .

وكدت أصيح « ما الخبر ؟ » ولكنى داريت لهفتى قائلا :

– وهل هى أول فتاة مات أبوها ؟

فخفضت أمى صوتها قائلة :

– كفانا الله الشر يا ابنى وكفانا شماتة الأعداء . لا أحب أن أعيد ما قيل لأنه فظيع وربنا يستر أعراض الناس

فوثب قلبي إلى حلقي وأردت أن أسأل أمي عن قصدها فلم أقدر على النطق واستمرت أمي تقول :

ـ الموت محتوم علينا جميعاً ولكن الفضيحة يا ولدى . إنها مصيبة . تصور يا ولدى أن امرأة لا قيمة لها تقتل الرجل ، نعم امرأة حقيرة قتلته لأنها ملأت المدينة بالفضيحة . والأدهى من ذلك أن يقوم رجل لا قيمة له أيضاً ويقلب المدينة من فوقها إلى تحتها بالتشنيع على السيد أحمد المسكين . أتعرف حمادة الأصفر ؟

فقلت فى حنق : لست أفهم ماذا تقصدين يا أمى بكل هذا ، لأنى لم أسمع بشيء عن السيد أحمد جلال سوى أنه مات. ما هذه الفضيحة ومن هي المرأة التى قتلته وما دخل حمادة الأصفر فى هذا ؟

فقالت أمى : من يصدق أن السيد أحمد جلال يتزوج بامرأة حقيرة؟ ومن يصدق أنها ولدت منه ولداً مع أنه كان مستعداً للتصدق بنصف ماله إذا ولدت له زوجته ولداً . ذهبت المرأة فى كل أنحاء المدينة تعيد هذا القول لتفضحه . وقام حمادة الأصفر معها يساعدها ورفع لها قضية فى المحاكم . مسكين السيد أحمد جلال . بعد ثلاثة أيام من هذه الفضيحة رقد السيد أحمد مريضاً ومات فى ليلة واحدة — أيصدق أحد هذا ؟

فقلت فى هدوء : ولم لا ؟

فقالت فى لوم : أنت أيضاً تقول هذا ؟

فقلت : لست أقول هذا وليس الأمر متوقفاً على قولى ، المهم هو هل هذه المرأة زوجته ؟ هل عندها وثيقة زواج ؟ هذا هو المهم .

فصاحت أمى : ما هذا الكلام يا ابنى ؟ لا يمكن ! لا يمكن أبداً .

أتقول كما يقول الناس يا سيد ؟ عيب يا ولدى . هل كان السيد أحمد مختل العقل حتى يتزوج امرأة مثلها . إنها مصيبة ! وتقول مع هذا أن المهم هو الوثيقة ؟

وسبحت فى تأمل هذه الأقوال صامتاً وأمى تتحدث فى صوت غاضب حزين بأقوال لم ألق انتباهاً إليها .

كنت أسأل نفسى من تكون هذه المرأة وما هو ذلك الولد ؟ وهل هو حمادة الأصفر يظهر مرة أخرى بإحدى ألاعيبه الخبيثة ؟ أتكون هى المرأة التى حدثنى عنها من قبل فى هذيانه — زينب الشقراء أو السمراء ؟ وما السر فى أنها لم تبدأ فضيحتها إلا فى هذه الأيام مع أن علاقته بها إن كانت صحيحة تبدأ منذ سنوات ؟ وكانت صورة منى دائماً أمامى حزينة تبكى وتشعر بالذلة

وتنبهت بعد حين إلى صوت أمى وهى تدعونى إلى العشاء فقمت فاتراً مستسلماً وذهبت لأغسل رأسى من تراب السفر ، وأكلت شيئاً خفيفاً حتى لا أظهر مبلغ اضطرابى واهتمامى ثم قمت لأذهب إلى دار السيد أحمد المسكين لأؤدى واجبى فى العزاء .

وكان فى فناء المحلج سرادق كبير فى المكان الذى كان فيه السرادق الضخم فى آخر ليلة ذهبت فيها إلى المحلج فى أيام الانتخاب . فدخلت بنفس جياشة أسير على مهلى حتى جلست فى أقرب مكان من السرادق . وأقبل مصطفى عجوة مسرعاً نحوى وحيانى شاكراً كأنه صاحب (المعزى) وجلس إلى جانبى يهمس لى بعبارات المجاملة المعتادة واجبته بالعبارات

المألوفة فى الرد عليها .

ومال علىّ قائلا : أتحب أن تصعد إلى الدار للعزاء ؟

فشعرت له بما يشبه الشكر وقلت :

ــ إذا كان ذلك ممكناً .

فقام آخذاً بيدى حتى بلغنا الطبقة العليا وتقدمنى إلى رأس السلم وصفق للخادم وهمس لها بكلمات قليلة . وبعد لحظة جاءت السيدة نور فى ملابس الحداد وكنت لم أرها منذ أشهر طويلة ، فما وقعت عينها علىّ حتى أجهشت بالبكاء ، فاختنق صوتى برغمى ولم أستطع أن أنطق . واستغرقت السيدة فى البكاء حتى اتكأت على حاجز السلم ووضعت منديلها على عينيها مفحومة . . فاقتربت منها قائلا :

ــ تجلدى يا سيدتى .

فقالت : أشكرك يا سيد أفندى ، وأرجو أن أراك قبل عودتك إلى القاهرة . نحن هنا وحدنا وأنت مثل ولدى .

فقلت متأثراً : هو مصابنا جميعاً وأنا تحت أمرك فى كل وقت .

ولما مدت يدها إلىّ انحنيت عليها لأقبلها ولكنها سحبتها قائلة :

ــ الله يبارك فيك يا ابنى .

وعدت إلى أسفل الدار وقد ملأنى شعور المواساة والعطف ، كما أرضيت كبريائى بأننى قد أصبحت موضع الأمل عند السيدة أم منى ، ولما عدت إلى السرادق ذهبت أسير بين صفوف المعزين لأحييهم شاكراً لهم سعيهم وأخذت مجلسى على مقربة من الباب لاتلقى العزاء عند خروج المعزيين

كأنى أحد أفراد الأسرة ومال علىّ مصطفى هامساً :

ـ لا شك أنك سمعت بكل شىء لأن هذه البلدة مثل القدر تغلى وتفور بما فيها ، وأهلها مثل السمك يأكل بعضه بعضاً . سمعت حكاية المرأة طبعاً والله يرحم الرجل الطيب . الشاهد يا سيد أفندى لو كان أطاعنى من أول الأمر لأعطى حمادة الأصفر كل ما أراد . كان لا يريد أكثر من مائة جنيه ولو أعطاه السيد ذلك المبلغ لما حدث شىء ولكنه طرده وشتمه فخرج الخبيث يهدد . وأنا أعرف من هو حمادة الأصفر ، تصور أن الرجل الطيب يسىء الظن بى عند ما نصحته بأن يدفع لحمادة مائة جنيه واتهمنى بأنى أريد مشاركته ؟ الله يسامحه ويرحمه ؛ هذه الدنيا مثل أحجار الطاحون تطحن من فوق ومن تحت . النهاية يا سيد أفندى ! فى ليلة واحدة راح الرجل الطيب وترك وراءه الدنيا تخبط تقلب . فماذا يأخذ محمد باشا إذا كانت الست زينب تخرج بأكثر التركة لأبنها المحروس ؟ يا سلام ! فضيحة للسماء وخراب بيوت وربك يستر يا سيد أفندى .

وكانت الساعة عند ذلك قد بلغت العاشرة والنصف وفرغ المقرئ من القراءة وقمنا لأخذ العزاء من الخارجين . وانصرفت بعد قليل معتذراً إلى مصطفى عجوة بأنى ذاهب إلى موعد هام حتى لا يسير معى ، واتجهت نحو شاطىء الترعة لاعيد على نفسى فى هدوء الليل ما سمعت من مصطفى.

وكان البدر ساطعاً فى السماء الصافية والجو دافئاً والشاطئ ساكناً فسرت على مهلى أفكر فى هذه المعركة العنيفة التى تدور فى طى الخفاء

حول جثة رجل لم يمت إلا بالأمس . هذه المرأة تستطيع أن تصبح من أكبر أغنياء المدينة ؛ وهذا الولد الذى لا يدرى أحد من أين جاءت به يستطيع أن يصبح من أعظم السادة فى البلاد ؛ هذه الحقوق القانونية التى توزع بها المقادير الحظوط وهى مغمضة العينين ! من هؤلاء الذين يملكون الألوف من الأفدنة وألوف الألوف من الجنيهات الذهبية ؟ أبناء الإماء الذين يكبرون ليصيروا سادة وينسى الناس أنهم أبناء الإماء، وأبناء اللصوص وقطاع الطرق وأبناء تجار الحشيش وتجار الأعراض وأبناء النساء اللاتى يبعن أجسادهن وأبناء وسطاء الخيانة والدنس ومصاصى الدماء . كل هؤلاء يبسطون سلطانهم على الحياة عند ما يرثون الضياع ويملكون الخزائن . ها هم يريدون أن يزيدوا امرأة ساقطة وولداً دعياً !

والتهب قلبى بهذا التفكير حتى بدا لى أن منى أكبر من أن تكون صاحبة آلاف الأفدنه وآلاف آلاف من الجنيهات . لماذا لا تتجرد من هذه الأموال العفنة وتتركها للمرأة وولدها وتعود هى إنسانة سليمة ؟ لماذا لا تخلع هذه الأدهنة اللزجة التى تجعل الذباب يتساقط عليها ــ محمد خلف وابنه محمود الأبله ؟ لماذا لا تعود إلىّ أنا ونهرب معاً من هذا المستنقع العفن .

وضاق صدرى وأحسست أن الهواء راكد خانق وأن رائحته العطنة تكتم أنفاسى . وعرجت إلى أول طريق يتجه إلى داخل المدينة لأذهب إلى بيتى وفكرت فى التبكير صباحاً لأعود إلى القاهرة تاركاً هذه المعركة السخيفة لأصحابها . وكانت الطريق حارة منحدرة قذرة فيها بعض القهاوى والحانات الحقيرة .

مصابيح بترول خافتة الضوء على الجانبين معلقة فوق المداخل ، وجماعات قليلة مهلهلة الثياب تشرب أكواباً من الشاى الأسود . ولم أدر ما الذى جعلنى أنظر إلى الحانة المظلمة التى عرجت إلى الطريق العام من جانبها وكان فى وسطها مصباح بترول زجاجى وفى صدرها منضدة طويلة عليها بعض زجاجات وأوان مبعثرة . وكان المصباح يلقى ضوءه الخافت على صاحب الحانة اليونانى وهو واضع يديه فى جيبه أمام منضدة صغيرة يجلس عليها حمادة الأصفر .

يا له من فأر قذر يختار الجحر الملائم له . ووجدت نفسى أندفع داخلا كأنى كنت أبحث عنه . وكانت الكأس التى أمامه ما تزال نصف مملوءة من خمر قاتمة اللون . وحملق حمادة فى وجهى لحظة ثم وثب قائماً وهو يترنح ثم فتح ذراعيه وتقدم نحوى يريد أن يأخذنى بينهما وصاح صيحات مختلة لم أفهم ما يريد بها سوى أنها ترحيب مختلط بالأسف والاعتذار .

ورددته فى شيء من التقزز لأنى لم أطق رائحته ، فتراجع عنى وكانت نظرته بلهاء منكسرة بعينين زائغتين وشفتين متدليتين ظهرت من تحتهما أسنانه الصفر (المشرشرة) .

وصاح بصاحب الحانة بلسان معوج :

ـ ماذا عندك يا منولى ؟ مالك واقفاً هكذا كاللوح . ألا تعرف من هذا ؟ أشرف رجل فى دمنهور وأحسن كاتب فى الدنيا .

واتجه نحوى قائلا : تفضل يا سيد بك . تفضل وإن كنت لا

أستحق أن تجلس معى : أنا وغد . أنا حشرة . أنا دون يا سيد بك . لك الحق فى أن تغضب علىّ وأن تقول إنى نذل ووغد وحشرة . قل لى ما تريد فى وجهى فأنا أستحق .

هات الكرسى يا خواجه . نظفه لأنه قذر مثلك ومثلى . ها ها ها . يامنولى يا خواجة الأنذال ، يا خواجة الرعاع .

وجاء منولى بكرسى ومسحه بفوطته ونظر إلىّ مستفهماً .

فجلست وقلت له : لا أريد شيئاً .

فصاح حمادة : أقسم بالله أن تشرب شيئاً ، لا بد أن تشرب ، بشرفى . ها ها ها . أليس عندك غير هذا الروم الزفت يا منولى ؟

ورفع الكأس فأفرغ ما فيها وخبط بها على المنضدة

وذهب الخواجة فانتهزت الفرصة قائلا :

ــ اسمع يا حمادة . أحب أن تسير معى قليلا .

فقام يتطوح معى واتجهت به إلى شاطئ الترعة الخالى وقلت له فى الطريق :

ــ أحب أن تقول لى الحق عن هذه القصة .

ما هى حكاية السيد أحمد جلال ؟

فوقف ممسكاً بذراعى وقال : النذل ؛ الكلب مصطفى عجوة . أحلف لك أنى لطمت على وجهى كالنساء عند ما ذهبت إلى محلج السيد أحمد جلال بعد أن هدمنا السرادق الذى كنت فيه لأن هذا المصطفى أعطانى خمسة جنيهات . أقف بالعصا فى وجهك وأقول لك «يلا من هنا» بخمسة

جنيهات ؟ أنا الوغد ! أنا النذل ! كنت لا أنتظر أقل من مائة جنيه وحلفت بشرفى أن انتقم منه لأجل خاطرك ، وذهبت إلى زينب لأشكو لها ولكنها طردتنى . ماذا أعمل ؟ الصبر طيب يا سيد بك . وصبرت عدة أشهر وأنا ألطم وجهى وألوم نفسى وألعنها . بخمسة جنيهات أقف فى وجهك بالنبوت وأقول لك « يلا من هنا » ؟

وفى يوم من الأيام جاءت زينب إلى وقالت إنها غاضبة على السيد أحمد جلال . نعم ذهب إلى مصر وعضو مجلس نواب وهناك الدنيا الواسعة والحسن والجمال والعظمة . والست هدى المشهورة وأصبحت زينب لا تستحق أن ينظر إليها .

واتفقنا على الانتقام — أنا أنتقم لك وهى تنتقم لنفسها . وأخذت منها ورقة الزواج وأعطتنى نصف جنيه وقلت لنفسى سآخذ منه مائة جنيه . وذهبت بنفسى للسيد أحمد جلال وهددته بالفضيحة . نعم كانت الورقة فى يدى قسيمة زواج صحيحة . زواجه من زينب .

وقلت له إن الورقة معى . ولكنه طردنى كالكلب . وذهبت إلى القهوة ودمى فائر وكان مصطفى هناك . فوضعت الورقة أمام عينه ليقرأها . وأراد اللعين أن يخطفها منى يحسبنى سكران . ولكن قلت له « بعينك » وفى ليلتها احضرنا المأذون يا عم وخطفتها منه . نعم خطفت زينب منه بعد أن رفستنى برجلها من أجله وهى الآن فى يدى أنا — زوجتى ! نهايته مات فى ليلة واحدة ولا طبيب ولا زيطة ولا هيصه . ولكن مصطفى عجوة لم يمت لأنه كالبغل كل يوم يزيد بالقنطار .

ثم سكت عن هذيانه واستند إلى الحائط .

فصحت فى سرى أنطق أيها النذل .

وأردت أن أشجعه على الحديث فقلت : مبروك يا حمادة ! وهى ما تزال معك ؟ زينب ؟

فقال : من ليلتها . فى نفس ليلتها . وهى التى دفعت الجنيه للمأذون وكل يوم ريال يا سيد بك وزينب تقول لى : فى داهيه ! والله لأفضحه . والولد ! ابنه طبعاً »! انتهى يا سيد بك ومهنى أفندى يقول انتهى وصرنا من الأعيان! طلبت منه مائة جنيه فطردنى أما اليوم ولا عشرين ألف جنيه ولا خمسين ألف ولا مائة ألف ! وأخذ يصفق بيديه ويغنى صائحاً . ولا خمسين ألف يا عينى ! ولا مائة ألف يا ليل ! ودار رأسى من اضطراب هذيانه ومن رائحة أنفاسه وذهبت عنه مسرعاً حتى وصلت إلى منزلى وأنا لا أكاد أقدر على التفكير فى شىء . وغسلت وجهى واستنشقت بماء كثير لأذهب رائحة الخمر الرخيصة من خياشمى واستلقيت لأستريح ولكنى لم أستطع النوم لأن شريطاً طويلا من مناظر مختلفة كان يسرع أمام بصرى .

١٩

كان أول ما خطر لى فى الصباح أن أسافر إلى القاهرة وأبعد عن دمنهور وفى دخيلة وعيي أسئلة محيرة كثيرة . ولكنى بقيت متردداً حتى صارت الساعة العاشرة ، وتبدل عزمى إلى ضرورة البقاء حتى أرى خاتمة القصة المحزنة التى يمثلها حمادة الأصفر وشريكته زينب .

ونزلت من البيت على نية الذهاب إلى صديقى عبد الحميد عياد وعرجت فى طريقى على قبر والدى لاقرأ عنده الفاتحة ، ثم مضيت فى سبيلى حتى بلغت مفترق الطريق بين شارع (أبو الريش) والحارة التى تتجه إلى بيت عبد الحميد . ومن العجيب أننى اتجهت بغير تردد إلى بيت المرحوم أحمد جلال كأننى كنت أقصد الذهاب إليه منذ البداية .

ولما دخلت إلى الدار وجدت جوه يبعث الكآبة والحزن ، وقادتنى الخادم إلى غرفة الانتظار وكان أثاثها فخماً وأضواء النوافذ تنعكس على قطع البلور فى ثريات السقف والأركان، ولكن الغرفة كانت مع هذا تبدو مظلمة . كانت التحف الثمينة منكسة على حواملها،والستائر والأبسطة مقلوبة على وجوهها والصورة الكبيرة المعلقة فى الصدر مجللة بالسواد تظهر رب البيت الراحل كأنه هو الحزين . وجلست أتأمل ما حولى وسبحت فى تأمل معنى هذه الحياة وسخف أطماعها ومنافساتها ومصادماتها ، فلم أستيقظ من سبحى إلا على شخص منى يشرق كأنه شعاع نور فى بكرة الصباح . كانت هى بعينيها اللتين تشبهان زرقة البحر الصافى وقامتها الممشوقة بزيدها لبس السواد رشاقة . وقمت لأحييها . فنظرت إلىّ شاكرة وفى عينيها دمعة ، فتجلدت حتى لا أبكى وغمرنى حزن عميق كأنى أنا أيضاً مفجوع بوالدها . ولكنى مع هذا الحزن العميق شعرت كأنى سعيد لأنى رأيت منى على غير انتظار ، ولم أجد كلمة أقولها سوى المجاملة المعتادة :

ــ البقية فى حياتك يا منى .

فقالت بصوت ضعيف : أشكرك يا سيد .

واندفع الدم إلى وجهى أو هكذا خيل إلىّ عندما سمعتها تنادينى باسمى وقلت لها :

ـ علينا أن نتحمل الصدمة يا منى مهما كانت شديدة ، وليس لنا من حيلة إلا أن نتحملها .

فأجابت فى هدوء : أعرف أنه ليس لنا من حيلة إلا أن نتحمل الصدمة وقد حاولت جهدى أن أتحملها . ولكن فقد أبى على هذه الصورة كان أكبر من صدمة .

ثم ترددت ورفعت منديلها إلى عينيها .

وأدركت إدراكاً عاماً ماذا تقصد بقولها إن فقد أبيها على هذه الصورة كان أكبر من صدمة ؛ فإن ما سمعته من أمى ومن مصطفى عجوة وحمادة الأصفر كان كافياً لجعل موته فى تلك الظروف نكبة شديدة .

وصمتت لحظة ثم استمرت تقول :

ـ ليس من الهين على أن أسمع أقوال القريب والبعيد وهم يتحدثون عن أبى الذى كان يملأ حياتى والذى كنت لا أرى الدنيا إلا فى حدود شخصه . ويؤلمنى أن تبدأ معركة كلها مطامع وأكاذيب وسخافة ولم يمض على موته إلا يوم واحد . كل الأحاديث تدور حول ما خلفه أبى من المال ، وأما هو فلست أجد أحداً يحس بفقده غيرى .

ورفعت منديلها مرة أخرى إلى عينيها .

وقلت لها مجتهداً فى إخفاء تأثرى :

ـ تجلدى يا منى فالحياة تمتحننا بأحزانها . لقد فقدت أبى عندما كنت فى مثل سنك وأعرف كيف يكون فقد الأعزاء قاسياً . ولكن فقد

الأعزاء وما فيه من الأحزان من سنن الحياة القديمة ، وعلينا أن نأخذ من الحياة نصيبنا . لا مفر لنا من مواجهة الحياة على حقيقتها وأن نستمد من أحزاننا كل ما تستطيع أن تهب لنا .

فقالت منى فى توجع : وماذا تستطيع أن تهب الأحزان لنا ؟ الفراغ الذى خلا من الوالد العزيز والحقائق البشعة التى تتكشف لنا فى الأطماع والأحقاد وهذه الأحاديث الخبيثة التى لا أظنك سمعتها بعد ، وهذه المعركة الحقيرة التى يريدون أن يثيروها فى المحاكم حول التركة العزيزة عليهم ولا يبالون فيها أن يمزقوا سمعة أبى ويلوثوها فى سبيل المعركة . لست تعرف يا سيد أى نكبة هذه التى ألمت بنا .

فتجرأت ووضعت يدى فوق يدها وقلبى يسيل رحمة وقلت فى صوت خافت : سمعت كل ما قيل يا منى .

ونظرت نحوى بعينيها العميقتين وكانت نظرة كلها ثقة والتجاء ، ورفعت يدى عن يدها وقلبى ممتلئ بشعور شديد من المواساة ، وبإيمان عميق بأن وقوفى إلى جانبها فى ذلك الوقت هو همى الأول والأخير فى الحياة .

وقلت لها مستمراً : لا تحزنى هكذا من أجل أقوال لا يقصد من ورائها إلا تحقيق أطماع هزيلة .

فقالت فى حرارة : إذا كان الأمر لا يزيد على أطماع فليأخذوا ما يشاءون وليتركوا أبى المسكين راقداً فى سلام . ليأخذوا كل ما تركه أبى من الأموال ويدعوا لى اسمه كما كان شريفاً نبيلا . خير لى أن أكون أفقر الناس وأنا ابنة السيد أحمد جلال الكريم النبيل من أن أكون أغنى

الناس واسم أبى ملطخ بالأوساخ .

واندفعت تبكى بكاء شديداً .

ووجدت نفسى أبكى أيضاً .

وقلت لها بعد أن خفت حدة البكاء :

ــ علينا أن نفكر فى الأمر تفكيراً هادئاً . واسمحى لى أن أشاركك فى التفكير إذا لم يكن ذلك تدخلا فيما لا يعنينى .

فقالت فى دفعة : وكيف لا يعنيك يا سيد ؟

فزادت جرأتى وقلت فى شىء يشبه التحدى :

ــ هل لى أن أتدخل فى هذا الأمر ؟ أليس هناك من لا يرضى عن تدخلى ؟

فأجابت فى شىء من الدهشة : ماذا تعنى ؟

فقلت فى ثبات : ليس لى طبعاً أن أفرض نفسى . ألا تظنين أن ذلك قد يغضب محمود بك مثلا ؟

وشعرت كأن طعنة أصابت صدرى عندما نطقت باسم « محمود بك » .

ونظرت إلى وجهها لأرى أثر قولى فوجدتها مطرقة فى وجوم وهى تعبث بأصابعها . ثم أجابت بعد حين قائلة : طبعاً لك أن تتدخل وليس لأحد أن يغضب من ذلك .

ولو كان لى أجنحة عند ذلك لحلقت فى الجو الواسع لأن الحجرة كانت لا تتسع لى .

وقمت أستأذن قائلا : أشكرك يا منى .

ولما مدت يدها إلىّ خطفتها ملهوفاً ولم أدر ما صنعت حتى كنت قد رفعتها إلى شفتى ، ثم أسرعت منصرفاً حتى لا أرى تعبير وجهها خوفاً من أن ألمح عليه شيئاً من الإنكار .

ولما صرت فى الطريق تدافعت على أمواج من الأفكار المضطربة تتوارد من جهات شتى ، واتجهت حيث تحملنى قدماى ، فإذا أنا بعد قليل عند الحانة القذرة التى اعتاد حمادة الأصفر أن يجلس فيها ، وكان جالساً هناك يشرب من كأس فيها الخمر الحمراء الداكنة .

ودخلت هاجماً عليه كأنى أخشى أن يفلت منى ولما اقتربت منه قام يترنح ، وفتح ذراعيه بحركة غير إرادية كأنه يريد أن يعانقنى .

فأزحت يديه فى شىء من الحدة وقلت له :

ـــ أريد أن أكلمك كلمة يا حمادة .

فقال : ألست تحب أن تشرب شيئاً ؟

فجذبته من ذراعه فى شىء من القسر وقلت له :

ـــ الوقت ضيق وأريد أن أحدثك حديثاً هاما فيه مصلحتك .

فقام وهو لا يكاد يستقيم من السكر وسرت به خارجاً من الحانة متجهاً به إلى شاطئ الترعة .

وكأنه أحس بالخطر ، فقاومنى وجاذبنى قائلا :

« لم تجرنى هكذا » .

ولم أجبه حتى بلغت جانب الترعة وكان خالياً من المارة والنسيم

بارداً والجو صامتاً . وهززت ذراعه فى عنف قائلا :

ــ اسمع يا حمادة ، أنت تعرف ما كان بينى وبين السيد أحمد جلال عندما كنت أنت تخدمه وتجمع الجموع بالعصى لتقولوا لى : « يلا من هنا» لاتحاول أن تحتج ولا أن تعتذر فإنى لا أقصد أن ألومك على ما فعلت ، بل أريد أن أذكرك بأن السيد أحمد جلال قد انتهى وأنه لم يبق إلا امرأته وابنته منى . أنت تعرف أنهما امرأتان وحيدتان وسأقف بجانبهما ولن أتردد فى شىء إذا اضطررت إلى الدفاع عنهما . قل ما تشاء . واذهب فى طول المدينة وعرضها فشنع على كما تريد ، ولكن اعلم أنى سأستخدم كل الأسلحة فى الدفاع والهجوم حتى أخلصهما من مؤامرتك القذرة .

فصاح فى تحد : ما هذا الكلام يا سى سيد ؟ أى مؤامرة ؟

فقلت له وأنا أكتم غضبى :

ــ نحن الآن هنا وحدنا ، فلك أن تقول لى ما تشاء ولى أن أقول لك ما أشاء . نحن هنا وجهاً لوجه تتكلم بصراحة وحوش الغابة : ثعلب أمام ذئب أو ذئب أمام ضبع يريدان الفصل فى معركة حتى الموت .

اسمع يا حمادة أنا أقصد كل كلمة أقولها لك ، ولن أتردد فى أن أحطم رأسك بيدى مهما كانت النتيجة .

فضحك ضحكة وقحة وقال مقهقهاً :

ــ كاتب عظيم والنبى ؛ أهذه قصة تريد أن تمثلها معى ؟

ثم عاد فضحك مقهقهاً .

فكدت أخبطه بقبضة يدى فى أسنانه الصفراء ولكنى شعرت كأنه ألقى على (جردلا) من الماء البارد . فتماسكت وعاودت الكرة :

ـ لست أهزل ولست أمثل ، بل أقصد كل كلمة أقولها لن أدعهما لألاعيبك التى أعرفها .

ما هذه القضية التى تريد أن ترفعها ؟ وما هذه المرأة التى تزعم أنها زوجة السيد أحمد جلال ؟ وما ذلك الطفل الذى أخرجته من جرابك ؟

فقال : وما دخلك أنت ؟

وكدت مرة أخرى أصفعه ولكنى قلت :

ـ مثل دخلك أنت ؟

فأجاب فى سخرية : ألا يكفى تدخل محمد باشا ؟ هو يتدخل فى مصلحة نفسه . هو يريد أن يأخذ لقمة دسمه تستحق التعب . ولكن ما دخلك أنت ؟

إلى أين تجرنى يا سى سـيد ؟ دعنى أذهب فلا محل لهذا الكلام . ما لك تجرنى هكذا كالكبش العاصى ؟ أتريد أن تذبحى ؟ ها ها ها . اسمع يا سيد أفندى . أنت رجل شريف فدعنا نحن نتعارك كما نشاء . نحن الحشرات الحقيرة ـ أنا ومحمد باشا وزينب وأمثالنا .

ووجدت صعوبة فى أن أمنع نفسى من أن ألكمه ومددت يدى إلى كتفه وقبضت عليها فى عنف وهززتها قائلا :

ـ دع عنك هذه السخرية إذا أردت أن تعرف مصلحتك .

فقال وهو يتوقف ناظراً إلى وجهى :

ـ يعنى ؟

فقلت فى دفعة : يعنى أنك تخرج صدرى وتثير غيظى وتدفعنى إلى أن أمحقك . يعنى أنك لا تفهم موقفك الحقيقى ولامصلحتك .

فقال فى حنق لأول مرة :

ـ تهددنى ؟

فقلت مستمراً فى دفعتى : أتظن أنى جئت بك من الخمارة إلى هنا لاتنزه معك ؟

فقال فى سخرية : قل لنفسك .

وظهر لى جسمه الضئيل كأنه طفل عنيد وعجبت لشدة ثباته إذ رأيت أمامى شخصية صعبة المراس وكان وجهه النحيل يشبه وجــه ابن آوى إذا كشر عن أنيابه .

وفكرت فى أن أسلك طريقاً آخر غير التهديد فقلت :

ـ لست أريد يا حمادة أن أضرب قبل أن أبذل كل جهدى فى تسوية هذا الأمر بسلام ، لأنى أشفق عليك .

فأجاب فى غضب : ومن طلب منك الشفقة ؟ أنا أكره الرحمة ولا أحب أن تشفق على . لا تظن أنى أرضى بأن أكون موضعاً للشفقة . لست أخجل من شىء ولا يهمنى أن يقول الناس جميعاً أنى نذل ووغد ومجرم . مالك أنت ؟ أنا آخذ والعن ، وآكل والعن ، وأعيش مع زينب الساقطة ، ويحلولى أن ألعنها وتلعننى . أنا أصرف من كسبها وأعرف أنها ساقطة وأقوم بأية خدمة قذرة فى نظير جنيهات قليلة لأصرفها عند منولى . مالك أنت ؟ اذهب عنى ودعنى .

وانفلت منى فى عنف وأسرع منصرفاً وهو يقول بصوت خافت : مالك أنت ؟ أنا قط ضال ، أنا كلب عقور ، أنا فار قذر . أى شىء ولكنى لا أرضى أن أكون موضعاً للشفقة . لا أرضى أن أكون كبشاً

ولا حماراً . أخطف وأخبط ! وأرقع . واشرب الزفت أو أبلع السم ! هذا كل شيء . من قال إنى أطلب الرحمة .

وأسرعت وراءه لأدركه حتى قبضت على ذراعه بشدة وصحت به فى ضجر :

— أتعنى أنك عزمت على الاستمرار فى المؤامرة ؟ أنت تعرف أنها مؤامرة ملفقة ، وأنا أعرف أنها كذلك .

فقال صائحاً فى وجهى : طيب ؛ وماذا تريد ؟

فقلت وأنا أهدئ نفسي : أريد أن أذكرك بأنك قلت لى بلسانك أنك مزور . هذا العقد الذى تهدد به لا يساوى مليما .

فصاح : من قال هذا ؟

فقلت فى ثبات : أنت . ألا تذكر أنك قلت لى أنك تزوجت من المرأة ؟ أنسيت أنك تزوجتها وأنها دفعت الجنيه للمأذون ؟ فمن هذا الولد الذى ولدته المرأة ؟

فصاح فى غيظ : كلام فارغ .

فقلت فى هدوء : سنعرف أنه كلام ملآن . سأبين ذلك للنيابة لا لك أنت .

فوقف ينظر إلى فى حنق وقال :

— تفضل . اذهب إلى النيابة .

فقلت : سأفعل بغير شك فى صباح الغد إذا جاءت الساعة التاسعة صباحاً . أمامك مدة طويلة تفكر فيها ، ولكن اعلم أنى أقول لك كلمتى الأخيرة . لن أرجع إلى الوراء أبداً . الآن فرصتك الوحيدة . ولن أقول

لك كلمة أخرى سوى أنى أعرض عليك الآن عرضاً سخياً لا عن تردد فى عزمى بل لأنى ما أزال أشفق عليك برغمى وبرغمك . مائة جنيه فى نظير الورقة التى معك .

وكان ينظر إلىّ فى أثناء هذا فى دهشة وحشية ثم قال بصوت حانق :

ــ لم أتزوج من أحد وهذه الورقة التى معى لا أتركها بمائة ألف جنيه .

وتركنى وانصرف مسرعاً داخلا إلى حارة ضيقة وسرت فى طريقى على الترعة حتى وصلت إلى (كوبرى فلاقة) وأنا حائر مرتبك الذهن لا أدرى ماذا أفعل .

وعدت إلى بيتى ودخلت إلى غرفتى وارتميت على سريرى بملابسى والحيرة تملك على كل مشاعرى ومسالك أفكارى .

وكذبت على أمى فقلت لها إنى تغديت فى المدينة لكى تتركنى وحدى مع الأمواج المتدافعة فى رأسى .

٢٠

كانت الساعة السادسة والنصف مساء عندما جاءت أمى لتدعونى إلى مقابلة طارق عند الباب ، فقمت فى ضيق ونزلت لأفتح له وكانت دهشتى عظيمة عندما وجدت أنه حمادة الأصفر بوجهه النحيل وأسنانه الصفر وقامته الضيئلة . فوثب قلبى وقلت له مبادراً : هيه يا حماده !

فقال فى جمود : لا تحسب أنى جئت لأرجوك فى شىء أو إنى

خفت من تهديدك . ليس عندى عقود زواج ولا عقود طلاق وكل أقوالك لا تخيفنى . اسمع يا سيد أفندى . إذا كنت تحسب أن النيابة تخيفنى فأنت مخطئ . وماذا تفعل النيابة بى ؟ السجن ؟ طيب يا عم . نذهب إلى السجن . أهذا كل ما تقصد ؟ ألم أقل لك إنى حشرة وكلب عقور ووغد ؟ ولكن أموال السيد أحمد جلال حرام علىّ أنا وحلال بلال لك ولمحمود بن محمد خلف ووالده سعادة الباشا . أهذا ما تريد يا حضرة الأديب الكبير ؟ طيب يا عم . خذ أنت نصيبك ونأخذ نحن نصيبنا . الفلوس لكم والنيابة لنا . أليست هذه هى القسمة العادلة التى تعودناها من الحياة ؟ بس يا سيدى . هذا ماجئت لأقوله . وحول وجهه عنى لينصرف. وثارت فى نفسى مشاعر مختلفة فقد حزنت من أجله وأشفقت على بؤسه ومع هذا هممت أن أركله بقدمى وأمرغه فى تراب الحارة . وجمعت كل إرادتى وقلت له :

ــ لست فى حاجة إلى أن أقول لك أكثر مما قلت أنت عن نفسك . فهل جئت لى حقاً لتقول هاتين الكلمتين ؟

فوقف وقال فى مرارة : أتظن أنى لا أفهم السر فى هذه الحماسة الشديدة ؟ ألست أنت الذى كنت أكبر خصم للسيد أحمد جلال ؟ سبحان الله ! سبحان الله يا أستاذ يا عظيم ! هكذا تنقلب من حرب طاحنة إلى صداقة طاحنة لوجه الله تعالى ؟ أتريد أن تقول لى إنك متطوع لخدمة محمود خلف لوجه الله ؟

ومن العجيب أنى بعد أن كنت شديد الرغبة فى أن أركل هذا الرجل بقدمى فأحطم عظامه بدأت أجد اهتماماً شديداً بكلماته اللاذعة .

ولأول مرة تبينت أنى متناقض مع نفسى كما تبينت أن موقفى معرض للتهمة التى جهر بها ذلك الوغد . وكان أكبر ما يؤلمنى أن يذهب ظن أحد أنى أسخر نفسى لخدمة محمود خلف . ودعوته للدخول معى إلى البيت لأسمع منه كل ما عنده بعيدين عن الأنظار والأسماع ، ولكنه مانع حتى جررته جراً من ذراعه وصعدت به إلى غرفتى .

ولما صرنا وحدنا قلت له : اسمع يا حماده . لست أبالى أن تكون أسفل مخلوق فى العالم ولكنى أحب أن أقول لك كلمة . ماذا يهمك أنت إذا كنت أعمل لحساب محمود خلف أو غير محمود خلف ؟ ماذا يهمك أنت إذا كنت سأستولى على سمسرتى فى هذه الصفقة وألقى بك فى السجن ؟ ماذا يغير هذا من موقفك أنت ؟ هل عزمت حقيقة على أن تستمر فى مؤامرتك ؟ وهل حقاً لا تبالى أن تذهب إلى السجن من أجل مكيدة فاشلة؟ وأقسم لك برحمة أبى أنى لن أتركك إذا لم تتنازل عن عنادك . فما رأيك الأخير ؟

فتلوى فى مقعده وبقى مدة صامتاً وهو ينظر إلىّ كأنه ثعبان يتحفز للهجوم وكان على وجهه شبح ابتسامة مسمومة .

ثم قال فى مرارة :

— يعنى انتهينا ؟

فقلت فى لهفة : كن عاقلا يا حمادة .

فقال : يعنى نذهب إلى السجن أو نخرج من المولد بلا حمص ؟ يعنى يا سى سيد ليس أمامى إلا أن أختار بين السجن والموت جوعاً ؟ طبعاً ستطردنى المرأة إذا لم أذهب إلى السجن . وطبعاً مصطفى عجوة يخرج

لى لسانه قائلا « رح فى داهية يا حمار » نعم أنا حمار وخمسين ألف حمار لأنى لم أرض بمائة جنيه ، وقلت له ولا خمسين ألف . لم أعرف فى ذلك الوقت أن سيد أفندى زهير سيعود إلينا من القاهرة ليقول لى يا وغد اذهب إلى السجن .

وقام واقفاً يريد الانصراف ، ولأول مرة رأيت عليه أثر الاضطراب والانخذال .

فجذبته من ذراعه لأقعده ، فارتمى على الكرسى كأنه يتهدم وقال فى ضعف :

ــ دعنى أذهب يا سيد أفندى لأفكر فى اختيار السجن أو الموت جوعاً .

ونظرت إليه لحظة فى صمت وخيل إلىّ أنى أرى أمامى أنقاض إنسان محطم ، وشعرت من أجله بحزن صادق . وقلت له فى رقة : أنا مستعد يا حمادة أن أمد يدى إليك ، وإن كنت واثقاً أنى أمدها إلى الثعبان الجريح الذى لا يتردد أن يفرغ فيها سمه إذا استطاع أن يصل بأنيابه إليها .

وكان ينظر نحوى نظرة خاوية تدل على أنه كان غائباً بفكره عنى . وكان تعبير وجهه ينم عن ألم داخلى من معركة عنيفة . وشعرت بأننى حيال جدار منيع يحول بينى وبين الوصول إلى قرارة نفس ذلك الرجل الهزيل الجالس أمامى وإن كنت أقدر على أن أصرع جسمه النحيل بضربة واحدة من يدى . كان واضحاً أن ذلك الرجل ينطوى على فطرة وحشية عنيفة عنيدة تستعصى على إرادتى وتتملص من كل محاولاتى فى تأنيسها .

ولبثنا مدة غير قصيرة ونحن صامتان وكل منا يتحدث مع نفسه ، وتحرك هو آخر الأمر واقفاً وقال :

ــ تريد أن تضحك على يا أستاذ ؟

فزممت شفتى بحركة غير إرادية وقمت صامتاً وسرت أمامه مطرقاً حتى خرجنا إلى الحارة، وهممت أن أدخل وأغلق الباب ورائى. ولكنه وقف متردداً ثم قال :

ــ يعنى لا تريد أن أخرج بشىء ؟

فقلت منفجراً :

ــ أبعد عنى أيها الأحمق ولا ترنى وجهك هنا .

فقال فى خشوع :

ــ أشكرك يا سيد أفندى . ليس هذا الكلام جديداً على . كل الناس يقولون لى مثل هذا .

فقلت فى جفاء : وماذا تريد ؟

فقال فى وقاحة : قطعة من الغنيمة .

ولم أجد فائدة فى مناقشته وقلت له فى اختصار :

ــ وفى نظير ذلك ؟

فوضع يده فى عبه وأخرج منه أوراقاً وهو يتراجع إلى الوراء كأنه يخشى أن أخطفها . فخفق قلبى شديداً وقلت له فى صوت أجش :

ــ وما أدرانى ما هذه الأوراق ؟ ما أدرانى أنها تافهه لا تساوى قرشاً واحداً .

فقال متردداً : لو كان لى شرف لحلفت لك به أن هذه هى الورقة التى تريدها .

وهز ورقة قذرة فى يمينه .

فقلت متكلفاً الهدوء : إذن نعود إلى غرفتى لأرى الورقة وأعطيك ما تريد .

فقال في عنف وحشي ووقاحة : لع يا سيدى ! سأنتظر هنا . المائة جنيه أولا .

وأدركت ما يقصد من ذلك ولم أعجب من أن مثله يخشى أن يدخل معي خوفاً من أن أحبسه فى غرفتى وأغتصب منه الورقة . وقلت له هادئاً :

— إذن فانتظر حتى أعود إليك .

ودخلت مسرعاً فوثبت على السلم غير مصدق أنه ينتظرنى حتى أعود وكانت أمى مشغولة فى حياكة ثوب لأختى ، فاستعجلتها لتعطينى مائة جنيه من المدخر عندها ، فقامت وهى تنظر إلىّ مستغربة ولكنها لم تسألنى عن شىء . وذهبت إلى درج (الدولاب) الذى تحفظ فيه النقود فأتت لى برزمة النقود كلها وقدمتها إلىّ وهى صامتة . فأخذت منها ورقتين من ذوات الخمسين جنيهاً ورددت إليها الباقى وأسرعت نازلا فى لهفة . وشعرت بإرتياح عظيم عندما وجدت حماده ما يزال واقفاً عند الباب . فمد يده إلىّ وأخذ الورقتين من يدى قبل أن يسلم ورقته ثم انصرف بغير أن يلتفت إلىّ .

ونظرت إلى الورقة التى فى يدى لأرى ما هى ، وتنفست نفساً عميقاً عندما وجدتها ممضاة بالإمضاء التى أعرفها للسيد أحمد جلال . كانت ورقة زواج عرفى ولم أستطع أن أقرأ من الأسماء التى عليها سوى اسم السيد المرحوم واسم مصطفى عجوة لأن اسم الشاهد الآخر كان غير واضح المعالم كأن صاحبه أراد أن يستخفى .

وداخلني سرور لا أستطيع أن أصفه حتى لقد سألت نفسي أأنا في حلم صوره لى التمنى أم أنا فى يقظة حقيقية أقبض فيها بيدى على وثيقة يبلغ ثمنها مئات الألوف من الجنيهات ، ومن فوقها سعادة منى وسمعة السيد أحمد جلال . ووقفت ثابتاً فى مكانى قريباً من باب البيت لا أدرى ماذا أفعل ، وخلا ذهنى من كل فكرة كأنه توقف عن الحركة . وأخرجت ساعتى فوجدت أنها صارت الثامنة من المساء ، ولكن ذلك لم يحمل إلى فكرى معنى . وأغلقت الباب ورائى وصعدت إلى غرفتى وأخذت أقرأ الورقة حرفاً حرفاً لأستوثق من أنها هى الورقة المطلوبة . وجاءت أمى عندما سمعت حسى فقالت فى هدوء :

ــ من كان معك يا سيد ؟

فقلت : حمادة الأصفر .

فقالت فى صيحة مكتومة ، وهذه الجنيهات له ؟

فقلت باسماً : تفضلى يا أمى واجلسى هنا .

وأخذت أحكى لها كل ما مر بى منذ الصباح ، فكأن تعليقها على ذلك أن قالت :

ــ الله يبارك فيك يا ابنى !

ثم قامت ووضعت يدها على رأسى وجعلت تقرأ والدمع يترقرق فى عينيها .

ثم قالت : رحم الله الجميع يا ولدى فقد كان السيد أحمد جلال رجلا كريماً ؛ حماك الله من الفضائح يا ولدى !

ولما خرجت أمى من الغرفة بدأت أسأل نفسى ماذا ينبغى لى أن أفعل . وكان أول خاطر سنح لى أن أسرع إلى منى لأخبرها أن المشكلة

قد زالت ، ثم أسلم إليها الورقة وأتمتع بالسعادة عندما أراها تبتسم لى شاكرة .
ولكنى لم ألبث أن سخرت من هذه الفكرة ، وبدا لى أنها لا تزيد على محاولة تمثيلية سخيفة . ثم ماذا يكون لو أن منى سألتنى كيف حصلت على الورقة ؟ أأحكى لها كل ما صنعت وأنى دفعت الجنيهات المائة ثمناً لها ؟ وهل يليق أن أذهب إلى هناك بعد الساعة الثامنة مساء ؟ وخطر لى أن أبادر بالسفر إلى القاهرة فى قطار الصباح الباكر بغير أن أخبر منى بشيء مما حدث ، وتأملت مقدار السعادة الكبرى التى أفوز بها إذا علمت منى من تلقاء نفسها فيما بعد بأنى أديت لها هذه الخدمة الجليلة فى صمت بغير أن أنتظر منها جزاء . ولكنى سخرت من هذه الفكرة أيضاً وبدا لى أنها أقرب إلى أن تكون إمعاناً فى الرياء .

وضاق صدرى من هذه المجادلات الداخلية الجوفاء فأعدت قراءة الورقة ثم مزقتها قطعاً صغيرة فى بطء وذهنى سادر ، وألقيت بالقطع فى سلة المهملات . وقمت لأنزل حتى لا أبقى فى الحجزة المغلقة وحدى ، واتجهت إلى بيت صاحبى عبد الحميد . وجلسنا فى المنظرة المألوفة ، وكانت نظرة صاحبى تحمل معنى الدهشة وابتسامته تدل على التساؤل .

وقال فى نغمة عتاب : أنت هنا منذ أيام ؟

فقلت منذ يومين اثنين ولكنهما كانا ممتلئين .

وأخذت أقص عليه ما حدث منذ عدت إلى دمنهور .

فقال مبتسما : حسن جداً يادون كيشوت .

فقلت : أرجوك ألا ترهينى بسخريتك . فهل كنت لأترك منى وحيدة لرحمة قطيع من الذئاب .

فتبسم قائلا : آه . هذا شيء آخر . أظنني بدأت أفهم . أنت تحبها ؟
فقلت في جد : لا أكذبك ، فأنت غير مخطئ .
فقال وما يزال باسما : وما هي الخطوة التالية ؟
فقلت : لا شيء . سأسافر غداً صباحاً .
فقال في دهشة : هكذا يفعل دون كيشوت !
فقلت : وما حيلتي ؟ ماذا تفعل لو كنت في موقفي .
فقال وهو يقف : لست أدري تماماً . ولكني كنت لا أسافر غداً إلى القاهرة . لم لا نذهب غداً إليها لتسألها بغير مقدمات هل ترضى بك زوجاً . أنت أصلح لها بغير شك من ذلك الشاب الأبله . ماذا تنتظر ؟

فلم أجبه بشيء لأني لم أجد شيئاً أقوله . وأخذت أعيد السؤال نفسه ولكني كنت مثل مذهول لا يعي ما يسمع .

ثم قمت ساهماً وليس في ذهني فكرة . وأخذ صاحبي بذراعي حتى نزل معي إلى الباب بغير أن يقول أحدنا للآخر كلمة . وكنت ما أزال أفكر في السؤال الذي وجهه إلي ولم أهتد إلى جواب له . وكان هو كذلك يفكر ولكني لم أعرف فيم كان يفكر . ولما صافحته آخر الأمر طلبت منه أن يبلغ تحياتي للسيدة الكبيرة ، وكانت دهشتي عظيمة عندما قال لي إنها مريضة وإن الطبيب لا يسمح لأحد بزيارتها . وشعرت بخجل شديد وأنا أعتذر إليه من أني أخذت من وقته هـذه الساعة لأحدثه عن نفسي وهو في مثل هذا الظرف القاسي ، فلم يزد على أن أجابني قائلا : حديثك عن نفسك أحب إلي ، وماذا كنت تفيدني

لو حدثتك أنا عن نفسي ؟ » هـــذا الصديق العجيب يسيطر على قلبه مثل هذه السيطرة كأنه عقل مجرد لا تتطوح به العواطف والميول، ولا يعصف به ضعف الإنسانية . ولو لا أن له قلباً كبيراً يعرف كيف يواسي وكيف يشارك في الاهتمام بغيرة لقلت إنه خلقة شاذة . ومهما يكن من أمرى فقد انصرفت من عنده وأنا موزع القلب بين الإعجاب به والدهشة منه والحيرة بين التسليم بآرائه ورفضها .

٢١

عدت من دمنهور إلى دوامة العمل مرة أخرى ولا أذكر أنى كنت فى يوم من أيام حياتى أشدقلقاً وشعوراً بالوحشة مما كنت فى تلك الأيام. كنت أحس أن الحياة أصبحت فراغاً خاوياً ليس من فوقه سماء تظلنى ولا من تحته وطاء يحملنى بل كنت ضيقاً بنفسى حانقاً عليها بغير أن يكون فى حياتى المعتادة ما أشكو منه . كنت موفقاً فى عملى وكان الأستاذ على مختار يزداد تقديراً لى يوماً بعد يوم ،وكنت دائماً أوسع دائرة علاقاتى بزملائى من الصحفيين وبغيرهم من رجال السياسة والحكم ،واغتبط بما أجده عندهم من التقدير والتكريم ، وكنت فى حياتى الخاصة أشبه بأن أكون سعيداً خالياً مما يثير الهموم ، ولكنى مع هذا كنت أحس كأن قلبى فى قبضة مارد جبار يعصرة بغير رحمة . واستولى على قلبى خيال واحد لا يكاد يفارقنى فى ساعة من الليل أو النهار فيتمثل لى إذا جلست لأكتب مقالاتى فى دار الجريدة وإذا سرت فى طريقى أو جلست

فى حجرتى المنعزلة فى المساء أو أغمضت عينى لأنام ، بل إنه كان لا يفارقنى إذا كنت غارقاً فى زحمة الناس وضجة الحياة الصاخبة التى لا يعرفها إلا من عرف مهنة الصحافة . كان ذلك خيال منى .

وفى الصباح عندما أذهب إلى بريد الأحرار كان أول سؤال أسأله « هل جاء إلىّ خطاب ؟ » ، فإذا وجدت خطاباً نظرت إلى خط العنوان فى لهفة فإذا كان من عند أختى ذهبت إلى ناحية وتفرغت لقراءته لعلى أجد فيه كلمة تشير إلى منى . ولكنى كنت فى أكثر الأحوال أطوى الخطاب خائباً لأن أختى كانت تكتب لى عن كل شىء تافه ولا تكتب لى عن منى كلمة . ولا أذكر أنى تأخرت مدة يومين اثنين فى الرد على أختى ، كان قصدى من ذلك أن أجعلها تكثر من الكتابة إلىّ لعلها تقول لى الشىء الذى انتظره وإن كت لم أحدد بالذات هذا الشىء الذى أنتظره ، كان فى ذهنى سؤال واحد كبير غير محدد وهو أنى تركت دمنهور بغير أن ألقاها أو أبعث إليها بكلمة ، بعد أن مزقت الوثيقة الخطيرة التى كانت فى يد حمادة الأصفر ، فلا أعرف إن كانت الأمور قد تطورت أو استقرت على صورة من الصور . فهل كنت حقاً كما وصفنى صاحبى عبد الحميد أحمق مثل دون كيشوت ؟ هل مهدت حقاً لمحمود خلف أن يصير زوجاً لمنى ؟ وما الذى منعنى من أن أذهب إليها قبل سفرى لأقول لها إنى مزقت الوثيقة التى كانت تخشاها ثم أجهر لها بكل ما فى نفسى وأعترف لها ولمن يحيط بها وبى بأنى أحبها ولا أعيش إلا من أجلها . ما الذى حملنى على التسلل هكذا من دمنهور بغير أن أنصف نفسى ، وتركت الأمور بعد ذلك تجرى فى مجراها ؟ أكنت أخشى

أن تسخر منى عندما أفضى إليها بالحب الذى أحمله لها ؟ أم كنت أخشى أن يسخر الناس منى ويتهموا الدوافع التى تدفعنى ؟ وماذا على لو كنت جهرت لها وللناس وتركتهم يسخرون بى كما يشاءون ؟ على أن الدنيا التى كانت حولى لم تعبأ بضيقى ولا بقلقى وكان كل شىء يسير فى مجراه مثل الآلة الضخمة التى لا تقف إذا اعترضها بائس مسكين فحطمته فى سبيلها . كانت جريدة بريد الأحرار تظهر كل يوم فى الصباح على عادتها ، وكانت المجامع والمصالح والأحزاب تضطرب فيما حولى وتغمرنى فى ضجتها بما أنطوى عليه من القلق والحيرة كما تغمر الدوامة الشديدة حشرة غريقة .

فإذا عدت إلى بيتى فى المساء وجدت المصباح الضئيل يستقبلنى فى الدهليز المظلم ، ثم أدخل إلى الفناء الرطب وألمح الغرفة التى يجتمع فيها الشيخ مصطفى ورفاقه بعد العودة من الدكان ليتموا السهرة وهم سعداء بالنسيان . ثم أصعد إلى غرفتى لأخلو مع كتبى وقلمى وهواجسى .

ومما زادنى شعوراً بالضيق أننى أصبحت مضطراً لخدمة نفسى بعد أن غضبت فطومة منى عقب تلك الليلة التى ذهبت فيها إلى حفلة استقبال الأمير الشرقى فى قصر الوجيه حسام الدين ، فإنها امتنعت من بعدها عن ترتيب غرفتى وإعداد إفطارى وغسل مناديلى وملابسى ، وكنت لهذا مضطراً إلى أن أعمل بيدى كل ما أحتاج إليه أو أبحث عمن يقوم لى بعمله ، وكان ذلك يحيرنى ويزيد من ضيقى . وفكرت فى الانتقال إلى مسكن جديد ولكن الحالة النفسية التى استولت على جعلتنى لا أقدر على تركيز أفكارى فى أمر من الأمور أو جمع إرادتى لتنفيذه . وهكذا مضت

الأشهر بى حتى اشتد فصل الصيف بحره وبحوادثه الكثيرة التى بعثت إلى الجو السياسى حرارة أشد من حر الصيف . وزاد نصيبى من العمل فصار الأستاذ على مختار يكلفنى بأعمال مختلفة كلما جدت فضيحة من الفضائح المتعددة التى كانت تتوالى أسبوعاً بعد أسبوع ، فضيحة القطن وفضيحة تجارة المخدرات وفضيحة الراقصة التى رفعت رأس رئيس وزراء مصر عالياً فى محافل أوربا عندما عرضت رقصاتها المبتذلة فى مواخيرها ، وجزيرة كابرى التى صارت بقعة مقدسة منذ حل بها الملك الخليع ليظهر للعالم أنه آمون المعبود الجديد الذى يركع له شعب من العبيد . فكنت فى كل يوم أفرغ ضيقى وحنقى فى مقال تحت عنوان « أنا الشعب » ، الذى أصبح يومياً بعد أن كان أسبوعياً ، ومن أجل هذا كنت لا أكاد أفرغ من تحقيق فى نيابة الصحافة حتى أبدأ فى تحقيق آخر حتى سمانى زملائى ألمع نجوم القضايا السياسية .

وعدت فى ليلة مبكراً إلى بيتى منقبض الصدر بعد صباح طويل قضيته فى نيابة الصحافة ، وعمل متصل فى الجريدة بعد الظهر إلى غياب الشمس، وكانت ليلة شديدة الحر اجتمع لى فيها كثير مما يزيد ضيقى وهمى ، من تعب الجسم وتوتر الأعصاب وخيبة الرجاء ، لأنى كنت أرسلت إلى أختى خطاباً منذ أسبوع سألتها فيه بغير إبهام أن تخبرنى عن أحوال منى ، فجاءنى الرد قبل خروجى من دار الجريدة ففتحته فى لهفة وقرأت فيه كثيراً من الأحاديث المفصلة عن كل شىء سوى منى . لم تكتب لى منيرة عنها إلا جملتين صغيرتين فى آخر الخطاب تقول فيهما أن منى بخير وتسأل عن صحتى !

وكانت الليلة مقمرة فأردت أن أفرج عن نفسى بجلسة هادئة تحت السماء الصافية، وأخرجت الكرسى الطويل إلى السطح واسترخيت فى جلستى عليه مستنداً برأسى إلى ظهره، وسبحت فى سنة من القيظة الحالمة. هى بخير وتسأل عن صحتى! هكذا يقول الناس إذا تلاقوا فى الطريق عفواً «كيف صحتك»؟ ثم ينصرف كل منهم فى طريقه. هكذا أنا أسأل عنها وهى تسأل عن صحتى ويمضى كل منا فى طريقه. أنا هنا فى هذا البيت أناجى همومى وأحاول أن أفرج عن نفسى بالجلوس تحت السماء فوق سطح منزل الحاج مصطفى ومن ورائى هذه الغرفة المسكينة، وأما هى فتسأل عن صحتى وتمضى فى سبيلها، لتستعد ليوم الزفاف وتجهز الثياب والأثاث لاستقبال محمود خلف. ودارت فى داخلى مناقشة عنيفة كأنى كنت أنطوى على شخصين منفصلين يتنازعان فى حدة وحرارة وكل منهما يثير من ناحيته الآلام فى قلبى. كأن أحدهما يخجلنى من نفسى لأنى أتطلع إلى أمور لا ينبغى لمثلى أن يتطلع إليها ويتهمنى فى صراحة أننى أشبه المملوك فى الأزمان القديمة عندما كان يتطلع إلى ابنة سيده. وكان الثانى يغضب ويرفض ويتهمنى بالتقصير فى حق نفسى وحق منى لأنى لم أتقدم نحو أمنيتى جريئاً صريحاً ولم أواجه موقفى كما ينبغى للرجل الحر الذى يحترم نفسه أن يفعل. وكانت نتيجة هذه المحاورة الخانقة أننى لم أشعر بأنس إلى ضوء القمر، وخيل إلى أن الفضاء أشد ظلمة من جدران الحجر الأسود الذى عرفته فى مركز دمنهور. وكما يفيق الحالم من نومه رأيت فطومة تصعد من السلم وتتسلل فى ضوء القمر إلى الناحية الأخرى من السطح، ثم تقف هناك مطلة على الحارة الضيقة. ووجدت

نفسى أنكمش فى مكانى كأنى أريد أن أختفى ، وخطر لى أن أقوم من مجلسى فأدخل إلى الغرفة وأغلق بابها ورائى . ولكنى بقيت ثابتاً فى مكانى كأنى هامد لا أقوى على الحركة . وبقيت فطومة فى مكانها دقيقة أو دقيقتين ثم ارتدت متجهة نحوى ،وكانت تسير متباطئة وتتلفت حولها كأنها لا ترانى . ولما اقتربت منى زاد انكماشى ولكنى لم أجد بدأً من أن أعترف بوجودها فتكلفت الثبات وقلت لها هادئاً :

ـــ مساء الخير يا فطومة .

فأجابتنى فى نغمة عابسة متحفزة :

ـــ مساء الخير يا عينى .

ووقفت أمامى وكان وجهها مصفراً تحت ضوء القمر ،ولكنها كانت صفرة تشبه لمعة الثوب الحريرى الأنيق . أهذه فاطمة ؟ كانت عيناها تأتلقان بنور خاطف من بين رموشها الطويلة المكحلة ،وكانت ملامح وجهها تنطق بعاطفة ثائرة .كانت تلك أول مرة رأيتها فيها فى مثل تلك الصورة .

كانت فى زينة ثقيلة من الحلى فى يديها وفى أصابعها ، وكان قرصان واسعان يتدليان من أذنيها إلى قرب كتفيها . .

لست أدرى هل كانت هذه الحلى ذهبية أم مذهبة ، ولكنها كانت على كل حال توحى بأن أمامى امرأة ثائرة تتحدى ،وخيل إلىّ أنها كانت أطول قامة وأرشق قواماً من أثر كعبها العالى وثوبها الأنيق .

ووقفت أمامى واضعة يديها على جانبى خصرها الدقيق، فظهرت تقاسيم جسمها بديعة التناسق ، وأما وجهها فكان يشبه زهرة ماردة فى

غابة استوائية . ولما ردت على تحيتى كان على وجهها شيء يشبه ابتسامة ضئيلة ، ولكنها كانت أقرب إلى أن تكون دعوة لبدء معركة . فكأن مظهرها فى جملته يشبه غجرية حسناء تمسك فى يدها خنجراً وتقف لتحاسب غريمها الذى أثار غضبها .

وقلت لها فى صوت خافت :

ـ ألا تجلسين قليلا ؟ أأجيء لك بكرسى ؟

وهممت بأن أقوم لاحضر لها كرسياً ولكن ردها كان حاسماً ، فإنها هزت رأسها فى سخرية وقالت :

ـ لأ مرسى .

وفتحت عينى من الدهشة لأنى لم أسمعها تنطق بمثل تلك النغمة من قبل ، وبدأت أزيد انكماشاً وارتباكاً . وخطر لى أن أقف حتى لا أحادثها وأنا جالس ولكنى ترددت ولم أفعل .

وقلت لها فى تكلف سخيف :

ـ ليلة جميلة والحر بدأ يهدأ .

فقالت وهى تهز رأسها مرة أخرى :

ـ ويحلو فيها الجلوس فى القمر على انفراد، فلأذهب لأتركك وحدك .

فقلت فى بساطة :

ـ بالعكس يا فطومة . يسرنى أن أراك بعد هذه الغيبة الطويلة .

وكنت فى الحق مخلصاً فى كلمتى .

وأحسست كأن إناء من الماء البارد صب على رأسى عندما ضحكت

ضحكة طويلة وأمالت رأسها إلى الوراء قائلة :

ــ آه ــ مرسى !

وبقيت فى مكانى ناظراً إليها مأخوذاً مسمراً وامتلأت عينى من حسنها الوحشى المخيف . نعم كان حسنها بارعاً مخيفاً أو هكذا شعرت لأنه زادنى رهبة منها . وهممت أن أجمع إرادتى وأحل انكماشى وأقول لها كلمة مداعبة أو أطرى على محاسنها بعبارة منطلقة تعيد مكان كل منا إلى سابق موضعه من الآخر ، ولكنى ذهلت عن كل لفظ يحمل معنى المداعبة أو الإطراء والمجاملة فلم أنطق إلا بقولى :

ــ ما هذا يا فطومة ؟ أكاد لا أصدق عينى .

ولم أفطن إلى أنى كنت غير موفق فى كلمتى إلا عند ما سمعتها تجيب قائلة :

ــ يعنى ؟

فقلت مرتبكاً : الحقيقة أنى كنت لا أنتظر . . . أقصد أنى مسرور من هذه المفاجأة .

فضحكت مرة أخرى حتى كادت تترنح وقالت فى سخرية :

ــ كذاب !

فوقعت كلمتها مثل صدمة عنيفة على رأس مذهول ، فلم أكد أتنبه إلى دلالتها . أهكذا تخاطبنى فطومة ؟ وما يحملها على كل هذا ؟

وحاولت أن أهرب من المعركة فقلدتها تقليداً أبله وقلت :

ــ يعنى ؟

فضيقت عينيها وهزت رأسها وهى تقول :

ــ يعنى أنك كنت تريد أن تقول شيئاً آخر ، ولكنك خفت .

فقلت محاولا أن أجعل صوتى مداعباً :

ــ أهى معركة مقصودة ؟

فكانت كلمتى مثل عود الكبريت إذا أشعل لغماً وانفجرت فطومة قائلة :

ــ معركة ؟ إيه معركة ؟ مقصودة ؟ تحسب أنى جئت إلى هنا بالقصد ؟ العفو يا سيدى ! لو عرفت أنك هنا ما وضعت قدمى على السطح . أنا أرمى نفسى ؟ أنا أبحث عنك وأجىء إليك بالقصد . لست بلهاء ولا رخيصة ولا تحت فضلة . تحسب أنى جئت أرجوك التنـــازل ؟ ومن قال لك أنى أهتم بسؤالك ؟ لم يخطر ببالك أن تقف عند الباب لتسأل عن المريضة المسكينة . يا عينى ! ألم تسمع إنى مريضة ؟ حتى الآن عندما تمر بباب الشقة لا تلتفت ولا تعتنى كأنى لا أستحق أن تقول لى كيف حالك يا فطومة يا بنت آدم . تظن أن الدنيا كلها خلت ولا أجد فيها من يسأل عنى ؟

وأخيراً جئت إلى هنا ووقفت أمامك وكسرت على نفسى بصلة ، فلا أسمع منك إلا هذه الكلمة ؟ تقول لى معركة مقصودة ؟ حتى الكلمة عندما تكون على طرف لسانك وأعرف أنها فى ضميرك ، نعم أعرف أنها فى ضميرك ، ومع ذلك لا ترضى أن تنطق بها وتحسبنى بلهاء . كذاب وألف مرة كذاب ، وأنت تعرف أنك كذاب ومتكبر ومغرور ، وتقابلنى كأنى خادمة . يا جامد يا بارد يا ثقيل !

وكنت أستمع إلى دوى العاصفة وأنا خاشع لا أتحركِ ولا أنطق ، ومن العجيب أنى لم أشعر بالإهانة ، بل لعلى كنت أقرب إلى الاغتباط .

وأردت إلى أن أهدئها فقمت عن الكرسى باسما وقلت فى بساطة :
ـ أشكرك يا فطومة . أإلى هذا الحد تكرهينى ؟ إلى هذا الحد بلغ غضبك على ؟ الحق على يا فطومة وأنا آسف وأقر لك بأنى مخطئ .

ولكن هذا الاعتذار لم يهدئ غضبها بل زادت قسوة فى تعبير وجهها واستمرت تقذفنى بهجمات أشد وأعنف حتى ختمت قولها بدفعة هستيرية من البكاء وكانت تقول فى بكائها :

ـ الذنب ذنبى أنا . فطومة التى تأتى إليك كل يوم بصينية الإفطار وتغنى لك وتجلس على الأرض عند رجليك ، فطومة التى تقطع أصابعها فى مسح غرفتك وغسل ملابسك وترقيع جواربك ، فطومة التى تتمنى رضاك وتعرض عليك الذهاب للسما ، لا تستحق أن تلتفت إليها ، والآن فقط تعتذر بأنك مخطئ وتقول « الحق على يا فطومة » وانتهى الأمر كأنى طفلة . كلمة لا تكلفك أى تعب تمن بها على كأنى سائلة أطلب منك الإحسان . لا يا سى سيد ، وفر الإحسان لغيرى ووفر الاهتمام لفتاة أخرى تليق بمقامك .

وانصرفت مسرعة قبل أن أتمكن من التمسك بها والاعتذار إليها حتى ترضى . وتركتنى واقفاً مثل شخص تعرضت له جنية وتركته مخبولا وتسلقت على أشعة القمر .

وعدت إلى مجلسى كاسف البال حائراً ، وجثم على صدرى ضيق أشد أضعافاً مما كان فيه ، وغمرنى شعور بالخزى كأنى ارتكبت جرماً . وكانت ألفاظ فطومة ترن فى سمعى كأنها ضربات سوط وتأبى ألا أن تعود إلى كلما حاولت أن أبعدها ، وكان رنين ضحكتها الساخرة تجعل قلبى

يغوص فى صدرى ، وقولتها «كذاب ! » ، التى خرجت من حلقها كانت كالقذيفة . لست أدرى كيف تمكنت هذه الفتاة أن تعرف ما كان يدور فى نفسى عندما هممت أن أقول لها « إنك ساحرة فى هذه الزينة وهذا الحلق الكبير » ، مع أنى لم أستطع أن أجد الألفاظ التى أنطق بها . هل كانت تفتش فى أعماق صدرى حتى عرفت أنى تعمدت الكذب والهروب من حسنها الرائع المخيف ؟

وأخذت ألوم نفسى على الرهبة التى شلت حركتى عندما وقع نظرى عليها . فهل كان ينبغى لى أن أنكمش هكذا عندما رأيتها ؟ ماذا جعلنى أنظر إليها مأخوذاً كما ينظر الصوفى المتعبد إلى كأس من الشراب المثلج وهو صائم فى يوم صائف؟ الصوفى يتحمل العطش والحر ويرفض الكأس الحلوة المثلجة من أجل الجنة التى يعيش من أجلها ، وأما أنا فلم تكن لى جنة أعيش من أجلها ؟

لم أكن أكثر من بائس يستعبد نفسه من أجل العبودية ، ويشقى نفسه من أجل الشقاء ولا يرجو من وراء ذلك كله جزاء .

وسنح لى من خلال حيرتى وحنقى خاطر كأنه صوت يهمس فى أذنى متردداً خيفة أن يسمعه أحد غيرى . خطر لى أن أنزل من ساعتى إلى شقة فطومة فأقف عند بابها أرجوها واستسمحها حتى ترضى عنى . ونظرت إلى الساعة فوجدتها العاشرة إلا ربعاً وكانت أنوار القاهرة تتصاعد من بعيد صاخبة حارة .

نعم فما يزال الوقت مناسباً والناس لا ينامون فى الصيف فى مثل هذه الساعة . ولكنى لم أتحرك من مكانى كأن ذلك الخاطر لم يكن سوى

فكرة مجردة لا يقصد من ورائها عمل . وأخذت أسأل نفسى لماذا لم أنفذ عزمى على الانتقال من هذا المسكن مع أنى وكدت ذلك العزم فى ضميرى مرة بعد مرة . ولماذا تحملت الحياة فى غرفتى هذه المسكينة مع كل ما عانيته من المشقة فى خدمة نفسى بعد انقطاع فطومة عنى ؟ ولست أحب أن أخفى أنى أخذت أتبين فى تلك الساعة حقيقة لم أستطع أن أكابر فيها لأنها ظهرت لى واضحة بعد أن كانت خافية عنى فى المسارب العميقة من نفسى . وهكذا نحن جميعاً لا نعرف من أنفسنا إلا ما نريد أن نعرف ، حتى تتبين لنا فجأة بعض الحقائق التى كنا نجهلها إذا أثارتها هزة قوية من أعماقنا . والقليل منا من يستطيع أن يتخلى عن المكابرة ويقر بالحقيقة التى كان يجهلها ، ولكنى لم يكن لى بد من أن أعترف بأنى كنت متعلقاً بهذه الفتاة الجاهلة الحمقاء الوحشية السخيفة . كنت أتعلق بها بجانب واحد من طبعى ، ، ولكن الجانب الآخر كان يعرف أنها لم تخلق لى ولم أخلق لها .

كنت أتدارى وراء فكرة العطف عليها أو الرثاء لها أو الإحسان إليها ، وكانت كل هذه المظاهر تخفى عنى ما تحتها ، وهو أنى كنت متعلقاً بها تعلق الطبيعة التى لا تبالى العقل فى تصرفها .

عند ذلك فقط عرفت كيف أفرق بين الحب والميل الغريزى ، بين الطبع الذى يختار والطبع الذى ينجذب ، بين أفق الحياة العليا التى تجمع الكل إلى الكل أبد الدهر وبين أفق الحياة الدنيا التى تدفع البعض إلى البعض ما بقيت الدفعة ، بين السلام الذى يسرى بين روحين عند التقاء نصفين شقيقين وبين الاضطراب والقلق الذى يفضى إليه تدوال

التجاذب والتنافر بين طرفين غير متوافقين . عند ذلك فقط عرفت كيف أفرق بين فطومة ومنى . كنت أنجذب إلى فطومة ومع ذلك كنت أخشاها وأنفر منها . كنت متعلقاً بها ولكنى كنت فى الوقت عينه أنكمش عنها وأرهب صلتى بها . كانت فطومة أنثى ولكنها لم تكن حبيبة . وما أشد خطأ من يخلطون بين التعلق وبين المحبة الكاملة !

وقمت من مجلسى فدخلت إلى غرفتى وبدأت أخلع ملابسى لأستعد للنوم الذى طاوع جفنى بعد أن كان نافراً عنهما . وكان من عادتى أن أخرج ما فى جيوبى من الأوراق لأضعها فى طربوشى قبل أن أنام ، فلما أخرجتها رأيت بينها الصحيفة الزرقاء التى جاءتنى فى الصباح من أختى . فجلست أقرؤها مرة أخرى وأنا أهدأ مما كنت فى المساء . وكان عجبى شديداً عند ما وصلت إلى آخر الخطاب وقرأت الحاشية التى كتبتها منيرة ، فقد ظهر لى أن للحاشية بقية على ظهر الصفحة ، والعبارة الكاملة هى « وأما منى فإنها بخير وتسلم عليك وتسأل عن صحتك وبهذه المناسبة أقول لك إن أمى كلفتنى أن أكتب إليك هذا الخطاب مستعجلا لأرجوك أن تحضر إلى دمنهور ولو يوماً واحداً لتقول لك شيئاً هاماً ! » .

وكنت قد رميت بالظرف فى سلة الأوراق المهملة بمكتبى ولم ألاحظ أنه كان مستعجلا لما كنت فيه من التعب ، فما كدت أقرأ هذه الكلمة حتى هاجت مخاوفى وتحفزت كل مشاعرى وقلت فى نفسى : شيئاً هاماً ! لا شك أنه يتصل بمنى ، وماذا يكون يا ترى ؟ وبغير أن أقف للتفكير لحظة نظرت فى الساعة وكانت قد بلغت الحادية عشرة إلا ربعاً .

فالقطار الصعيدى ما يزال ينتظر على الرصيف ، وأستطيع أن أدركه

إذا بادرت بالسير من لحظتى . وفى دقيقة واحدة كنت خارج الباب وجريت إلى الشارع لأبحث عن سيارة أجرة فكنت فى المحطة قبل سفر القطار بخمس دقائق .

٢٢

كانت عودتى إلى منزلنا فى الصباح مفاجأة سارة عند ما فتحت أمى الباب ورأتنى أمامها . وصاحت قائلة :

ـ سيد ؟ صباح الخير يا حبيبى . صباح النور !

وكانت منيرة واقفة وراءها تقول فى مرح :

ـ طبعاً يا ستى هل الهلال .

وصافحتنى بعد أن تركتنى أمى وهزت يدى قائلة :

ـ ها هو ذا لم ينقص شيئاً يا أمى ، أتدرى يا سيد أنها حلمت بالأمس أنها رأت الهلال يظهر لها مثل خيط رفيع فاعتقدت أنك مريض؟ الحمد لله على السلامة !

وأخذت أمى تدعو لى ونحن صاعدون فى السلم ، واستمرت منيرة تتحدث من ورائنا قائلة :

ـ أتعرف يا سيد من كان عندنا أمس ؟ ألا تذكر عمتنا (بهانة)؟ لم أكن أعرف أنها ظريفة هكذا . وعمى محمود وأولادهم عمر وسيد وحليمة .

وقالت أمى : اسم الله عليه سيد ، عاشت الأسامى . الخالق الناطق

هو سيد بعينه .

فقالت منيرة : أظنه أجمل قليلا .

وضحكنا جميعاً ودخلنا إلى غرفة الجلوس وكنت شديد التلهف إلى سماع أخبار منى ، ولكن منيرة استمرت فى وصف عمّها وأولادها وزوجها السمين الذى أصبح غنيًّا يذهب إلى الإسكندرية فى الصيف .

وقلت لأوجه الحديث إلى منى :

ـ وصلنى الخطاب بالأمس ولكنى لم أقرأه إلا فى الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً ، ولهذا أخذت القطار (الصعيدى) لأكون هنا فى الصباح .

فصاحت أمى : الصعيدى ! الحق علىّ يا ابنى . طبعاً انشغل بالك علينا .

فعادت منيرة تقول : الحمد لله على السلامة يا أستاذ . أظنها فرصة طيبة للذهاب إلى الإسكندرية بضعة أيام . (ڤيلا كولونا) محطة فلمنج أول شارع على اليمين . هذا هو العنوان الذى تركته عمتى حتى نجيب دعوتها . احفظ العنوان من فضلك .

وكانت تريد أن تمضى فى حديثها ولكنى قلت مختصراً :

ـ ماذا حدث لمنى ؟

فقالت أمى : منى ؟ هى بخير يا ابنى ! مالها منى ؟

فقلت : ألم تكتب لى منيرة أن أحضر لأمر هام يتصل بها .

فقالت منيرة : لم أقل إنه يتصل بمنى يا حضرة . لا بأس على الذاكرة !

فبلعت ريقى قائلا : ماذا حدث إذن ؟

وتذكرت حقاً أن منيرة لم تقل إن الأمر يتصل بمنى .

وقالت أمى : كنت من أسبوع هناك ، مسكينة الست نور ، من يوم رحمة المرحوم وهى دائماً بخير . وجاءت منى إلى جنبى — الله يحميها وأفرح لك بعروس مثلها ! والنهاية سمعت الست نور تشتكى من دفع عشرة آلاف جنيه لحمادة الأصغر .

وغلى الدم فى رأسى وصحت أنا الآخر :

— عشرة آلاف جنيه !

فأجابت أمى : سألت الست نور هذا السؤال فقالت إن محمد باشا دفعها . طبعاً من مال المرحوم ، لأنه الباشا هو الذى يتولى إدارة المحلج والأطيان . نسايب طبعاً .

وقمت واقفاً فى غضب :

— لص طبعاً ! ألم تقولى لها إنه لص . ألم تقولى لها إنه نصاب أفاق دنىء مغتصب .

فقالت أمى : أقول لها يا بنى ؟ أقول لها إن الباشا لص ؟ عيب يا ابنى ؟ حزنت والله يا ابنى من أجل الخسارة بغير فائدة ، وقلت فى سرى ياليتك يا ابنى ما تعرضت للخبيث المحتال حمادة .

حمادة يأخذ من الست عشرة آلاف جنيه ؟ ماذنبك يا بنى تخسر مائة جنيه ؟ قلت أرسل إليك كلمة حتى تعرف . لكن الشرح فى الخطاب يطول وأنا أحب أنك تعرف كل شىء ، وتتصرف مع حمادة الأصفر لتسترد منه المائة جنيه . كان يهون على يا بنى دفع أى مبلغ . والله يا بنى كنت فى الليل والنهار أدعو لك لأنك حفظت جميل السيد أحمد جلال .

ولكن حرام ! أنت أولى بمالك ومالك حلال بعرق الجبين .

وكنت منصرفاً إلى حديث حانق فى ضميرى واستمرت أمى تتكلم وأنا أستمع إلى أقوالها كأنها منبعثة من غرفة بعيدة . وكنت أفكر فى الباعث الذى جعل محمد باشا يدفع عشرة آلاف جنيه لحمادة الأصفر إن كان قد دفعها حقاً . لقد مزقت الورقة التى كان حمادة يساوم بها . مزقتها بيدى و رأيت عليها إمضاء السيد أحمد جلال التى أعرفها . لم يكن ذلك حلماً وأمى تعرف أنى أخذت منها الجنيهات المائة لأدفعها إلى حمادة .

وسألت أمى فى دهشة حانقة : ألا تذكرين الليلة التى أخذت فيها المائة جنيه منك ؟ ألم أقل لك إنى دفعتها إلى حمادة ؟ أكاد أشك فى عقلى .

فأجابت أمى : الله يحميك يابنى ويحمى عقلك . طبعاً أتذكر . فداك مائة جنيه وألف جنيه ولكنك معذور يا بنى .

فقلت مندفعاً : لم يخطر فى بالى أن هذا الخبيث يدور من الناحية الأخرى مثل الثعلب فى حظيرة الدجاج . . حمادة يحلم بألف جنيه ؟ حمادة يأخذ عشرة آلاف جنيه ؟ لا بد أن فى الأمر مؤامرة أخرى .

وكنت متعباً إلى حد الإعياء من السفر فى الليل والقطار الصعيدى البطىء ، ولكنى فكرت فى القيام من ساعتى للبحث عن حمادة الأصفر لأناقشه الحساب . وهممت بالقيام ناظراً فى ساعتى وكانت ما تزال السابعة صباحاً .

فقالت أمى فى دهشة : إلى أين يا سيد ؟ اقعد قليلا يا ابنى ولا تضايق نفسك . يا منيرة جهزى الشاى يا بنتى ولقمة صغيرة . مسكين يا ابنى الحق على لأنى أزعجتك . . مسكينة يا بنتى ، الله يرحم السيد أحمد جلال

كان أمله ومنى عينه أن يرى عرس منى ولكنها آجال . النهاية يا ابنى الحمد لله الموضوع انتهى . ولما أردت القيام قامت منى توصلنى وقالت لى بلغنى سيد أفندى أن الموضوع انتهى . والله يا ابنى خرجت الكلمة من لسانى وقلت لها « الله يخيبه حمادة الأصفر لأنه أخذ الثمن مرتين» . لا تغضب يا بنى والله ما ملكت نفسى. واندهشت منى وقالت « مرتين ؟ » ولما قلت لها الحكاية كلها ظهر عليها التأثر وقالت « لا بد لى من سؤال سيد عن الحقيقة » ، وحلفتنى أن أبعث إليها فى أول مرة تأتى فيها إلى دمنهور . ولكنى خفت أن الموضوع يبرد وقلت لمنيرة يا بنتى سيد غاب عنا من شهور ، اكتبى له يحضر فى مسألة ضرورية ، من جهة نطمئن عليك ومن جهة ثانية . . . .

وقلت مقاطعاً أمى : إذن هى مؤامرة ثانية لعصابة أخرى من الأنذال بقصد السطو على منى . هذا الباشا يريد أن يلعب بها على ما يظهر ولا بد لى أن أقابله وجهاً لوجه كما قابلت حمادة الأصفر فى المرة الأولى .

فقالت أمى فى فزع : ماذا تقول يا سيد ؟ تقابله وجهاً لوجه ؟ يا ليتنى لم أبعث إليك ولم أقل لك شيئاً . ما لنا والباشا ؟ لا تقابل الباشا وابعد عنه وكفاك الله شره يا بنى . انتظر حتى تهدأ يا سيد ثم اذهب إلى حمادة الأصفر .

وجاءت منيرة بعد قليل فوضعت صينية الشاى على المنضدة وقربتها منى وأخذت تملأ الفناجين ، وجاهدت نفسى حتى استطعت أن أنتظر . وعادت منيرة إلى حديث العمة وأولادها ولكنى كنت منصرفاً إلى التفكير فى المسلك الذى ينبغى لى أن أسلكه . كنت حائراً لا أدرى من أين أبدأ ،

ولما فرغت من الإفطار كانت الساعة الثامنة من الصباح .

فقلت لأمي : أظن الأحسن أن تأتي منيرة معي إلى « البقالة الرشيدة » لتحدث مني بالتليفون وتخبرها بوجودي هنا .

فقالت منيرة : ما شاء الله ! استفتاح عظيم أن أذهب إلى المحل في الساعة الثامنة وأطلب منه كلمة تليفونية . ألا ترى أنك أيضاً في حاجة إلى غسل وجهك ومسح التراب عن ملابسك كما أني لا أستطيع الخروج هكذا ؟ .

وتذكرت عند ذلك فقط أني في حاجة إلى شيء من الاستعداد للخروج في المدينة ، وأن الناس لا يستقبلون أحداً في بيوتهم في مثل هذه الساعة .

ولما صارت الساعة التاسعة كنت أكثر هدوءاً واستراحة بعد أن اغتسلت وغيرت ملابسي التحتانية ونظفت ملابسي من الغبار . ولكني عند ما عزمت على النزول كانت منيرة ما تزال تستعد وتمشط شعرها ، ولما استعجلتها صاحت من داخل الغرفة :

— تفضل أنت فإني غير محتاجة إلى خفير .

فنزلت وحدي متجهاً إلى المحطة لأبعث تلغرافاً إلى بريد الأحرار معتذراً عن غيابي ، ثم واصلت سيري إلى بيت صاحبي عبد الحميد بعد أن استقر رأيي على الابتداء بزيارته .

واستقبلني عبد الحميد كأنه على موعد سابق مني ، فصافحني في حرارة ولكنه لم يظهر دهشة . ولمحت على وجهه نحولاً أشد مما لمحته في المرة السابقة ، وكانت حلقة زرقاء تحيط بعينيه ، وخيل إلى أن ظهره

بدأ يتقوس . ولكن الابتسامة التى أضاءت وجهه أزالت عنى شعور الوجوم الذى هجم على عند ما وقعت عينى عليه . ودخلنا إلى الغرفة القديمة ، وبدأنا نتحدث فى السياسة . السياسة دائماً ! وقلت لأغير الحديث : كيف أنت ؟

فقال : كما ترانى . وكيف حالك أنت ؟

فقلت : كما كنت منذ سميتنى دون كيشوت .

فابتسم صامتاً وانتظر أن أستمر فى الحديث فقلت :

— لم تكن مخطئاً عند ما سميتنى بهذا الاسم وأرجو أن تكون صديقاً عاطفاً كما كان سانكو بانزا .

فقال : إذا شئت أن يكون الشبه واضحاً كل الوضوح فأرجو أن أعرف هل تمكنت من الفوز بقلب الأميرة الجميلة .

فقلت : لك أن تقول ما شئت ولكن . . .

فقاطعنى قائلا : أليس من العجيب أنك لا تجرؤ أن تقول لها إنك تحبها ؟ هل تحبها حقاً؟

فقلت : ماذا يدعوك لهذا السؤال ؟

فقال : الناس كثيراً ما يغرمون بالخيال ويفرون من الحقيقة . كثير من الشعراء الذين ملأوا الدنيا بكاء وغناء كانوا لا يحبون النساء أنفسهن بقدر ما كانوا يحبون صورهن الخيالية . فإذا أتيحت لهم الفرصة للفوز بمن يحبون سكت غناؤهم فجأة ، وكثير منهم أصيبوا بالخيبة .

فقلت فى حنق : وماذا تقصد بهذا ؟

فقال فى هدوء : أقصد يا سيدى شيئاً بسيطاً وطبيعياً . لم يفت الوقت

بعد . لا تدر حول نفسك هكذا من بعيد وتترك خصمك ينتزع منك كنزك وتساعده على أن يأخذه منك . إذا كنت حقاً تريد (منى) فاذهب من ساعتك هذه إلى بيتها وافتح لها صدرك . وإذا أردت أن تمثل دور دون كيشوت إلى نهايته فإنك تستطيع أن تركع تحت قدميها وتقبل طرف حلتها الحريرية وتقول لها « ها أنذا أضع قلبى تحت قدميك »

ورنت كلماته الساحرة فى أذنى قاسية لأنها مثلت لى الحقيقة . ألم أمهد لخصمى أن ينفرد فى الميدان وفررت إلى القاهرة بغير أن أوجه كلمة إلى منى ؟

وأخذت أسأل نفسى عن السبب الذى يمنعنى من أن أفتح صدرى لها كما يقول صاحبى . أ أخشى أن تسخر منى ؟ أهذا ممكن ؟ ولكن إذا كان هذا ما أخشى فلماذا لا أواجه الحقيقة وأنتهى ؟

وجلست صامتاً أنظر إلى أمامى وانصرف صاحبى إلى داخل المنزل وتركنى وحدى ، ولو كنت فى تلك اللحظة أعرف ما أريد حقاً لقمت مسرعاً إلى بيت منى لأقول لها ما كان يضطرم عند ذلك فى صدرى . من يستطيع أن يملأ قلبى سوى منى ؟ من يمكن أن أعيش من أجله غيرها ؟ رأيت مئات من الفتيات والسيدات وكنت بفضل مهنتى أختلط بطبقات الشعب على اختلافها . رأيت الحسان والأنيقات والغوانى والمغامرات والمطلقات والخفرات من كل سن ولون، فلم أجد فيهن من تسترعى منى التفاتة . وفطومة التى كانت معى منذ ليلة ! ألم تتجلى لى الحقيقة واضحة عند ما رأيتها ساحرة الحسن ولكنها مخيفة ؟ ألم أعرف أنها لم تخلق لى ولم أخلق لها لأنها لا تزيد على أنثى . ألم أقل لنفسى إن الحياة كلها لا تحتوى

على فتاة غير منى ؟ فماذا يجعلنى أتردد ؟

ودخل صديقى فى تلك اللحظة حاملا معه بعض الفاكهة، واعتذر بأن الخادم فى إجازة . ياللأنانية ، لم أسأله عن صحة أمه التى عرفت فى المرة الماضية أنها مريضة .

وقلت له : كيف حال عمتى ؟

فأطرق قليلا وقال : فى رحمة الله يا صديقى .

وأطرق حزيناً .

فتمتمت قائلا : إنا لله وإنا إليه راجعون .

وشعرت بوخزة شديدة من الأسف كما عتبت فى ضميرى على أمى لأنها لم تخبرنى .

وبقيت جالساً فى صمت وتردد كأن ذهنى متوقف . هذا الصديق الذى أضيق أحياناً بسخريته والذى يدهشنى بقوة إرادته التى تصل إلى حد الجمود ! هذا الصديق العجيب الذى يبدو لى أحياناً كالحجر الصلد مع أنى أعرفه إنساناً كامل المروءة كبير القلب واسع العقل . كيف تجتمع كل هذه الأضداد فى شخصية واحدة ؟ وهذا الحزن الذى يفوح من نظرته ومن إطراقته ومن أنفاسه التى يحاول كتمانها ! المسكين ينطوى على نيران تضطرم فى أعماقه ولكنه لا ينبس عنها. والتفت إليه وتبادلنا ابتسامة ضئيلة حزينة وأحسست نحوه عطفاً شديداً لم أستطع أن أعبر عنه بالألفاظ .

وقلت له : متى ؟ أجاب : منذ شهر .

فأشفقت أن أنطق له بكلمة مواساة لأنى لم أجد كلمة تعبر عن حقيقة مواساتى . ومددت يدى إليه فى صمت فضغطت على يده وخرجت

من البيت لا أدرى إلى أين اتجه . هل صديق هذا إنسان من البشرية الضعيفة ؟ أهذا نقص فيه أم هو امتياز ؟

وسرت فى الطريق حائراً كئيباً وكانت الحوانيت على الجانبين مزدحمة والشارع يموج بالناس ، بعضهم يسرع نحوى ليحييني ، وبعضهم يصيح بى بالتحية من بعيد وأنا أتكلف البشاشة والإجابة ، وانحدرت فى أول طريق على يسارى نحو الترعة ، وكانت هناك الحانة القذرة التى تعود حمادة أن يجلس فيها . ولكنه لم يكن هناك والخواجه مانولى ما يزال واقفاً وراء منضدته العريضة ينظر إلى الخارج نظرة جوفاء . وخطر لى أن أدخل إلى الحانة لأسأل عن حمادة الأصفر ولكنى لم أفعل . ولما بلغت جسر الترعة عرجت إلى اليسار حتى وصلت إلى كوبرى قلاقة ثم انحدرت إلى الشارع المؤدى إلى المدينة تاركاً قدمى تحملانى حيث تريدان . وعدت إلى منزلى كاسفاً حزيناً كأنى لم آت إلى دمنهور إلا لكى أقطع الطريق هكذا ذاهباً آيباً وأنا حائر حزين .

ولما وصلت إلى منزلى كنت ما أزال أحدث نفسى أحاديث متناقضة ، ولقيتنى أمى عند ما أحست بمقدمى فبادرتنى قائلة « هل قابلت الباشا ؟ » فهززت رأسى واتجهت إلى غرفتى ، ولكنى سمعت صوت منيرة وهى تنادينى من المطبخ :

— أنت مدعو إلى الشاى عندى فى الساعة الخامسة تماماً . وسيكون ضيف الشرف الآنسة منى .

ولم أدر كيف استطعت أن أمنع نفسى من صيحة الدهشة التى كادت تخرج من صدرى . ثم أخذت أسأل نفسى أين تكون هذه

الدعوة ؟ وفى أى موضع نستقبل منى ؟

ودخلت إلى غرفتى وذهنى يدور مسرعاً . ماذا أفعل إذا أتت منى ؟ هل أنزل إلى الباب لأستقبلها ؟ وأين تجلس فى هذا المنزل المسكين ؟ إنها جرأة عجيبة أن تقدم منيرة على هذه الدعوة وغرفة الانتظار لا تزيد على ثلاثة أمتار فى أربعة ، ولا تطل إلا على منور بنافذة صغيرة .

ونظرت إلى الساعة فوجدتها ما تزال الحادية بعد الظهر ، كأن عقاربها لا تتحرك . وقمت لأبحث عن شىء أقرأ فيه ووجدت على مكتبى قصة إنجليزية رخيصة ، فجعلت أقرأ فيها لعلى أقطع بها الوقت ، ولكن ذلك لم ينفعنى بشىء لأن ذهنى كان يدور مسرعاً . ولما ضقت بالقراءة رميت بالقصة على المكتب وقمت لأستريح . ومع كل ما كان فى ذهنى من الخواطر والهواجس غلبتنى الحاجة إلى النوم فلم أستيقظ إلا عند ما نادتنى أمى للغداء وكانت الساعة الثانية والنصف . وتكلفت أن أكون عادياً فى مظهرى وحديثى على المائدة ، بل أنى تكلفت شيئا من الخفة والمرح وقلت بعض كلمات مجاملة بالإعجاب بالطعام .

وسألت منيرة : ما هذا الشاى الذى تتكلمين عنه ؟

فقالت : عندى يا أفندم . فهل تتنازل ؟

وتبسمت هذه المرة صادقاً .

وأخذ قلبى يدق فى ضعف ، وسألت نفسى هل أتماسك إذا قابلتها ؟ أم أرتبك ويلتصق لسانى بحلقى كما فعلت من قبل مراراً .

وأخذت منيرة تصف لنا الأصناف التى أعدتها للشاى ، ودخلت أمى معها فى مناقشة عميقة لم أفهم منها شيئاً لأنها كانت على مقادير

الزبد والسكر والدقيق والبيض التى صنعت منها كعكاتها وأطباقها ، ومنيرة تزعم دائماً أنها فى هذه الميادين لا تبارى .

ولما فرغنا من الطعام عدت إلى غرفتى وكانت الساعة الثالثة والربع ، فما تزال ساعتان إلا ربعاً بيننا وبين زيارة منى .

٢٣

كانت الدقائق تمر بطيئة وأنا فى غرفتى كأن عقاربها مسمرة ، وكلما سمعت صوتاً أو خبطة خيل إلىّ أنه باب سيارة منى . فأذهب إلى النافذة مسرعاً حانق القلب فلا أرى شيئاً . وأعود بالخيبة مرة بعد أخرى بغير أن يمنعنى الإخفاق من العودة إلى التجربة . ولما ضاق صدرى من ذلك خرجت من الغرفة لعلى أقطع الوقت بالحديث أو الحركة فرأيت أمى تصلى العصر وهى فى العادة تبطئ فى الصلاة حتى يخيل إلى أحياناً أنها لا تريد أن تفرغ منها . فذهبت أبحث عن منيرة ولكنى لم أجدها ، فصعدت إلى السطح لعل الهواء الطلق والنور واتساع الفضاء تدخل الهدوء إلى نفسى . وكانت السماء صافية والحقول خضراء واسعة تترامى من وراء البيت إلى مدى البصر . واسترعى نظرى وجود مجموعة من قصارى الزهر موزعة فوق السور ومنثورة فى الأركان . وفى الركن الأقصى المطل على الحقول بعض مقاعد صغيرة من فوقها أغطية حريرية ومن تحتها قطعة نظيفة من الكليم ، وطبلية مستديرة فى الوسط عليها غطاء أبيض كأنها مائدة ،

فصار الركن كأنه مجلس أنيق فى حديقة معلقة . وتبسمت مرتاحاً لأن منيرة استطاعت بذوقها ولباقتها أن تحل مشكلة غرفة الاستقبال التى كنت أحمل هم الجلوس فيها . وأخذت أسير فى السطح حيناً وأنظر إلى ما حول البيت حيناً ، وكان الانتظار فى الجو المفتوح أرفق بى . وحلت الساعة الخامسة آخر الأمر وجعلت أرهف سمعى انتظاراً ولكنى لم أسمع حساً إلى أن صارت الساعة الخامسة والنصف ثم السادسة حتى بدأت أشك فى حقيقة الزيارة الموعودة .

ثم سمعت ضحكة منيرة وهى صاعدة على السلم تتحدث فى مرح . فقمت مسرعاً ووثب قلبى ليستقبل منى ، ولكنى ما كدت أصل إلى أول السلم حتى وقفت متردداً وبدأ الارتباك يستولى علىّ ، فتباعدت سائراً إلى الناحية الأخرى من السطح وانتظرت هناك . وظهرت منى صاعدة فأسرعت إليها محاولا أن أظهر هادئاً ، ورأيت على وجهها بسمة صغيرة تشبه ابتسام الدهشة . فمددت إليها يدى الاثنتين قائلا : « أهلا وسهلا ومرحباً » ونظرت فى عينيها لحظة قصيرة كأنى أنظر إلى بحر عميق صاف .

وقالت منيرة : أنت هنا ؟ وبغير أذنى ؟

ولكنى كنت منصرفاً إلى منى أقول لها :

— أى فرصة سعيدة !

وكان صوتى متهدجاً ولكن الاضطراب الذى كان يغمرنى وأنا وحدى لم يبق له أثر ، فإن السفينة الضالة فى المحيط وجدت آخر الأمر مرفأها

وأشارت منيرة إلى الركن قائلة :

— تفضلوا .

لا مؤاخذة يا منى فى استقبالك هنا ، ولكنه أعظم كازينو فى دمنهور.
كازينو أبو طاقية من فضلك !

ونظرت منى إلى المقاعد وإلى قصارى الزهر ثم إلى الحقول الخضراء وقالت فى ارتياح :

— هى الحقول التى كنت أعرفها وما أزال أذكر عند ما كنا نخرج إليها فى مثل هذه الساعة . كم سنة مضت من ذلك الوقت يا منيرة ؟

فقالت منيرة ضاحكة : لا تكشفى عن أسرار سننا يا منى . قولى منذ خمس سنوات .

فابتسمت منى قائلة : لم يحن بعد وقت إخفاء سننا . ربما أبدأ فى ذلك بعد عام .

فقالت منيرة : يعنى أننى على حق فى البدء منذ الآن .

وضحكنا جميعاً وجلست منى على مقعد وهى تقول : هل مضت كل هذه السنوات سريعاً . ولم يتغير شىء سوى أننى كنت أرى الحارة أوسع مما هى الآن . كانت فى نظرى مثل عالم فسيح وكان الرصيف الذى أمام منزلنا كأنه ميدان .

وتذكرت تلك الأيام التى كانت فيها منى طفلة تركب فوق كتفى كلما رأتنى وتدلى ساقيها من أمام ، فأجرى بها كأنى حصان وهى تهز رجليها وتضحك مكركرة وتأبى أن أقف .

السنوات تمر سريعة حقاً وسوف تمر سريعة دائماً ، ومن يدرى ؟ هل نقف يوماً بعد عدة سنوات إذا جمعتنا المصادفة مرة أخرى فتقول منى إن السنين تمر سريعاً ؟ وهذه اللحظة التى نحن فيها ستكون هى الأخرى

صورة تنظر إليها من بعيد لتقول إننا اجتمعنا يوماً هناك فوق السطح . وسأحدث نفسي قائلا إنني وقفت أنظر إلى منى كما أنظر إلى روضة مزدهرة فى فصل الربيع ، وأحدث نفسي عنها بغير أن أقول لها كلمة ، وسمعت منى تقول :

ــ كيف ترى دمنهور بعد عودتك إليها من القاهرة .

فقلت كالحالم : أراها أعز البلاد وأجملها .

وقالت منيرة ضاحكة : طبعاً لأننا هنا . أشكرك يا سيد بيه بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن منى . وعن أمى أيضاً . مرحباً يا ماما !

والتفتنا جميعاً لنرى أمى وهى مقبلة علينا بوجهها الأبيض السمين . هى أيضاً ذات عيون زرقاء وكأنى لم أر لون عينيها إلا فى تلك اللحظة . كانت أمى تبتسم بكل جوارحها عند ما أخذت منى بين ذراعيها قائلة ! :

ــ ألف نهار أبيض يا حبيبتى . شرفت يا منى ! ويوم سعيد بحضورك إلينا . زيارة عزيزة يا حبيبتى !

وجلست على المقعد الذى أشارت إليه منيرة بحركة تمثيلية واستمرت أمى تقول :

ــ والله يا بنتى . بودى أن أزوركم كل يوم ولكن المشاغل تمنعنى . تعالى هنا إلى جنبى ، ربنا يحميك ويفرح قلب ماما وقلبنا بك . إن شاء الله تكون صحتها متحسنة .

وجلست منى إلى جنبها قائلة :

ــ الحمد لله يا خالتى ، وكانت تود أن تأتى معى .

وهمت منيرة قائمة وهى تقول : ما دمتم تعارفتم هكذا فاسمحوا لى أن

أجهز لكم الشاى بصفتى مديرة الكازينو . كازينو أبو طافية يا ما ما !

وتلفتت أمى حولها قائلة :

— جميل والنبى يا بنتى ، ومنور بوجودكم . تعال هنا يا سيد يا بنى . والنبى يا بنتى مارضى ينتظر للصبح وسافر على هنا فى القطار الصعيدى ، لما وصل إليه الجواب .

وجلست إلى الناحية الأخرى من أمى وبدأ وجهى يتقد

واستمرت أمى تقول :

— الحق يا بنتى لما سمعت الحكاية قلت لمنيرة « ابعثى لسيد — قولى له يحضر حالا . » عشرة آلاف جنيه يأخذها حمادة الأصفر ؟ وبعد ما أخذ سيد الورقة منه ؟

وسكتت لحظة من تأثرها فتنفست مرتاحاً

وقالت منى فى هدوء : المهم يا خالتى أن المسألة انتهت بخير والحمد لله . وأنا آسفة لهذا التعب والسفر فى القطار الصعيدى .

وابتسمت ناظرة نحوى .

فقالت أمى : وحمادة الأصفر الخبيث ؟ حرام والله يا بنتى .

فقلت فى دفعة : ليس المهم أن يأخذ حمادة الأصفر أو لا يأخذ . المهم أننى لا أعرف كيف تمكن من المطالبة . بأى وجه ذهب ليطالب ؟ عند ما سافرت من هنا فى المرة الماضية كانت المشكلة كلها قد انتهت .

فقالت منى : علمت ذلك من خالتى . وتأسفت لأنى لم أعرف فى وقتها حتى أشكرك يا سيد . وهذا هو السبب فى أنى طلبت من خالتى أن تعرفنى بحضورك .

فقلت فى شىء من الخجل: لم أفعل شيئاً يستحق الشكر يا منى . ولهذا تعمدت أن أسافر بغير أن أذهب إليك . لم أعرف أن هذه غلطة إلا عند ما حضرت إلى هنا . بالأمس فقط عرفت غلطتى وآسف جداً لأنى تسببت فى هذه الخسارة . . . .

وقاطعتنى أمى : والله يا بنتى دعوت له ليلتها ودعوت لك أيضاً ولم يخطر فى بالى أن حمادة خبيث لهذه الدرجة .

فقالت منى بصوت خافت : على كل حال انتهت المشكلة والحمد لله ، وأود أن أقول إن الفضل فى حلها بكل تأكيد يرجع إليك يا سيد . من يدرى ماذا كان يحدث لو لم تنتزع أنت الورقة من يد هذا الرجل ؟ عند ما سمعت أنه أخذ عشرة آلاف جنيه لم أصدق أذنى . لن أنسى يا سيد أنك وقفت هكذا إلى جنبى فى الوقت الذى كانت المعركة دائرة حول سمعة أبى .

فقلت متأثراً: أنا سعيد جدا يا منى بأن أقف إلى جنبك دائماً . ولكنى لا أفهم كيف توصل هذا الرجل إلى العودة إليكم بعد سفرى . ماذا كان فى يده حتى يأخذ هذا الثمن الفادح .

فقالت منى : ربما كنت أنا المسئولة عن كل هذا ؟ عند ما علمنا بسفرك حسبنا أن الموقف لم يتغير . ومع أنى كنت أشعر بأنك لا يمكن أن تسافر هكذا فجأة بغير أن تكون قد تدخلت فى الموضوع كما قلت ، فإنى لم أعرف الحقيقة . وجاء محمد باشا يعرض علينا تسوية الموضوع مع حمادة ، فلم أفكر فى شىء سوى أن أخرس الألسنة النجسة وأن أوقف المعركة التى كانت تدور حول سمعة والدى .

فقلت فى دفعة : ولكن لماذا يدفع الباشا عشرة آلاف جنيه ؟ نظير أى شيء ؟ .

فقالت : لم نفكر فى شيء سوى أن تنتهى المشكلة .

واستمرت دفعتى : والباشا . كيف يدفع مبلغاً مثل هذا بغير أن يعرف لماذا ؟ أهو أبله ؟

اسمحى لى يا منى أن أقول إنى لا أفهم . لا مؤاخذة. لو لم يكن ذلك الشخص هو الباشا لقلت إنه لص .

ووقفت قليلا ثم نطقت بصوت بكاء يحتبس :

— لا مؤاخذة يا منى لأنى أتكلم هكذا مع علمى بالرابطة التى تربطك به .

فضحكت قائلة : رابطة ؟ هذا موضوع آخر . ولكن ماذا كنت أعمل ؟ أكنت تنتظر منى أن أسأله هذه الأسئلة التى تذكرها ؟

ولم أفهم قولها فسرت أخطو بطيئاً نحو سور السطح وجعلت أجيل بصرى فى الحقول مفكراً فى معنى قولها « هذا موضوع آخر » ولماذا ضحكت وهى تقول « رابطة » ؟

والتفت نحوها قائلا : إنى آسف حقاً يا منى . دائماً أحاول أن أمسح غلطتى فى غيرى ولا أعرف غلطتى إلا متأخراً .

وجاءت منيرة تحمل الصينية الثقيلة لتضعها على المائدة المنخفضة .

وقالت : دائماً لا تعرف غلطتك إلا متأخراً : ولهذا تقف هكذا كأنك لا ترانى ولا تتقدم لمساعدتى .

فبادرت بحمل الصينية عنها وقامت منى أيضاً معنا وجعل كل منا

يعمل من جهته على تحويل الأكوام المكدسة فوق الصينية إلى شيء يشبه مائدة منتظمة : الفناجين وأطباق الحلوى والفطائر والشطائر التي كانت متراكمة بعضها فوق بعض .

وأخذت منيرة ومنى تتعاونان في الخدمة ، وقدمت منى إلى فنجاني ؛ فتمنيت لو وقف الزمن إلى الأبد وأنا أنظر إلى عينيها الباسمتين .

وقلت لها بصوت هامس بالفرنسية — بالكلمة التي حفظتها عنها :

— ألف شكر .

وتذكرت الورقة التي ما زلت أحتفظ بها في قرآني الصغير .

واستأذنت أمي لتنزل استعداداً للإفطار لأنها كانت صائمة في يوم نصف شعبان ، وذهبت منيرة معها لتعد لها إفطارها وحملت نصيبها من الوليمة في طبق كبير .

فجاءت منى بفنجانها ووقفت قريباً مني متجهة إلى الحقول ، وأحسست قلبي يخفق في عنف وكدت أهمس لها قائلا : « أتعلمين أني أحبك كما لا يستطيع أحد أن يحب ؟ »

ولكني سمعت نفسي أناديها بصوت متهدج : منى !

وبعد أن نطقت باسمها ارتبكت ولم أعرف ماذا أقول لها بعد هذا .

وشعرت أنها انكمشت قليلا وهي تنظر نحوي .

وكان وجهي يتقد في ارتباكي ولكن نظراتها الصريحة الصافية كانت تتنفس بالسلام والثقة ، وكان وجهها الخالي من كل زينة مصطنعة يشبه طلعة الفجر في بواكير الصيف ، فامتزج ما في قلبي من الحب العميق الغامر بشعور آخر من الاحترام والرحمة القوية الغامرة ، وصار أبعد شيء

منى أن أقول لها كلمة تسبب لها حرجاً،ولم يبق عندى أثر من الارتباك عند ما قلت لها :

ـ عندى سؤال سخيف فأرجو عفوك ، ولك أن تمتنعى عن الإجابة .

فقالت فى بساطة : وماذا يمنعنى ؟

فقلت فى همسة : هل لى أن أسألك عن نفسك ؟ أ أنت سعيدة ؟ أقصد هل أنت سعيدة بهذه الخطبة ؟

فقالت بغير تردد : لم أفكر فى هذا .

فقلت فى دفعة : فى مستقبلك ؟ فى شركة حياتك ؟ أهذا غير جدير بالتفكير ؟

فقالت : ثق أنى لم أفكر فى هذا . كنت فى حياة أبى أرى الدنيا كلها من خلال شخصه . وكان وجودى كله منطوياً فى وجوده . ولما فقدته فجأة ذهلت عن كل شىء حتى عن نفسى . وهذه العاصفة التى تعرفها ، متى كنت أجد فراغاً للتفكير فى أى شىء ؟

فقلت فى عناد : عندك فكرة عامة على الأقل . أرجو ألا يكون سؤالى تطفلا .

فقالت فى حرارة : بل إنى أشكرك على اهتمامك وكنت دائماً واثقة فى صداقتك .

وشعرت بأن النسيم يحمل إلى صدرى إكسير السعادة وقلت فى مرح :

ـ هذه الحارة تشهد بصداقتى القديمة، أليس كذلك ؟

أتذكرين يا منى طفولتك هنا ؟ أما تذكرين سوى أن هذه الحارة كانت فسيحة .

فتبسمت قائلة :

ــ أذكر أشياء كثيرة . بائعة الفول التى كنت أقلد نداءها ، والشحاذ الأسود الذى كنت أفزع منه ، وجحش عم إسماعيل الذى كان يأكل الخس من يدى ، والرجل الذى كان يصور لنا تماثيل العرائس والخيل من الحلاوة العنبر .

وأضفت قائلا : وسيد زهير الذى كان يحسن الصهيل .

فضحكت ضحكة خجلى وقالت : وينزلق فى يوم المطر حتى نقع معاً فى بركة الطين .

فشاركتها الضحك قائلا : لأنك رفضت أن أجرى على مهلى ، وهززت رجليك بعنف فوق صدرى لأجرى .

وجاءت منيرة فى تلك اللحظة فقالت :

ــ أريد أن أشارك فى الفكاهة .

فقلت : ما تزال منى تذكر يوم وقعنا فى بركة الطين وأنا أجرى بها كالحصان .

فقالت : ووقفت أنا على الرصيف أبكى معكما . مالكما تقفان هكذا بفنجانين فارغين ؟ إذن لماذا تعبت فى صنع هذه الفطائر ؟

فسرنا إلى الركن وأخذت منيرة توزع علينا أصنافها ولا أدرى أكانت فى الحقيقة ممتازة أم كانت سعادتى تجعلنى ألذ كل شىء حولى . كان ضوء القمر بديعاً ورفيف النسيم منعشاً وكل ما تذوق شهياً . وكان الحديث فوق هذا كله فكهاً ممتعاً بفضل حضور منى وإشارات أختى وخفة روحها .

وكانت الساعة التاسعة عندما استأذنت منى للعودة إلى منزلها ، وأصرت

فى هذه المرة بعد تساهلها فى عدة محاولات سابقة .

ونزلت لأسير معها حتى تركب ، وكانت عربتها واقفة عند رأس الحارة على مقربة من ضريح أبى طاقية ،وكان الطريق لحسن حظنا جافاً على غير عادة .

ومددت ذراعى لها لتستند عليها ،وأخذت كفها فى يدى وضغطت ساعدها إلى صدرى عند قلبى .

وقلت لها : أكون أسعد الناس يا منى إذا وعدت أن أكون دائماً صديقك القديم .

فقالت فى بساطة : وهل أنت فى حاجة إلى وعد جديد ؟ لا أفضل لى إذا قررت هذه الحقيقة .

فقلت بصوت متهدج : وما يترتب عليه ؟

فقالت متهانفة بضحكة صغيرة : أن تزورنا مثلا كلما كنت هنا ؟ لا تنس أنت .

فقلت فى حرارة : هذا واجبى أنا ،أو حقى أنا . وأما واجبك أنت أو حقك فهو أن تفترضى دائماً أنى واقف إلى جنبك .

تعرفين عنوانى طبعا إذا جدّ ما يدعو إلى وجودى هنا. وأما أنا فعنوانك هناك أبعث إليه رسالات فى الصباح والمساء وفى كل ساعة من ساعات الأيام .

وأشرت إلى السماء الصافية فى ضوء البدر الكامل . وكنا قد وصلنا إلى الشارع فتركت منى ذراعى وركبت عربتها وعدت إلى بيتى كأنى أسبح فوق الهواء .لم تقل لى شيئاً صريحاً عن خطبة محمود خلف،ولكنها كانت

عندها أمراً غير جدير بأن تفكر فيه . ألا يكفيني هذا ؟ ألا يكفيني أنها تركت يدها فى يدى كل هذه المسافة بين البيت والشارع ؟ ألا يكفيني أنها دعتنى إلى زيارتها كلما عدت إلى دمنهور ؟ ها هو ذا غرض نبيل أعيش من أجله إذا أردت أن يكون لحياتى مقصد نبيل ، لأنه هو الذى يجعلنى أقدم على كل عمل نبيل . سأعيش لها .

٢٤

عدت فى الصباح التالى إلى القاهرة وذهبت قصداً إلى دار الجريدة، وقبل أن أفرغ من كتابة المقالة النارية التى كنت أكتبها سمعت طرقاً على الباب وكانت دهشتى عظيمة عند ما رأيت أمامى حمادة الأصفر .

— « ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

هذا ما صحت به فى عنف يشبه التهديد .

ودخل حمادة الأصفر مبتسما وعيناه تلمعان لمعاناً شديداً، ولكنه كان شخصاً آخر غير الذى عرفته . كان يلبس ثوباً صوفيًّا نظيفاً فاخراً مما يسميه أهل دمنهور بالـ (بِنِيش) ويبدو من فتحة صدره (قفطان) من الحرير ،وتتدلى من كتفه (كوفية) ذات شراريب طويلة،وعلى رأسه طربوش نظيف، وفى يده منشة من الشعر الأسود ذات مقبض من العاج .

ولم أشك فى أن هذا المظهر الأنيق ثمرة للسرقة التى أعرفها . ولم يجبنى على صيحتى إلا بتلك الابتسامة الجامدة، وذهب إلى أقرب كرسى

فجلس عليه هادئاً كأنه يقول لى : « لست أعبأ بك » . فكدت أنفجر من الغيظ ودفعت الكرسى الذى أنا عليه إلى الوراء وقمت واقفاً وقلت فى حنق :

— من أذن لك أن تدخل عندى ؟

فقال بصوت هادئ :

— هذا لقاء الضيف يا سيد أفندى ؟ يا أخى لست شحاذاً حتى تطردنى هكذا . أهذا جزائى لأنى حضرت إلى القاهرة فى الدرجة الأولى لأبحث عنك ، وكل يوم جنيه أجرة تاكسى أدور فى كل مكان ثم أذهب إلى غرفتك فأبقى فى انتظارك إلى نصف الليل ثم أنام على الكنبة بدون غطاء؟ الحمد لله لأنى لا أريد منك الإحسان ياسى سيد. الدنيا يا أخى ساقية والقواديس العالية تفرغ والتحتانية تملأ . قل للساعى يحضر لى قهوة .

وصفق ليطلب القهوة .

فقلت له متمالكاً نفسى : ألست تخجل من مقابلتى ؟

فقال فى جرأة وقحة :

— كل هذا من أجل المائة جنيه ؟ هذه هى ياسيدى .

وأخرج ظرفاً فوضعه أمامى على المكتب. فتهيجت وقلت :

— أرجو أن تذهب من هنا ، أنت لا تستحق أن أجادلك .

فقال غاضباً : والله لولا أنى أحترمك . . . يا سلام يا سيد أفندى !

ودخل الساعى فوضع الفنجان أمامه وخرج ، وأتاح لى فرصة قصيرة للتفكير فى هذا الوغد وأحسن الطرق فى صرفه عنى بغير أن أفسد على نفسى هدوءها منذ الصباح .

وقلت له : اسمع يا حمادة . لا أرى داعياً لهذا الحديث، ولست أملك وقتى فأرجو أن ينتهى هذا الموقف بسلام . أنت تعرف ماذا كان شعورى نحوك من قبل وماذا يكون شعورى الآن بعد أن حدث منك ما حدث . أنت رجل ؟ أنت إنسان ؟ . . . لا داعى لكثرة الكلام لأنى لا أرى فيه فائدة – ليس بيننا ما يدعو للعتاب ولا للمناقشة . وليس يخفى على أنك ما شاء الله أصبحت فى نعمة عظيمة ، فتفضل فى طريقك أنت من هنا وأنا من هناك ولا أظن أحدنا فى حاجة إلى لقاء الآخر فيما بعد .

ولكن حمادة لم يزد على أن وسع ابتسامته ونظر نحوى ثابتاً وفى نظرته ما يقرب من العطف والتوسل .

فقلت له : أحب أن أعرف كيف تجرؤ على مقابلتى مع علمك بأنك نصاب محتال مجرم ؟ ليس لى إلا طلب واحد وهو ألا تضيع وقتى . لاداعى لكل هذا اللف والدوران لتغطى الموضوع .

فعبس لأول مرة وقال فى تحد : أغطى الموضوع ؟

فقلت فى دفعة : ألم أنتزع منك ورقة الزواج ؟ وأدفع لك ثمنها ؟

فهز رأسه باسماً وقال : طيب !

فقلت فى غيظ : كيف إذن تعود لتطلب الثمن من الفتاة المسكينة منى؟ لو عرفت أن مكرك يبلغ إلى هذا الحد لكنت بقيت فى دمنهور لأوقفك عند حدك .

فضحك ساخراً وقال : الحمد لله ياسى سيد ! لا يوجد فى الدنيا رجل آخر يمكنه أن يوقفنى عند حدى .

فقلت : هذا الأبله الأحمق يدفع لك عشرة آلاف جنيه من مال الفتاة

المسكينة؟!وسرقة ونصب واحتيال !

فصاح : حيلك ! عشرة آلاف جنيه ؟ أى لص وأى نصاب قال هذا ؟

فقلت فى حنق ؟ هل تنكر ؟ هل تجرؤ ؟ هــذه الملابس وهذه المظاهر والدرجة الأولى فى السكة الحديدية وتاكسى وكل يوم كم جنيه . كل هذا وتقول إنك لم تسرقه ؟

فضحك ضحكة طويلة سمعتها كأنى أسمع ضحكة شيطان، وكدت أقوم إليه فأقذف به من الباب ولكنه نظر إلى ثابتاً وقال : الله يسامحك يا سيد أفندى .

اسمع يا سى سيد حكاية ظريفة والله . بعد مقابلتنا فى الليلة إياها جاء لى مصطفى عجوة يدعونى لمقابلة محمد باشا خلف ، فذهبت

والسلام عليكم عليكم السلام اتفضل يا سى حمادة وهات قهوة يا ولد! وكيف الأحوال ؟ والظرف والأدب ، وقال لى : الباشا : اسمع يا حمادة أنت رجل نبيه وعظيم وأحب أن تشتغل عندى . »

وبدأت أستمع إليه فى شغف وبدأت أشم رائحة مكيدة .

وبعد لحظة صمت واستمر حمادة قائلا : أقول لك الحق لعب الفار فى عبى وقلت له : « خدامك يا باشا» ولكنى قلت لنفسى : « خد بالك ياحمادة » !

وعرض علىّ مرتب عشرين جنيهاً فى الشهر مرة واحدة . قلت فى نفسى « عجيبة ! » وحسبت أنه يريد منى مساعدته فى الانتخاب ، لكنى أردت معرفة قرار الحكاية وأظهرت الامتناع . وبدلا من إصراره على العشرين زادها إلى ثلاثين مرة واحدة . قلت بس . لابد أن الحكاية فيها لعبة.

وملت على مصطفى عجوة وسألته عنك . ولكنه هز لى رأسه .
النهاية قلت لا بد أن الباشا لا يعرف حكاية العقد وأنك أخذته منى
قلت فى عقلى : « بعدك يا سيدنا الباشا ! » وقلت له : « أرجوك مهلة إلى
ساعة الظهر . وخرجت أجرى إلى بيتك وقابلت عم عبد الهادى الزيات
على باب الحارة . وسألته عنك . قال لى إنك سافرت فى الصباح وسلمت
عليه من بعيد وقال لك مع السلامة يابو زهير . وعنها ورجعت أجرى
للباشا ودخلت عليه كأنى مجنون . وقلت له : « أسمع يا باشا ! أنت تعرف
أنى أنا حمادة الأصفر لا أخاف ولا أخجل ولا أحد يخدعنى . من قال
لك إنى حمار أو مغفل حتى تضحك على فى كل شهر بثلاثين جنيهاً ؟
الورقة عندى والمحاكم موجودة وأعرف شغلى ! » وأدرت له ظهرى لأنصرف .
فقام الباشا وأخذ يلاطفنى وأمر الجميع بالانصراف ورد باب الغرفة علينا
وبدأ يفاوضنى . النهاية من هنا لهنا اتفقنا على ألف جنيه يقدمها إلى بصفة
أمانة أكتب بها ورقة أعترف بأنها أمانة لشراء أقطان ، ووعد بأن يشترى
الأقطان منى بالسعر الحاضر ، والمكسب لى لغاية شهر ديسمبر . وأنت تعرف
الحظ إذا ابتسم يا بو زهير . فى الصبح بسبعين ريال وفى المساء بثمانين
ريال وبكره بتسعين ريال . النهاية فى مدة شهرين يا عم سيد الألف
وصلت إلى عشرة وأرجعت له الألف ، ومزعنا المستند ورجعت إلى السوق
من جديد — حمادة أفندى وسى حمادة وحمادة بك . ولو كنت تتنازل
وتزور مكتبى يا سيد بيه يكون أكبر شرف . عشرة آلاف جنيه ؟
أنا أسرقها من محمد خلف ؟ محمد خلف بن عم خلف المنجد ، كل ثروته من

سرقة الأيتام والأرامل والأمراء المعتوهين ، الاختصاصي فى نظارة الأوقاف وإيجارات الأملاك أنا أسرقه ؟ لو كنت أعرف السرقة يا سيد أفندى كنت أشبع وأكتسى على الأقل ولا أخدم اللئام ولا أنافق ولا أشرب الزفت ولا أرتمى على أكوام الطين ، لو كنت أعرف السرقة والنصب ما كنت أجرى بسرعة للموت وأتمنى يومه . قل لى : دون ، قل لى : حقير ، قل لى :حشرة، أصدق . لكن لص؟ لأ . لع ! أبداً .حمادة القذر الجائع العارى هو جسم حمادة — العظم واللحم والدم . ينافق ليأكل ويشحذ ليأكل .

ويتذلل ليجد السقف فى الليل ، ويرضى بالإهانة من أجل القلب الجائع ، ولكن من تحت الحمادة الجسم يوجد حمادة الصحيح — حمادة الحقيقى — لا يرضى أن يسرق أبداً .

ولو كنت طاوعت دفعتى فى هذه اللحظة لقمت إليه وأخذته بين ذراعى وقبلته بين عينيه المتقدتين كعينى الذئب . ولكنى نظرت إليه كما أنظر إلى جدول الماء الصافى الذى يخرج من عملية تحليل مواد المجارى فى مزرعة الجبل الأصفر . ماء رائق يتلألأ فى نور الشمس ولكن النفس تعافه لأنها تعرف أصله .

وقلت لحمادة مخلصاً :

— أنا آسف ياحمادة لأنى ظلمتك، مع السلامة .

وقام حمادة لينصرف ولكنه وقف حيناً فى تردد ثم ضحك قائلا :

— بالله عليك صارحنى بكلمة — لا أحب أن أزاحمك يا أستاذ سيد ، وأريد أن تقول بالصراحة . ما شعورك من جهة فطومة ؟

وفاجأنى سؤاله فقلت فى حدة :

— أما تنسى هذا الهراء ؟ متى عرفتها ؟

فقال فى حماسة :

— لما طرقت الباب نزلت لى فطومة — الله يا سيد أفندى . والله عمرى ما رأيت عينين تشبه عينيها . وسألتها عن اسمها . وكان صوتها مثل الكروان بالله يا أستاذ سيد صارحنى .

فقلت فى اختصار : قلت لك لا داعى لهذا السخف . إذا كانت أعجبتك فتلفع بها وتفضل .

فهز يدى مرة أخرى قائلا :

طيب يا سيد أفندى . تلفيعة حرير والله العظيم . ما رأيك فى أن تقدمنى للشيخ مصطفى حسنين ؟

ومع أنى كنت أعرف أن حمادة إذا رأى امرأة حسناء صار كالذبابة إذا اندفعت إلى طبق من العسل ، فإنى دهشت لأنه تدله بفطومة فى مثل هذه السرعة . ولكنى شعرت بارتياح داخلى لست أدرى سببه .

وقلت له :

— يسرنى أن أفعل إذا مررت على بعد أن أفرغ من عملى . إلى اللقاء الآن يا حمادة .

وعند ما خرج من عندى وضعت يدى على رأسى وغرقت فى أفكارى .

أهذا هو الباشا الذى يريد أن يتكلم باسم الأمة ويحاسب الوزراء ! أهذا هو الذى يريد أن ينتزع منى ليتجر بأموالها كما يتجر النخاس بالرقيق ؟ وقمت ثائراً أتمشى فى غرفتى وأسأل نفسى كيف أضرب ضربتى . مالى أكتب فى الفراغ وهذا الوغد يستحق أن يشنق ؟

ودخل علىّ الساعى فى هذه اللحظة يطلب منى المقال الذى لم أفرغ منه بعد ، فاستمهلته قليلا وعدت إلى مكتبى وبدأت أقرؤه مرة أخرى . كنت فى أول الأمر أحسبه مقالا شديداً يعجب الأستاذ على مختار ويهنئنى عليه ولكنه بدا لى فاتراً سخيفاً لا يحمل معنى . ولم أفكر مرتين قبل أن أجمع أوراقه وأمزقها قطعاً صغيرة ثم أرمى بها فى سلة المهملات. وبدأت أكتب مقالا جديداً عنوانه « هكذا يكون الباشا » . وفى نصف ساعة كنت قد أتممته ووقعته بإمضائى وأخذت أقرؤه مرة أخرى . لم أذكر اسم الباشا ولكن أوصافه كانت بغير شك تشير إليه ، ولولا علمى بأن الأستاذ على مختار لا يحب أن يهاجم الأشخاص مهاجمة شخصية لكنت حددته بالاسم ولكنى ميزته حتى لا يخطىء أحد فى معرفته .

٢٥

لم أعجب عند ما دعيت فى اليوم التالى إلى نيابة الصحافة لأنى صرت منذ حين أحد نجوم الجرائم الصحفية . وكان موضوع التحقيق كالعادة مزيجاً من تهم متعددة جاء فى صدرها بالطبع ذكر العهد وماذا أقصد به ودراسة فقهية طويلة لما جرى به العرف من إطلاق لفظ العهد على الملوك وحدهم. ودافعت عن نفسى قائلا كالعادة أيضاً إننا فى بلد دستورى لا يتحمل فيه الملك مسئولية الحكم فالعهد لا يمكن أن يكون إلا للحكومة القائمة .فانتقل الحوار إلى تهمة الطعن فى الحكومة والتحريض على كراهية النظام وانتقلت بدفاعى أيضاً إلى ذكر البراهين التى تدل على فساد الحكم حتى رأى المحقق الاكتفاء بأول برهانين ورفض أن يثبت البراهين الأخرى التى هممت بأن أذكرها . ثم وجه إلى الطعنة الأخيرة التى حسبها القاضية وذلك عند ما سألنى من تقصد بالباشا الأبله ــ الباشا اللص الذى جمع ثروته من سرقة الأيتام والأرامل والأمراء المعتوهين والذى تخصص فى نظارة الأوقاف وإيجار الأملاك وسرقة اليتامى ؟

وشعرت بكثير من الحيرة فى البحث عن طريقة أتحاشى بها إقحام شخص خلف باشا ، إذ لا علاقة له بالحكم . فأخذت أبين أننى لا أقصد إلا المعنى العام الذى يشعر به الجميع وهو أن السادة أصبحوا من الحثالة . فوجد المحقق فرصته وأخذ بتلابيبى .

واستمر التحقيق طول اليوم إلى أن دار رأسى من التعب وعرض المحقق على كل ما كتبته من قبل فى الأعداد السابقة، وما زال يضيق على الخناق حتى قذفنى آخر الأمر بالتعريف الجامع المانع للعيب فى الذات الملكية .

فقرأ :

« العيب فى الذات الملكية هو ذلك الشىء الذى يمس من قريب أو بعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تصريحاً أو تلميحاً تلك الذات » .

فضحكت قائلا : تعريف جميل يصلح لأن يكون شركاً رائعاً !

وكان جوابه على ذلك أن قال : تستطيع أن تستريح الآن حتى نستأنف التحقيق فيما بعد .

فقلت محتجاً :

ــ ما معنى هذا ؟

فقال : الأمر بسيط يا سيدى . ستبقى تحت التحفظ حتى يتم التحقيق .

فصحت فى حنق : أين نحن يا سيدى المحقق ؟ رجل يستدعى فى الصباح لكى يقال له فى هذه الساعة أن ينتظر محجوزاً حتى يتم التحقيق ؟

فنظر إلى باسماً كأن الأمر لا يستحق منه إلا ابتسامة ثم قال : لك طبعاً أن تطلب ما تشاء من البيت ، وإذا شئت فلك أن تتصل تليفونياً بمنزلك أو بإدارة الجريدة .

ونظرت إليه فى حقد وكانت ابتسامته ما تزال تثير غيظى ، وتمثلت لى صورة غرفتى التى يمكن أن أتصل بها تليفونياً لأستحضر منها ما أشاء . ثم

تذكرت الأستاذ على مختار وجعلت أسأل نفسى : « ألا يعرف أنى هنا ؟ أهكذا يتركنى لشأنى كأننى لا أستحق أن يقف إلى جانبى ؟ »

وقلت للمحقق فى حنق : لست فى حاجة إلى شىء .

فرفع كتفيه قائلا : هذا شأنك . ولم أقل له شيئاً سوى نظرة غاضبة وهو يهمس إلى الشرطى الذى دخل إلى الغرفة فى تلك اللحظة . فحيا الشرطى صادعاً بالأمر وأخذ منه الورقة التى مد بها يده إليه وأخذنى من ذراعى خارجاً بى من باب الغرفة إلى حيث لا أدرى .

وسرت معه وقلبى يغلى غلياناً شديداً من الشعور بأنى أمام قوة جبارة لا تتمثل فى شخص بعينه حتى أتمكن من الدفاع عن حريتى أمامها .

كان الشرطى يقبض على ذراعى فى شىء من الترفق . ولكنى كنت أحس أننى لا أقدر على الانفلات منه أو مقاومته . ولأول مرة شعرت أن هناك شيئاً هائلا مجرداً عن الأشخاص والهيئات اسمه الدولة . هى التى تجرنى من ذراعى إلى حيث تشاء ولا أستطيع أنا أو غيرى من الأفراد أن يقاوم قوتها . ولم يكن فى وسعى أن أحنق على ذلك الشرطى . الذى يجرنى من ذراعى لأنه كان يؤدى واجبه بغير أن يكون بينى وبينه ما يدعو إلى الخصومة أو الكراهة . ومن يدرى لعل هذا الشرطى كان يعطف على فى قرارة نفسه؟ لقد كان فيما يظهر لى رجلا طيباً وكانت نظرته نحوى مهذبة وديعة تنطق قائلة : « أنا آسف ولكن ما حيلتى ؟ »

بل إنه أظهر عطفه علىّ عند ما مال نحوى هامساً: « أتحب أن تشترى شيئاً ؟ »

فأجبته قائلا : « أشكرك » .

وكانت عربة مغلقة تنتظر عند الباب الخلفى للمبنى . فركبتها وأغلق الشرطى الباب ، وسارت العربة فى طريقها وأنا منطو على نفسى ، حتى وقفت آخر الأمر ونزل منها الشرطى ليأخذنى من ذراعى . وعرفت عند ذلك أنى داخل إلى قسم عابدين . حسناً !

ودخلنا إلى غرفة الضابط فحياه الشرطى ومد إليه يده بالورقة التى معه ، فقرأها الضابط وأشار بيده نحو غرفة بغير أن يقول كلمة سوى أنه نظر نحوى نظرة فاحصة من أعلى رأسى إلى آخر ما يستطيع أن يرى منى وأنا واقف وراء مكتبه . ولم أجد ضرورة لإجابته بنظرة غاضبة لأنى شعرت بما يشبه الاستعلاء عن الاهتمام بالأفراد . مالى وهؤلاء جميعاً ؟ إنهم يأتمرون بأمر آلة ضخمة لا يملكون لى معها ولا لأنفسهم شيئاً .

وأدخلت إلى غرفة فيها مكتب صغير واحد ليس فيها شىء غيره من الأثاث . وتركنى الشرطى فيها وأغلق بابها ولا أدرى أذهب إلى سبيله أم بقى واقفاً خارجها . ونظرت إلى ساعتى وكنت لم أفطن إلى النظر إليها من قبل فوجدتها الساعة الرابعة بعد الظهر . يا سلام ! لم أفطر فى الصباح ولم أطعم شيئاً طول النهار ، ومع هذا لم أجد فراغاً للاهتمام بطلب الغداء . وهجم على الشعور بالجوع وشعرت بأنى ضعيف لا أكاد أقوى على الوقوف ، فجلست على ظهر المكتب وكانت النافذة التى ورائى تطل على خلف مبنى القسم ، وأستطيع أن أرى منها المتاجر من بعيد . فغيرت موضعى حتى أقدر على النظر إلى الخارج لأشعر بشىء من الائتناس ، وسألت نفسى ألا يمكن أن أشترى شيئاً آكله ؟ ونزلت مسرعاً عن المكتب فحاولت فتح الباب ولكنى وجدته مغلقاً بالمفتاح . فخبطت عليه بيدى فلم يلبث أن فتح ورأيت على

بابه شرطياً من جنود القسم . وهز رأسه إلىّ مستفهماً فقلت له فى هدوء :

— ألا يمكن أن أشترى طعاماً ؟

فقال بغير اهتمام :

— اسأل حضرة الضابط .

فقلت فى شيء من الغضب :

— وأين هو ؟

فأغلق الباب قائلا : سأسأله .

وكدت أثب لأمنعه من إغلاق الباب بالمفتاح ولكنه سبقنى فأغلقه، وعدت إلى المكتب فوثبت جالساً فوق ظهره وجلست أنظر إلى المارة من بعيد وهم يتحركون فى اتجاهات شتى . شاب يركب دراجة فى وسط الطريق ويمر بخفة بين السيارات وهو يتلفت يميناً ويساراً كأنه بهلوان فى سرك . ما أمهره فى الركوب وما أشد مخاطرته ! كأنى به يستهين بحياته أو يتمتع بشعور المخاطرة . ولم لا يخاطر الناس بحياتهم فى كل شيء ؟ إن المخاطرة تبعث إلى النفوس نشوة النجاة دائماً فتكون الحياة كلها حية مثيرة إلى أن يحين القضاء المحتوم . الرقابة تحيل الحياة إلى سجن مثل هذه الغرفة التى أنا فيها . ولكن إذا كان هؤلاء الفتيان الذين يحاورون السيارات فى الطرق من فوق دراجاتهم لا يريدون بعملهم هذا إلا أن يشعروا بأنهم يقومون بمغامرة فلماذا أغضب أنا من أنى أواجه مغامرتى ؟

ومضى علىّ وقت طويل وأنا أتأمل وجوه المارة فى الطريق وأقرأ على كل منها المعنى الذى تدل عليه مظاهرهم ، فنهم من يسير مسترخياً كأنه يحلم، ومنهم من يسرع كأنه يريد أن يدرك قطاراً على وشك السير ، ومنهم

من كان لا يريد أكثر من التلفت إلى وجوه الآخرين .

وكان مما استرعى نظرى أيضاً طفلان : صبى وفتاة لا يزيد عمرهما على العاشرة ، وكانا يقطعان الطريق ذهاباً وإياباً ويعبرانه من جانب إلى جانب كأنهما قطان ضالان . وكان كل منهما يحمل فى يده علبة من الصفيح معلقة فى ساعده بخيط ، فما يكاد يرى (عقب) سيجارة يسقط على الأرض حتى يهبط إليه كأنه صقر . وجعلت أتأمل وجهيهما وأتصور ما يكون شكلهما إذا زال الوسخ عن وجهيهما ولبسا ثياباً غير الخرق الممزقة التى ترف فوق جسديهما النحيلين ، ولم أشك فى أنهما يكونان ظريفين رشيقين لو أكلا ولبسا كما يفعل الآدميون . ولكن أحقاً يتغيران إذا غسل عنهما الوسخ؟ هل يمكن أن يتحولا إلى طفلين ظريفين ؟ وكيف يمكن أن تزال الأوساخ التى تسربت إلى أعماقهما ؟

وانقبض صدرى عند ما تمثلت الألوف الكثيرة التى وقع عليها بصرى فى كل مكان من هؤلاء الأطفال ، وسألت نفسى كيف نستطيع أن نتمتع بالطعام والشراب ، وكيف نطمئن فى بيوتنا ومع أفراد أسراتنا وهناك ألوف من هؤلاء المساكين يسيرون هكذا كالقطط الضالة ؟ وقطع على تفكيرى فتح باب الغرفة ، ورأيت الشرطى الذى جاء بى إلى القسم وسمعته يسألنى : أما تريد شيئاً ؟

فشكرته من أعماق قلبى وقلت له «هل تتكرم بأن تشترى لى رغيفاً من الخبز وأى شىء يؤكل معه ؟» ومددت يدى إليه بنصف ريال . ثم نظرت إلى ساعتى وكانت ما تزال الخامسة . كل هذا الوقت ساعة واحدة منذ دخلت فى الغرفة ؟ إن الذين يقيسون الوقت بالساعة لم يدخلوا إلى مثل هذه الغرفة

ليسجنوا بها . أليس الزمن خرافة من تأليف العقل البشرى كما قال صاحبى عبد الحميد عباد ؟

وذهب فكرى إلى دمنهور ومرت بذهنى صور كثيرة . يا ترى كيف حال أمى وأختى ؟ والحمد لله على أنهما لا تعلمان أنى هنا . ومنى ؟ هل تبلغها تحياتى التى أبعثها إليها كل صباح وكل مساء مع إشراق الشمس وطلوع النجم ؟ لا بد لى من أن أسافر إليها غداً أو بعد غد إذا فرغت من هذا التحقيق السخيف . ولن أنسى غداً إذا قابلت الأستاذ على مختار أن أعتب عليه عتباً شديداً لأنه لم يعبأ بالحضور ليقف إلى جانبى أو قريباً منى . بل إنه لم يعبأ أن يرسل سكرتيره ليسأل عنى .

وفتح الباب مرة أخرى ودخل شرطى جديد لم أره من قبل فقال لى بصوت جامد :

ــ تعال يا أفندى .

ولم أجد ضرورة لسؤاله عن قصده فسرت وراءه قائلا فى نفسى : «هذا شىء طبيعى لأنى لا يمكن أن أقضى الليلة كلها هنا » .

وسار بى حتى وقف عند باب غرفة أخرى على بعد نحو خمس خطوات وفتحها قائلا : تفضل هنا !

وظننت طبعاً أنها غرفة أعدت لنومى ، فدخلتها مرتاحاً ولم أفطن إلى أن الرجل سيغلق الباب ورائى بهذه السرعة . وما كاد الباب يغلق حتى رأيت أنى فى غرفة مظلمة ضيقة لا تزيد سعتها على مترين فى ثلاثة وسقفها لا يعلو أكثر من ثلاثة أمتار . وكانت حجرة قذرة الجدران والأرض ، عارية ليس فيها شىء سوى كرسى نصف محطم وبرش قذر ونافذة صغيرة لا أستطيع

أن أصل إليها إلا إذا مددت طرف يدى .

« وماذا أفعل هنا ؟ » هكذا قلت فى سرى وقلبي يتمزق من الغيظ . وحاولت أن أجلس على الكرسى لأفكر فيما ينبغى أن أصنع ، ولكنه كاد ينهار بى فقمت غاضباً . وقلت فى نفسى : « هل أعود إلى الحماقة التى ارتكبتها فى دمنهور عند ما سجنت فى الجحر المظلم فأقوم إلى الباب لأدقه بيدى ورجلى ورأسى كأننى مجنون ؟ » كانت الغرفة الأخرى على الأقل تؤنسنى بنافذتها المطلة على الطريق ، وأستطيع أن أجلس على المكتب الذى فيها . وشعرت بلسعة فى أسفل ساقى فملت لأتحسس موضعها فلمست يدى شيئاً حسبته برغوثاً فرفعته إلى كفى فى حذر خوف أن يهرب منى ، فإذا هى قملة طويلة تعجبت كيف تصل إلى مثل هذا الحجم . ورميت بها بعيداً فى اشمئزاز وأخذت أخبط الباب فى عنف ، ولكنى شعرت بلسعة أخرى فكدت أفقد صوابى ، وخيلى إلى أن البرش الذى هناك عش عامر بالقمل ، وشعرت كأن بدنى كله يلسعنى وكأن فى كل قيراط منه دبيب قملة . وفزع الشرطى على ما يظهر من الدق العنيف ففتح الباب واستقبلنى قائلا :

ــ مالك يا أفندى ؟

وكان كل همى أن أنفذ من الباب فاندفعت خارجاً وقلت بعد أن صرت فى الممر :

ــ أهذه غرفة تعذيب من صنف جديد ؟

وعند ذلك تبينت أن الشرطى كان صاحبى ، وقد جاء يحمل فى يديه أوراقاً ملفوفة .

فقلت له وأنا أكثر هدوءاً : أهذه غرفة نوم يا أخى ؟ ادخل إليها

دقيقة واحدة لتعرف أنها عش قمل .

فقال فى سذاجة : الحاضر يا سيدى . وأين تنام إذن ؟

فلم أملك نفسى من الضحك مع شدة غيظى وقلت له :

ــ شكراً لك على كرمك وأرجوك ألا تفكر فى أمر نومى . سأقضى الليل واقفاً فى الغرفة الأخرى ، ويمكننى أن أنام فوق المكتب إذا شئت. خل هذه الغرفة لضيف آخر يحتاج إليها .

والظاهر أن الفكاهة أعجبته فضحك قائلا :

ــ أمرك يا سيدى .

وأخذنى من ذراعى إلى الغرفة التى كنت فيها قائلا :

ــ رغيف أفرنجى وجبن رومى وخيار أخضر ــ الكل ستة قروش .

ومد يده بالقروش الباقية من نصف الريال فأشرت إليه أنها له . فتبسم راضياً ووضع الطعام على المكتب ثم قال :

ــ تصبح على خير .

وأغلق الباب وراءه وتركنى أحاول أن أفكر فى خطة لقضاء الليلة .

فجررت المكتب قريباً من النافذة وجلست عليه وبدأت آكل ، وكنت مع كل ضيقى أحس جوعاً شديداً ، وكانت شهوتى للطعام عظيمة حتى أكلت الرغيف وأخذت أقشر الخيار لأستغنى به عن الماء والفاكهة .

وكان من حسن حظى أن الغرفة تحتوى على مصباح كهربائى صغير ، فكان نوره مساعداً للضوء المنبعث من الطريق فى إزالة كثير من الوحشة التى كانت تخيم على صدرى . وأخرجت من جيبى قصة إنجليزية مما تعودت أن أحمله معى دائماً لأقطع به الوقت فى الساعات التى كنت أضطر

لقضائها فى غرف الانتظار فى جولاتى لتلقف الأخبار ، وكانت فى تلك الليلة لقية نفيسة . وشغلتنى القراءة فيها عن التفكير فى متاعبى ، وهى قصة لأحد الكتاب الشبان يصور فتاة مثل الفتاة التى رأيتها تجمع أعقاب السجاير من الطريق . وكان من سوء حظها أنها كبرت وصارت حسناء فاستطاعت أن تصبح خليلة ثم راقصة، ثم اجتذبت قلب أحد الشباب المنعمين وكان من سوء حظها أنها أحبته . فألفت لها الأقدار مأساة وألقت بنفسها إلى النيل من العوامة التى كانت تعيش فيها . هل تستطيع هذه الطفلة المسكينة أيضاً أن تسترعى نظر الأقدار ؟

وأخذت عينى تثقل للنوم فخلعت سترتى وجعلتها تحت رأسى ونمت فوق المكتب جامعاً ركبتى إلى قرب صدرى .

٢٦

صحوت متعباً إلى حد الإعياء فى الصباح، وكانت الساعة السادسة . فجلست على المكتب خائراً وكان رأسى مصدعاً ثقيلا ومفاصلى وأضلاعى تنبض بالألم . وقمت أترنح إلى الباب فدققته دقتين حتى انفتح وكان الذى صبحنى بوجهه شرطيًّا عابساً أصفر الوجه كأنه هو الآخر قضى ليلة مثل ليلتى .

وسألته : أأستطيع أن أغسل وجهى ؟

فأشار بيده إلىّ بغير أن يتكلم،واتجه بى إلى دورة الماء ووقف عند

الباب ينتظرنى ، وكانت النوافذ هناك محصنة بقضبان حديدية متينة هى الأخرى .

وشعرت بشىء من الانتعاش بعد أن غسلت وجهى بالماء البارد وتمنيت لو أمكننى أن أتوضأ لأصلى فريضة الصبح التى تعودتها منذ صغرى، ولكن كيف أخلع ملابسى وحذائى وأين أضعها ؟ وهل أتوضأ ثم أسير حافياً إلى الغرفة على الأرض التى كنت لا أقدر على تمييز لونها من الطين الذى فوقها ؟ فاكتفيت بأن جففت وجهى فى منديلى وعدت فى حراسة الشرطى إلى مقعدى فوق المكتب .وكانت المتاجر ما تزال مغلقة والطريق خالياً وكل شىء هادئاً تحت أنفاس الصباح الرطبة ، فلم أجد شيئاً يشغلنى عن الهواجس العنيفة التى انفردت بى . ولهذا مرت على ساعة كانت من أطول ما مر بى فى حياتى . ثم بدأت الحركة تدب شيئاً فشيئاً فى الطريق، وكان من أول من ظهر لى هذان الطفلان البائسان اللذان رأيتهما بالأمس ، وكانا يسرعان من رصيف إلى آخر كعصفورين جائعين يلتقطان رزقهما فى الصباح مع فارق واحد وهو أن العصافير تخرج عند مطلع الشمس من أوكارها التى تأوى إليها فى ساعة الغروب، وأما هذان فليت شعرى أين قضيا ليلتهما ؟ هل هما أخ وأخته ؟ أم هما شقيان آخى بينهما الشقاء وألف بين قلبيهما ؟ أيكونان فى الحياة الواسعة وحدهما بغير ثالث ؟ وماذا يفعلان بهذه البضاعة التى يجمعانها بين الصباح والليل ؟ وهل هى تكفى لإطعام هذين المسكينين ؟

ورأيتهما يقفان من بعيد عند باب دكان فول مدمس ويتوشوشان . لست أدرى أكانا يتآمران على سرقة رغيف أم كانا يتناجيان برائحة الفول

الذكية ؟ وسأسأت لهما وناديت بأعلى صوتى قائلا :

ـ اسمع يا ولد ! يا بنت !

فتلفتا حولهما فى فزع ولكنهما لم يعرفا أين أنا حتى أشرت لهما بيدى من بين القضبان، فأقبلت الفتاة نحوى مترددة وبقى الولد بعيداً ينظر إليها مترقباً . فلما صارت على الرصيف المقابل للنافذة قذفت إليها بقرشين وقعا تحت قدميها وقلت لها :

ـ اجرى افطرى وقولى لصاحب دكان الفول يبعت لى طبق فول بزيت ورغيف وسلطة . هنا فى القسم . هنا !

فتبسمت مرتاحة وهزت رأسها وأسرعت إلى الصبى فأخذته معها ودخلت معه إلى الدكان . وبعد قليل جاء صاحب الدكان ليسألنى عما أريد فقلت له :

ـ أنا هنا محبوس فى القسم وأريد أن أفطر . طبق فول بزيت وسلطة ورغيف .

فقال : والعساكر ؟

فقلت : سلم الأكل لأحدهم واتركه معه .

وقذفت إليه بقطعة فضية ذات خمسة قروش .فاقتنع وذهب .

وبعد قليل فتح الباب ودخل الشرطى العابس يأمرنى بالذهاب إلى المحكمة .

فقلت له : لم أفطر بعد .

فقال فى جفاء : هل هنا مطعم ؟

فقلت : لا . هنا قسم بوليس . هل حضرة الضابط هنا ؟

فقال : حضرتك صاحبه ؟

فقلت : نعم ، أشكرك جدًّا . وكان الشكر موجهاً إلى صاحبي الشرطي الآخر الذي جاء في تلك اللحظة يحمل طبق الفول والخبز والسلطة.

وقال في بشاشة :

– صباح الخير يا سيدنا الأفندي.. كنت في العربة عند ما جاء الرجل بالأكل فعرفت أنه لك . مالك يا حضرة الباشجاويش ؟ حرام يا رجل ! النهار طويل ولقمة الصبح تسند قلبه .

وكان في قوله الأخير متجهاً إلى الشرطي الآخر الذي حاول أن يمنعه من إدخال الطعام إلى الغرفة .

وانصرف الشرطي العابس غاضباً ودخل صاحبي الآخر فوضع الطعام على المكتب قائلا : تفضل!

فقلت له : بسم الله يا أخي .

فقال : بالهنا والشفا .

ومد إليّ يده بقرشين قائلا :

– بقية ربع الريال .

فتبسمت قائلا : هل أفطرت ؟

وأشرت إليه أن يأخذ القرشين .

فقال مرتاحاً : الحمد لله . أشيا رضا .

وذهب خارجاً وأتى إليّ بكوب من الصاج مملوء بالماء، وكنت قد بدأت آكل وأنا واقف. وتبادلنا ابتسامة صغيرة قبل أن يخرج قائلا : على مهلك يا أفندي !

وكانت الساعة الثامنة والنصف عندما وصلنا إلى دار النيابة، ولكن المكتب كان خالياً فجلست فى حجرة الكاتب ووقف الشرطى عند الباب يحرسنى .

وكانت الحركة والطعام قد أعادا إلىّ نشاطى ، وذهب ما كنت أحسه من التعب والوحشة . وبعد قليل دخل صبى المقصف ليرى هل بالغرفة أحد فطلبت منه كوباً من الشاى ورجوته أن يشترى لى علبة من السجاير لأتسلى بالتدخين .

ومهما يكن من الأمر فإنى شربت ثلاثة أكواب متفرقة من الشاى بين كل منها والآخر نحو ساعة وأحرقت نصف علبة السجاير ولم يحضر أحد إلى المكتب ، حتى صارت الساعة الحادية عشرة . ثم جاء الكاتب آخر الأمر وقال لى فى خفة :

ـ آسف لأن البيه مشغول فى قضية أخرى ولا يحضر إلى هنا اليوم .

فقلت متثاقلا : ومعنى هذا ؟

فقال : لا شىء . التحقيق مستمر . غداً أو بعد غد . لا بد أن ينتهى على كل حال .

ثم مد يده إلى الشرطى بورقة وخرج مسرعاً يتلفت فى الغرفة ويهز يده بظرف كبير يحمله . ونزلت إلى العربة المعهودة فركبتها مع الشرطى ولم أعرف إلى أين حتى وقفت العربة وقال الشرطى فى صوت نحاسى :

ـ تفضل يا أفندى .

فقلت : إلى أين ؟

فقال : الاستئناف !

يا خبر ! سجن الاستئناف ؟ دخلت إلى ذلك السجن من قبل مرة عند ما ذهبت مندوباً عن الجريدة لأشهد إعدام أحد كبار المجرمين . كان منظراً لا أنساه أبداً عند ما رأيت المسكين قبل أن تعصب عيناه ليصعد فوق المشنقة، فقد كان ينظر فى فزع شديد إلى الحبل المعلق الذى سيحتوى على عنقه، وجعل يقول لمن حوله بصوت مرتعد : « اطلبوا لى الرحمة يا ناس ! »

فلم أطق أن أستمر فى موقفى، إذ كان من المؤلم لى أن أرى الرجل ينهار هكذا . لو نظرت إلى ذئب جريح يلفظ أنفاسه الأخيرة لما أعجبنى منه أن يمأمئ مثل الشاة مستغيثاً متخاذلا ، فالأجدر به أن يموت ذئباً وحشاً مستعداً للهجوم إلى آخر لحظة من حياته . كنت لا أتألم هكذا لو بقى ذلك الرجل جباراً سفاكاً متحدياً فظيعاً حتى النهاية . ولكنه صار مثل أرنب فى يد الجزار يرتعد ويطلب الدعاء بالرحمة .

ومن ذلك اليوم اعتقدت أن سجن الاستئناف هو الذى حول هذا الجبار إلى رجل منهار . ومن أجل هذا كرهته .

فهل أنا ذاهب إليه كما يذهب إليه القتلة ؟

أأذهب إليه لأنى أكتب مقالات أترجم فيها عما أحسه ويحسه الناس من غضب على الفساد والطغيان والحكم الذى يذلنا ويسقطنا ويدنس أرواحنا ؟

ودخلنا سجن الاستئناف ، ومنذ دخلته أصبحت مثل شىء تتلقفه الأيدى ولا إرادة له . سلمنى الشرطى إلى المأمور وسلمنى المأمور إلى سجان وسار بى السجان إلى الغرفة التى خصصت لى ورقمها ٢٩٨ . ومنذ اللحظة التى دخلت فيها إلى الغرفة صرت رقماً مجرداً سابحاً فى الفراغ ، فرقم ٢٩٨

يصعد إلى غرفته، ورقم ٢٩٨ يدعى إلى النزول، ورقم٢٩٨ يتناول طعامه . وكانت الغرفة التى دخلت فيها أحسن مما كنت أنتظر ، إذ كان فيها على الأقل سرير يمكن أن أتمدد عليه . وكانت بها نافذة عالية ذات قضبان متينة . ولم يضايقنى إلا سواد لون السقف والأرض .

ولم يكن بى حاجة إلى التفكير فى الذهاب إلى دورة المياه لأن (الجردل) كان هناك فى ركن الغرفة أستطيع أن أقوم إليه لأقضى به حاجتى بغير عناء . مرحى ! لا شك فى أن هذا السجن تأديب وتهذيب وإصلاح كما يقولون، ولا عجب إذا كان القاتل الجبار قد تحول فيه إلى جبان رعديد !

وجلست على السرير فى شبه ذهول لا أكاد أتحقق من أنى أصبحت سجيناً . ولا أدرى كم بقيت جالساً هكذا حتى دخل علىّ سجان ليضع لى غطاء نظيفاً على السرير ، ومع كل ما داخلنى من الارتياح لذلك لم أظهر له اهتماماً .

ثم جاء الرجل إلى ببعض الطعام ولكنى لم أشعر بجوع فرفضت أن آكل شيئاً ، وبقيت فى حالتى الذاهلة حتى جاءنى السجان مرة أخرى يدعونى إلى طابور النزهة مع سائر أرقام عالمى . فقمت خارجاً لأن ساعة أقضيها فى الهواء الطلق خير من الجلوس فى الغرفة المغلقة .

ونزلت إلى فناء السجن وهو لا يزيد على قطعة صغيرة من الأرض تحيط بها الجدران العالية من كل جانب وسرنا فى طابور النزهة رقماً وراء رقم، وجعلنا ندور حول الفناء مرة بعد أخرى . ولاحظت أن المساجين مثل سائر الناس لا يستطيعون التخلى عن الكبرياء مع أنهم يعرفون أنهم لا

يزيدون على أرقام مجردة ، فقد وجدت أن كثيراً منهم يتأنق فى ملابسه ليظهر فى الطابور كما ينبغى لمثله – وذلك بالطبع إذا كانوا ممن يسمح لهم بلبس الملابس الخاصة مثلى . وقبل أن ينتهى طابور النزهة دعانى مأمور السجن لمقابلته ، فذهبت إليه وكنت ما أزال ذاهلا ، وكانت دهشتى عظيمة عند ما وجدته يستقبلنى فى بشاشة وعطف ويجلسنى على كرسى إلى جانب مكتبه . ثم أشار إلى حقيبة كبيرة فى ركن الغرفة قائلا : «هذه حقيبتك . » وأعطانى سيجارة فأخذتها شاكراً ، وداخلنى شىء كثير من الأنس والارتياح وسألته :

– من جاء بهذه الحقيبة ؟

فقال : لا أدرى . رجل جاء وأراد أن يراك ولكن لا مؤاخذة فالأوامر مشددة ؟

ثم أخذ يحدثنى عن نزلاء سجنه حديثاً فكهاً يقطعه بالفكاهات المرحة ، فأذهب عنى ما كان بصدرى من الضيق .

كان كل رقم من هؤلاء النزلاء يمتاز عنده بشىء يجعله جديراً بالتحدث ، فالرقم ١١٠ تاجر فى خان الخليلى وهو متهم بتجارة المخدرات ، وبلغت أرباحه فى العام الماضى وحده مائة ألف جنيه ، ولم يضبط لسوء حظه إلا فى آخر مرة عندما اختلف مع رجل من أهل الصعيد على شراء صفقة كبيرة . كان الرجل يريد أن يشتريها بخصم ١٠٪ من ثمن القطاعى ، ولكن التاجر أبى فأبلغ المشترى رجال البوليس عنه وانقلب إلى مساعد لرجال الأمن حتى تمكنوا من ضبطه . وكان نازلا بالسجن تحت التحفظ حتى يتم التحقيق ، ولكنه يكلف المأمور مشقة عظيمة فى مراقبته حتى لا يعقد صفقات جديدة داخل جدران

السجن . وقد لاحظت فى طابور النزهة أن ذلك الرقم رجل ضخم يسير شامخ الأنف ويلبس جلباباً من الحرير الأبيض ويمسك فى يده منشة بيضاء أنيقة .

وأما الرقم ٢١٣ فإنه من صنف آخر . وقد لاحظت أنه يلبس بيجامة فاخرة من الحرير الملون ويدلى من جيبها الأعلى على يسار صدره منديلا أحمر . وقال عنه مأمور السجن إن الطعام الفاخر يأتى إليه كل يوم من المرأة التى يعيش فى ظلها ، وهى كل يوم تحمل إليه الطعام بنفسها وتبكى لأنها لا تتمكن من رؤيته . وتهمته أنه طعن منافساً بالسكين من أجل المرأة.

وأما الرقم ١٩٠ فإنه رجل شاذ لا يكاد يقضى مدة السجن فى جريمة خلقية حتى يعود إلى ارتكاب جريمة أخرى .

وكان المأمور خبيراً بكل أحوال رعيته يتحدث عن كل رقم منها كما يتحدث صاحب المزرعة الهاوى عن السلالات الممتازة من الحيوانات التى فى حظائره .

ولما فرغ من حديثه أخبرنى بأنه قد اختار لى غرفة ممتازة فى الدور الأعلى فيها مصباح كهربائى وفراش نظيف وعلى مقربة منها دورة مياه، وقال إننى أستطيع أن آمر بشراء ما أريد من طعام . وأمر بحمل الحقيبة وصعد معى حتى أوصلنى إلى غرفتى وهمس قبل أن ينصرف :

— يمكنك أن تقرأ الصحف عندى فى الصباح .

فشكرته من أعماق قلبى وصافحته فى حرارة ولما دخلت غرفتى فتحت الحقيبة وأخذت أخرج ما فيها وأرتبه فى مواضعه . فالركن الذى يلى سريرى للكتب — وما كان أكرم هذا الصديق الذى أرسلها إلى، وهو بغير شك

الأستاذ علي مختار، ومن ذا يمكن أن يفكر فى غيره؟ ولم أضع شيئاً فى الركن الذى أمامى إذ كان لا يصلح لشيء لقرب الباب منه، وأما الركن الثالث فقد كان يصلح لأن أعلق فيه شماعتين إحداهما على المسمار الأسفل والأخرى على المسمار الأعلى، ويمكنني أن أضع عليهما ما فى الحقيبة من الأقمصة. وأما أدوات الحلاقة والملابس التحتانية والمناديل وما إلى ذلك فلا يضرها أن تبقى فى الحقيبة لآخذ منها ما أحتاج إليه فى حينه. والمحل الصالح للحقيبة هو الركن المنعزل تحت قدمى السرير. وبالغ مأمور السجن فى إكرامى فبعث إلىّ ببعض الأطعمة الخفيفة للعشاء مع فنجان لذيذ من الشاى، فعزمت على أن أكرر له شكرى إذا نزلت فى الغد إلى طابور النزهة. وهكذا وطنت نفسى سريعاً على الإقامة فى سجن الاستئناف وبذلت كل جهدى فى صرف فكرة إتمام التحقيق والقلق من الانتظار وسلمت أمرى إلى الله تعالى.

٢٧

مضت أربعة أيام بغير أن أسمع شيئاً عن التحقيق الذى وضعت تحت التحفظ من أجله. وكان مما زادنى ضيقاً أنى كنت أسمع فى كل يوم بالإفراج عن بعض الأرقام الأخرى ومن بينها التاجر فى المخدرات والشاب الذى يعيش فى ظل المرأة والمجرم العائد صاحب الجرائم الخلقية. كل هؤلاء يفرج عنهم بكفالة مالية وأما أنا فأبقى فى السجن حتى يتم التحقيق. ومتى؟

وذهبت فى اليوم الرابع لأحضر جلسة المعارضة وتطلعت إلى الساعة التى أقف فيها أمام القاضى ، ولم أجد فى المحكمة من ينتظرنى غير فراش مكتبى الذى اندفع نحوى مسلماً ضاغطاً على يدى وقال :

ــ تشجع يا أستاذ !

وقدم إلىّ سيجارة .

ولم يطل بى الانتظار فإن القاضى أخذ يستمع إلى أقوالى فى هدوء واعتدال حتى تيقنت أن الحكم سيكون بالإفراج .

وكانت دهشتى عظيمة عند ما أعلن القاضى أن الحكم بعد أسبوع .

ولما خرجت من الغرفة لم أكد أصدق عينى عند ما رأيت أمامى وجه أمى الباكى ولمحت إلى يمينها ويسارها عبدالحميد عباد ومنيرة وحمادة الأصفر. وسبح رأسى فى الفضاء حتى كدت أسقط ،لولا أن تماسكت وسلمت نفسى للأم المسكينة التى لم أفهم مما قالت شيئاً . وجاءت منيرة وعبد الحميد يحاولان أن يهدئاها . ووجدت أن الموقف أشد من طاقتى فحاولت أن أقول بعض كلمات أخفف بها لوعتها ولكنى لم أجد شيئاً أقوله .

وكان الشرطى المكلف بحراستى أكثر إنسانية من أن يجذبنى من ذراعى فاكتفى بأن قال : « لا داعى لكل هذا والعاقبة خير إن شاء الله .» فعاد إلىّ شىء من قوة الإرادة ، ونزعت نفسى من يدى أمى فى شىء من العنف وتكلفت قلة الاهتمام وشددت ابتسامة على وجهى قائلا :

ــ لماذا تزعجون أنفسكم بالحضور إلى هنا ؟ هذه شروط المهنة يا عبد الحميد . وأنت يا منيرة ألا تريدين أن تكونى صحفية ؟ هناك صحفيات كثيرات أقل منك براعة فى تمثيل أدوار البكاء . تعالى يا آنستى

معى لترى أنى أفطر عسل نحل وأتغدى كباباً .

وأنت يا حمادة !

فتقدم حمادة إلىّ ومد يده مسلماً وكان وجهه يدل على التأثر ، فقلت له :

— أظنك أنت المسئول عن هذا ؟ من أخبر هؤلاء غيرك ؟

فقال : يعنى يا أستاذ سيد أذهب لأسأل عنك وأعلم أنك فى السجن ولا أبعث إليهم ؟ يعنى كنا كلنا نأكل ونشرب وننام فى بيوتنا وأنت تأكل مع المساجين ؟ كان لا بد أن أقول لهم ولا بد أن نهتم بك يا أستاذ ، والمسألة بسيطة — تلغراف « منتظركم اليوم بالمحطة لأمر هام يخص الأستاذ سيد » . والست الكبيرة دعت لى وهى مرتاحة مع منيرة هانم فى بيت الحاج مصطفى ، وأنا وفطومة وكلنا فى الخدمة ، وواللّه ما يحمل لك الأكل غيرى . يا سلام يا أستاذ ! بعض خيرك واللّه ! وكل يوم أطلب مقابلتك والمأمور يرفض ، إن شاء اللّه ربنا يفرجها .

ووضع الشرطى يده على كتفى منبهاً ، فنزعت نفسى لأسير معه وأخذت يد حمادة فضغطت عليها . وأبت أمى إلا أن تضمنى إلى صدرها قبل أن أذهب ، وكانت عينا منيرة غارقتين فى الدمع وهى تسلم علىّ صامتة . وأما عبد الحميد فهمس إلىّ قائلا :

— أنا مقيم هنا فلا تفكر فى شىء ، وعندى كلام كثير أقوله لك قريباً .

وانصرفت مع الشرطى نحو العربة المنتظرة ، وقاومت الدافع القوى الذى كان يدفعنى للنظر إلى الوراء . ولما أغلق الشرطى الباب من ورائنا قذفت برأسى على كفى معتمداً بذراعى على ركبتى وتمنيت لو أسعفنى

البكاء حتى أخفف من شدة الضغط الذى كاد يمزق كيانى .

وقضيت الليلة الأولى بعد عودتى إلى السجن فى أشد من الجحيم ، فلم أذق طعم النوم فضلا عما كنت أعانيه من الآلام والهاجس ، كما أنى لم أذق طعاماً فى الغداء أو العشاء بل وزعت ما جاءنى على بعض المساجين الآخرين ، ورجوت المأمور أن يرفض قبول أى طعام من الخارج من أجلى .

ولم تنقطع آلامى وهواجسى فى اليوم التالى وزادنى غيظاً أن الطعام استمر يأتى إلىّ برغم إلحاحى فى رفضه ، فكنت أوزعه على زملائى من الأرقام الأخرى ، وأعدت الكرة مرة ثالثة على المأمور قائلا له : « إننى أحتج احتجاجاً شديدا لإرغامى على قبول طعام لا أريد قبوله » .

والظاهر أن حمادة كان يحتال على إيصال الطعام إلىّ بإهداء بعض الهدايا إلى حراس السجن ، فإن المأمور اضطر إلى إحضار رئيس الحراس أمامى وهدده بالعقاب إذا هو تساهل فى إدخال أى طعام يأتى باسمى . وبعد ثلاثة أيام من هذا الاحتراق المستمر شعرت فى الليل بقشعريرة شديدة والتهاب فى الزور وقمت فى صباح اليوم الرابع لا أكاد أقدر على بلع ريقى . وترددت فى أن أعرض أمرى على المأمور فتحملت آلامى ولم أذق شيئاً من طعام السجن الذى جاء إلىّ . ولو كنت فى تمام صحتى لما وجدت له شهوة إذ كان لونه ومنظره يكفيان لصد النفس عنه . ولما أقبل الليل خيمت على قلبى كآبة شديدة زادتنى ألماً على ألم وزادت حرارة جسمى حتى كنت أحسها فى أنفاسى المكروبة ورأسى المصدع وأعضائى النابضة بالوجع . وخشيت أن يكون قد أصابنى مرض خطير يقضى

عليّ قبل الصباح فتحاملت على نفسى حتى وصلت إلى الباب فدققته لأدعو السجان ، وبعد حين فتح الباب وسألنى الرجل فى لهجة اللائم عما أريد ، فلما علم أن الأمر لا يزيد على أنى مريض أجابنى قائلا :

ـ وماذا أصنع لك ؟

ثم أغلق الباب وانصرف عنى بغير أن يزيد كلمة . ولم أجد فائدة فى إعادة الكرة عليه فتهالكت على سريرى وألهانى الوجع عن التفكير فى فظاظة ذلك السجان ، وأغلقت عينى لأغريها بالنوم ولكن سلسلة من أخيلة محمومة لا معنى لها أغرقت وعيى وجعلت تتطارد وتتواثب فى شبه حلم مضطرب . وعادت إلىّ القشعريرة أشد مما كانت فى الليلة الماضية فقمت أبحث عن شىء أتغطى به فلم أجد شيئاً وجعلت أنتفض وأرتعد ساعة طويلة حتى زال البرد وهجمت علىّ حرارة شديدة كادت تزهق روحى .

وطلع الصباح آخر الأمر وطلبت من السجان أن يبلغ المأمور أنى مريض ، فما هى إلا ساعة قصيرة حتى جاء الطبيب ليفحصنى . ولو كنت قطة مدللة لكانت عناية الطبيب بى أكثر من عناية ذلك الرجل الذى جاء إلىّ فنظر إلى وجهى ثم قال :

ـ ماذا تشكو ؟

فأشرت إلى زورى قائلا :

ـ زورى أولا . وقد بدأت أسعل فى آخر الليل سعالا شديداً ، وجسمى هامد ورأسى مصدع ، ولم أذق النوم ، وانتابتنى فى الليل قشعريرة شديدة .

وأظن حرارتى . . . .

ولكنه لم يصبر حتى أتم قولى .

فقاطعنى ساخراً : يظهر أنك تعرف كل شيء فلم يبق إلا أن تشخص المرض .

فقلت مغتاظاً :

— وماذا أعمل وأنت تسألنى ؟

فقال فى جفاء : هذا شيء عادى يحدث كل يوم .

وهم أن ينصرف .

فقلت فى حنق :

— أليس لهذه اللوز الملتهبة دواء ؟ أظن واجبك لا يقتصر على كتابة شهادة وفاتى .

فقال غاضباً : لم أنتظر تشريفك حتى تعلمنى واجبى .

وأدار ظهره وانصرف ، وسمعت وقع الأقدام تتباعد وأنا فى شبه غيبوبة .

ولم أعرف ماذا حدث بعد ذلك حتى صحوت لأجد نفسى فى غرفة أخرى وإلى جنبى سيدة فى ملابس الممرضات ، ولما هممت بالقيام قالت فى لهجة أجنبية :

— أرجوك أن تهدأ الآن .

٢٨

مرت ساعة طويلة قبل أن أعرف أنى فى مستشفى الحميات وأنى نقلت إليه فى الساعة السابعة من الصباح . وعاد إلى شىء من القوة فى ساعة الظهر فاستطعت أن آكل الطعام اليسير الذى قدم إلىّ ، ولم يأت الليل حتى كنت أقدر على الحديث . وجاءت السيدة التى رأيتها من قبل وهى كبيرة الممرضات فقاست حرارتى وكانت تزيد درجة واحدة عن الحرارة الطبيعية . وأخذت تحدثنى وكانت نفسى مستوحشة فوجدت فى ثرثرتها أنساً كثيراً . ثم أخذت تربط ذراعى من فوق المرفق ومن تحته لتأخذ عينة من الدم ، فلما أتمت عملها أهدت إلى قصة لأتسلى بقراءتها . وهى امرأة فى نحو الخمسين من عمرها وما يزال فيها أثر من نضرة الشباب والجمال وزادتها طبيعتها العاطفة حسناً ورقة .

وبعد أن قضيت بضعة أيام فى المستشفى بدأت العلاقة تتوثق بينى وبين من هناك من المرضين والموظفين ، بل توثقت الصلة بينى وبين حراسى وهم من جنود الرديف ، وكان أقربهم إلى مودتى الفتى (مجاهد) الذى كان ينتظر انتهاء مدته فى الجندية ليعود إلى قريته ويتزوج من ابنة عمه (هنا) ، فكان كلما جاءت نوبته وقف عند باب حجرتى فى حديقة المستشفى واضعاً بندقيته بين قدميه وأخذ يحدثنى عن نفسه وأهله وعروسه (هنا) .

وكان لهذه المودة التى نشأت بينى وبين من فى المستشفى أثر كبير فى تخفيف وطأة السجن علىّ وفى تسهيل زيارات أهلى وأصحابى .

وكانت أول زيارة مفاجأة سارة بعد عشرة أيام من انتقالى إلى المستشفى ، وذلك فى الساعة التاسعة من المساء فى ليلة مظلمة كان الحارس (مجاهد) ، أو اللواء مجاهد كما كنت أسميه ، يحدثنى كعادته بلهجته الصعيدية الظريفة عن بعض مغامراته فى حرب فلسطين . وعرى ذراعه فكشف لى عن جرح كبير فيها وأخذ يحكى لى قصة ويمزج وصفه الساذج بفكاهات ساخرة عن القنابل (الرفاسة) التى كانت دائماً تضرب إلى الوراء كأنها بغال خبيثة . ورأيته يلتفت فجأة ويرفع بندقيته ويصيح فى عنف : « من هناك؟ » ، وخيل إلىّ أنه على وشك أن يضرب . فأجابه أحد القادمين قائلا : « عوض الله . » فعاد إلى وقفته الأولى . وتقدم عوض الله أفندى رئيس التومرجية ومن ورائه شخص يتعثر فى معطف أبيض من ثياب الممرضين ، ولم أعرف من هو حتى خرج من ظل الجدار وبدأت أشعة مصباح الغرفة تقع على وجهه فصحت قائلا : « حمادة ! ماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

وتنحى اللواء مجاهد حتى وقف على مسافة بضعة أمتار منا ، ولأول مرة فى حياتى أخذت حمادة بين ذراعى . وكان يحمل فى يده ربطة وضعها على المنضدة قبل أن يعانقنى وقلت له : « كيف عرفت أنى هنا ؟ »

فقال ضاحكاً : أمال يا عم . تهرب من السجن بغير أن تترك لنا العنوان الجديد ؟

وقام فحل الربطة وأخرج منها صندوق السجاير وعلب الحلوى وأخذ يقدم منها إلى وإلى عوض الله أفندى واللواء مجاهد . ثم أخذ يحدثنى عن أمى وأختى وعبد الحميد والشيخ مصطفى وفطومة . كانت فطومة تريد أن تحضر معه ولكنها تكاسلت فى آخر لحظة .

فقلت باسما : إذن لم تسافر إلى دمنهور .

فقال : مالى أنا يا سيدى ، هنا وطنى .

فقلت : وانتهيت ؟ أقصد عقدت العقد ؟

فقال : اشترينا الملبس والشربات وذهبت إلى المنزل على حسب وعد الحاج مصطفى ، ولكن الست فطومة حلفت ما يمكن العقد حتى يخرج سى سيد من السجن . قلت الحق معها . يا سلام يا أستاذ !

وكان عوض الله أفندى قد عاد إلينا بعد أن غاب فى جولة بالمستشفى وطلب من حمادة أن ينصرف .

وقام حمادة بغير أن يتم حديثه ، وكان وداعه حاراً ، وسار يتعثر فى ذيل معطفه الذى استعاره من عوض الله ليستخفى به . وغاب وراء ركن البناء بعد قليل ، وبقيت وحدى جالساً على الكرسى الطويل سابحاً فى تأمل هذا الرجل العجيب ـ حمادة الأصفر . لم أستطع أن أعرف حقيقته منذ كنا أطفالا ، ولا عندما كان يتمرغ فى الأوحال ، ولم أستطع أن أعرف حقيقته بعد وهو يتخطى الأسوار ويعرض نفسه للمتاعب من أجل زيارتى .

وقطعت الأخت مرسيديا كبيرة الممرضات سلسلة أفكارى عندما

جاءت لتأخذ عينة الدم من ذراعى وتعطينى الحقن كما كانت تفعل كل ليلة .

وقلت لها ضاحكاً : أهى مؤامرة لنزف دمى ؟

وكانت لها طريقة ظريفة فى معاملتى تشبه طريقة الأم إذا أرادت أن تتغلب على مقاومة طفلها العنيد فى رفق . فاستسلمت لها حتى فرغت والتفتت إلى قائلة :

— هذه مكافأة صغيرة على طاعتك . أظنها قصة تعجبك وهى من أحدث ما ظهر .

فقلت وأنا أنظر إلى غلاف الكتاب :

— أتعجبنى من أجل هذه الصورة ؟

وكانت صورة امرأة غجرية حسناء تكاد تكون صورة فطومة .

فقالت مرسيديا : هذه (ردمويا) . هى امرأة متوحشة لم تفسد المدنية طبيعتها الأصيلة ولهذا تنطق بما يقول قلبها .

فأخذت أقلب الصفحات وأنظر إلى الصور الأنيقة التى فيها وهى تمثل الغجر الذين يقيمون فى خيامهم فى قلب المدنية كما كان يعيش الإنسان الأول .

وكانت قصة مسلية مؤثرة فى وقت واحد . فتاة غجرية حسناء يتهافت على خطبتها شباب القبيلة ، وكان أحرصهم على الفوز بها (نمراداً) ابن شيخ القبيلة . وهو فتى ممشوق القامة ، جميل الصورة ، ولكن (ردمويا) رفضت حبه وقالت له تتحداه : « دمائى لا تألفك » .

ولم أستطع أن أقاوم ميلى للقراءة برغم تحذير الأخت مرسيديا ألا

أطيل السهر ، وأخذت أقرأ فى تمهل بغير أن أجد فى مدخل القصة شيئاً يسترعى اهتماماً خاصًّا . ثم بدأت صور الأشخاص تتمثل فى ذهنى كأنها تخرج من وراء ضبابة ، وبدأت آنس إليها وأعرفها . ولم أشعر بمضى الوقت حتى شعرت بيد تخطف القصة منى وسمعت صوت مرسيديا تقول فى غضب :

– الحق علىّ أنا ! ألم أقل لك ألا تقرأ هذه الليلة؟ أهكذا تسهر إلى الساعة الواحدة من الصباح ؟

ولم تتركنى حتى رقدت فى فراشى وسوت على الغطاء وأطفأت النور وأغلقت باب الغرفة وأخذت الكتاب فى يدها . ولم أستطع أن أنام فبقيت أستعرض مناظر القصة التى كانت تمر أمام عينى مثل فلم ناطق .

أم ردمويا تقول لها : عجباً لك إذ ترفضين نمرادا ! هل تخفين عنى سرك يا ردمويا ؟ أتحبين فتى آخر ؟ حاذرى أن يكون قلبك متعلقاً بمن لا يهتم بك .

فقالت ردمويا ضاحكة : ألست أختار لنفسى يا أمى ؟

فقالت الأم غاضبة : أيام الشباب قصيرة يا ردمويا ؟ والزهرة تذبل سريعاً .

فقالت ردمويا : لست حمقاء أو غبية يا أمى ، ولا أريد أن أضيع حياتى . كيف أهب قلبى كما يوهب العبد ؟

فقالت الأم فى حنان : لا تنخدعى بالأوهام يا ردمويا . عندما يقول قلبك « لا » قد يكون قصده « نعم » . هكذا نحن يا حبيبتى إذا تسرعنا .

فقالت ردمويا : لم أتسرع فى شىء يا أمى . قضيت شهراً أغنى وأرقص لعل قلبى يرضى ، وقضيت شهراً آخر أحرق البخور كل ليلة لنجم الشعرى لعله يهدينى ، ولكن قلبى كان دائماً يقول « ليس نمرادا رجلى » .

فصاحت الأم غاضبة : لا تقول هذا فتاة أخرى فى القبيلة . كلهن يبتسمن له ويرمينه بالحصى من أجلك .

فقالت ردمويا فى تأثر : ليس هو رجلى . هو أنيق مثل عود السرو وصوته ناعم كصوت اليمام،وهو ابن شيخ القبيلة الذى يملك الذهب . ولكنه لا يحسن إلا تسلق الشجر الأملس . لا يقدر نمرادا أن يذلل الجواد الحرون ولا يشق الأمواج الثائرة . ليس نمرادا رجلى .

فصاحت الأم فى يأس : رجلك إذن خيال فى السحاب أو شبح فى ضوء القمر .

وتركتها ذاهبة إلى الخيمة فى حنق : ووقفت (ردمويا) وحدها تحت السماء تنظر إلى نجم الشعرى وتحدث نفسها قائلة : ليس هو نمرادا .

هكذا كانت ردمويا تتحدث لأنها تعرف قيمة حياتها ولا تريد أن تضيعها . قضت شهراً تحرق البخور لنجم الشعرى ليهديها حتى لا تخطو خطوة حمقاء لأنها ليست مثلنا تتخبط مع الأهواء الزائفة فى أخطر موقف فى حياتها . فأين هى من منى التى تقول لى :

« لم أفكر فى أمر هذه الخطبة ؟ »

ومتى تفكر إذن ؟ أم هى تريد أن تهب قلبها كما يوهب العبد ؟

وتمنيت لو استطعت أن أكتب فى يوم من الأيام قصة مثل (ردمويا)

لأعلم الناس مسئولية المرأة فى اختيارها ؟ ولكن ماذا صنعت (ردمويا) ؟ أين هى القصة ؟ أوه ! كان فى وسع الأخت مرسيديا أن تتركها هنا بدلا من جعلى أنتظر حتى تأتى إلىّ فى الساعة الثامنة من الصباح .

هكذا بقيت أحدث نفسى وأنا مغمض العينين ولا أدرى متى دخل النوم إليهما .

٢٩

أصبح عالمى بعد قليل محصوراً فى ذلك المستشفى وأهله — الأخت مرسيديا واللواء مجاهد والدكتور عوض الله أفندى ،وكانت زيارات أهلى وأصدقائى تقطع رتابة تلك الحياة الهادئة التى بلغت مبلغ الركود ، وتدخل إلى وحشتى شعاعاً من الأنس ، فكنت أنتظرها فى تلهف وأتخذ من كل منها ذخيرة أتصبر بها حتى تحين الزيارة التالية . ومن عجيب الطبع البشرى أننا نقبل ما تحتمه علينا الظروف ونلائم بين أنفسنا وبين الأحوال التى نتقلب فيها ، ولو لم تكن فينا هذه المقدرة على الانطباع بالظروف المتغيرة لما استطاع كثير منا أن يطيقوا حياتهم إذا تغيرت أحوالهم من اليسر إلى العسر أو من الغنى إلى الفقر أو من الجاه إلى الخمول ، ولولا هذا الطبع لما استطاع إنسان أن يعيش يوماً واحداً إذا فقد الحرية وهى الهبة الأولى التى تميز الحياة الإنسانية وتجعل لها معنى . الطير والوحش إذا حبست وحيل بينها وبين حرية الفلوات والفضاء لا تطيق صبراً على الأسر ، وقد تنتحر أو ترفض الطعام والشراب

حتى تموت ، ولكن الناس يتمسكون بالحياة وإن كانت فى سجن مظلم تحت أطباق الأرض . وقد عجبت كثيراً وأنا فى سجن الاستئناف من فتى كان محكوماً عليه بالإعدام ولم يبق من عمره إلا أن تنظر محكمة النقض فى أمره ، ولكنه كان يأكل ويشرب ويضحك ويهرج ولا يكاد من يراه يحسبه مهموماً بشيء ، ولو أنه خير بين الموت وبين البقاء فى سجنه طوال حياته لما تردد فى اختيار السجن مع كل ما فيه من ضيق وعذاب وألم لا يقاس به ألم الإعدام فى لحظة قصيرة .

ومهما يكن من الأمر فقد استقر بى المقام فى حجرتى المنعزلة فى المستشفى أترقب زيارات أهلى وأصدقائى كما يترقب الطفل صباح العيد ، وقد صار الناس جميعاً فى نظرى أعزاء والذين كانوا أعزاء من قبل أصبحت حولهم هالة من الحنين تشبه القدسية . وأما أهل عالمى المحدود فقد أصبحت لكل منهم عندى شخصية خاصة به ، ومكانة لا يملؤها سواه .

وقد جاءنى الشيخ مصطفى حسنين ذات يوم فلم أتمالك عينى من الدمع عندما عانقنى وهو يبكى . هكذا نحن معاشر البشر نقيس الأشخاص والأشياء والأمور بمقاييس متقلبة تختلف مع أهوائنا ومع مشاعر الساعة التى نكون فيها .

وكان حمادة من أكثر أصحابى تردداً على زيارتى ومن أشدهم عناية بأمرى ، فلا يكاد يخلو يوم من زيارة يؤنسنى بها وحده أو مع غيره ، وكان قلبى يتوجع كلما تذكرت أن منى لم تسأل عنى ، أما سألت يوماً عن أختى منيرة ؟ أما عرفت أنها سافرت مع أمى إلى القاهرة لتكونا

قريبتين منى ؟ وهل يمكن أن يخفى خبر سجنى عنها مع أن الأخبار تنتقل فى دمنهور مثل تردد الصدى فى الوادى الضيق ؟

ولكنى كنت أعود دائماً إلى نفسى فأراجعها معتذراً عنها ، فما أدرانى أنها عرفت ما أنا فيه ؟ وأما الأستاذ على مختار فإنه لم يأت لزيارتى مرة ولم يحضر فى يوم جلسة من جلسات المعارضة ، بل إنه لم يبعث إلى بكلمة مع أحد أتباعه . كان ساعى مكتبى هو الرجل الوحيد الذى جاء ليواسينى ويقول لى : « تشجع ». وهممت مراراً أن أسأل صديقى عبد الحميد عنه ، ولكنى تكبرت أن أسأل عن رجل يتخلى عنى هكذا مع أنه شريكى فى كل كلمة أنشرها .

وجاءنى عبد الحميد عياد يوماً وكان معه أحد أصدقائى من المحامين الشبان، وذلك فى الليلة التى تسبق جلسة المعارضة الثالثة . وبدا لى صاحبى على غير ما كان منذ رأيته آخر مرة ، عاد كما عرفته من قبل مستقيم العود حاد الملامح هادئ الحركات رصين النبرات، وكان فى مظهره شىء كثير من العناية التى تقرب من التأنق . ودار أكثر حديثنا حول جلسة المعارضة ، ولكن المحامى الشاب لم يكن يعرف شيئاً عن القضية وخيل إلى أنه لا يعبأ كثيراً بأن يعرف عنها شيئاً . فشعرت من حديثه بكثير من الضيق حتى لقد تمنيت لو حدث شىء يحول بينه وبين حضور الجلسة . ولما انصرف بعد زورة قصيرة مع صاحبى عبد الحميد ، هجم على سيل من الهواجس حتى صارت الساعة الثانية بعد نصف الليل ، واضطربت الأفكار السوداء حولى من كل جانب وأخذت أسأل نفسى عما يكون إذا حكم القاضى باستمرار حبسى مرة بعد مرة . فهل

تبقى أمى وأختى بالقاهرة تقيمان فى غرفتى المحطمة ؟ وهل عندهما ما يكفى لنفقتهما التى ضاعفتها عليهما بحبسى ؟ أم أتركهما هكذا لصاحبى عبد الحميد ينفق عليهما وأنا كالمفقود فى سجنى ؟ وقد جعلتنى هذه الهواجس أشعر بأننى قد اقترفت جريمة شنيعة لأنى لم أفكر فى أن ما يصيبنى لا يقف عند شخصى . فلو كنت وحدى فى الحياة لكان مقامى بالسجن لا يزيد على مغامرة تخصنى ولا تمس غيرى . ولكنى جنيت على أمى وأختى وأرغمتهما على أن تغامرا معى بغير أن يكون لهما شعور الرضى الذى يصاحب المغامرة . وقد ألح هذا التفكير على حتى صرت أقول لنفسى : « من أجل أى شىء أقدم على هذه التضحية ؟ من أجل حرية بلادى ؟ وكل هؤلاء الذين يستقرون فى بيوتهم ألا يحسون شيئاً من أجل حرية بلادهم ؟ ألا يزعم الأستاذ على مختار مثلا أنه مجاهد فى سبيل الحرية ؟ وأين هو الآن ؟ أليس يقيم سعيداً فى بيته ؟ وماذا يكتب يا ترى فى بريد الأحرار ؟ لا شك أنه محا عنوان « أنا الشعب » وجعل فى مكانه عنوان قصة عاطفية تغرى بالقراءة مثل « غرام غانية » أو « الحب المحرم » .

وعند ما بلغ بى التفكير إلى هذا المدى تنبهت إلى أن الجزع قد استولى على وجعلنى أنكر كل عقائدى وأبدل كل آرائى . فهل كنت هازلا عندما آمنت بالثورة وبالجهاد من أجلها ؟ أهكذا أنكل عند أول صدمة وأسمح لضعفى أن يغلبنى حتى أكفر بأعز ما آمنت به وأمحو بيدى تلك الصورة التى نصبتها أمام عينى لتكون أمنية كبرى تجعل لحياتى معنى ؟ وأخذت أستعيد لنفسى ذكرى وقفتى عند قبر أبى إذ خيل إلى

أنى أسمع صوته يقول لى : « إن الحياة تناديك يا ولدى ». وتذكرت أنى عاهدته على أن أؤدى واجب حياتى . وماذا تكون قيمة هذا الواجب إذا كان أداؤه لا يحملنى الآلام ولا يكلفنى المتاعب ؟

وثقل جفناى آخر الأمر بالنوم ولكنه كان نوماً متقطعاً مضطرباً ، وقمت فى الصباح الباكر لأستعد للذهاب إلى المحكمة وجاءت الأخت مرسيديا بنفسها لتحمل إلى إفطارى وتودعنى معتذرة بأنها ستكون مشغولة عنى ، ولعلها لا ترانى قبل خروجى . وقالت لى وهى تهز يدى : « أرجوك أن تسأل عنا بالزيارة بعد أن يفرج عنك ، فسيفرج عنك اليوم بغير شك ! » وقلت لها باسما :

– إلى اللقاء يا ملاكى .

فضحكت ضحكة عالية وقالت :

– لقد تعلمت الملاطفة هنا .

وانشرح صدرى لكلمتها واستبشرت بالفرج القريب ، وكان وداع عوض الله أفندى لا يقل عن وداعها بشراً وظرفاً . وكان أسفى عظيماً لأنى لم أودع اللواء مجاهد إذ كان ذلك اليوم غائباً عن المستشفى .

ولما خرجت فى العربة ذاهباً إلى المحكمة ظهرت المدينة أمام عينى باهرة كأنها منظر أنيق لم يقع عينى عليه من قبل . وكنت أحس فى بدنى قوة جديدة من أثر العلاج الذى كان أكبر الفضل فيه للأخت مرسيديا ، فاستقبلت نسيم الصباح فى صدرى رطباً عطراً يملؤنى نشاطاً واستبشاراً . وكنت ما أزال محتفظاً فى جيبى بالمائة جنيه التى ردها إلى حمادة الأصفر وبعشرين جنيها أخرى كانت معى من قبل ، فما كدت أرى صاحبى

عبد الحميد واقفاً عندِ باب المحكمة حتى أخرجت المحفظة ودفعتها إليه بعد التحية قائلا :

ـ خذ هذه النقود فأوصلها إلى أمى . وأرجوك أن تحملها على العودة إلى دمنهور إذا حكم القاضى باستمرار حبسى .

فقال عبد الحميد باسما : فإذا رفضت ؟ على كل حال أرجو أن يكون الحكم بالإفراج عنك .

ولم أجد وقتاً للمجادلة لأن الحارس جذبنى فى رفق من ذراعى ليسير بى . وقلت مختصراً :

ـ أترك كل شىء لتقديرك ، وعلى فكرة أرجو أن تبعث إلىّ ببعض أعداد بريد الأحرار .

وكانت دهشتى عظيمة عندما رأيت عبد الحميد ينظر إلى مبهوتاً وهو يسير إلى جانبى .

فقلت : ألم تسمعنى ؟

فقال فى صوت خافت : لم أرد إزعاجك بالحديث عن بريد الأحرار .

فصحت : ماذا حدث ؟

فقال : هى مغلقة من يوم القبض عليك .

فقلت فى دفعة : والأستاذ على مختار ؟

فقال : هو مثلك سجين غير أنه يستعد لعملية جراحية .

فرفعت يدى إلى رأسى بحركة قسرية وهجمت على موجة شديدة

من حزن مختلط بالأسف على ما سبق من سوء ظنى بالرجل .

واستمر عبد الحميد قائلا : وأحب أن أقول لك إن مرتبك وصل إلى الوالدة فى أول الشهر ، فلا تزعج نفسك بالتفكير فى شأنها .

وكنا قد وصلنا عند ذلك إلى قاعة المحكمة ، وكانت المقاعد مزدحمة بمن فيها ، ولمحت أمى وهى جالسة تمسح دموعها بمنديلها فى الصف الثانى . وأما منيرة فكانت تنظر نحوى وهى جالسة إلى جانب أمى وتحاول أن تبتسم ووجهها يتحرك حزيناً . وتعمدت أن أظهر طبيعياً فتبسمت لهما وحركت يدى نحوهما ثم أدرت بصرى عنهما حتى لا تنفجر دموعى .

ثم أخذ القاضى فى نظر قضيتى وهو هادئ ، وكنت مشغولا عنه بما فى داخل نفسى . ثم بدأت بعد حين مرافعة المحامى ، والظاهر أنه لم يجد وقتاً فى الليلة الماضية ليقرأ دوسيه التحقيق ، إذ كان دفاعه سقيماً متردداً لا روح فيه . وختم مرافعته باعتذار سخيف يزعم فيه أنى لم أقصد شيئاً من وراء ما كتبت ، وأننى أضمر لرجال الحكومة كل تقدير وتبجيل ، فكدت أصيح به أن يسكت وشعرت بالدم يتدفق إلى وجهى ورأسى ، وما كاد يفرغ من مرافعته حتى اندفعت أكذب ما قاله . وأخذت أبين فى وضوح أننى لم أكن هازلا عندما كتبت مقالاتى ، وأننى أشعر شعوراً عميقاً بواجبى فى مجاهدة الفساد والانحلال بكل ما أملك من قوة — وهى قوة قلمى . ثم انطلقت أتحدث عما سميته « التفاهات المسكينة » التى أغرق فيها رجال الحكم أنفسهم وأوشكوا أن يغرقوا فيها البلاد معهم . وختمت دفاعى بصيحة عالية ناديت فيها كل من يقدر الكرامة الوطنية والحرية ومصلحة البلاد أن يعمل على إزالة الحكم الفاسد

حتى لا يجد فى نفوس الأمة دعامة يستند عليها .

وكانت كلمتى الأخيرة مصحوبة بإشارة قوية من يدى وخبطت على القضبان الحديدية التى أمامى قائلا :

« إن الحكام لا يستمدون سلطانهم إلا من الأمة ، ويفقدون كل حق فى السلطان إذا تخلت عنهم الأمة ». وكانت القاعة ساكنة فى أثناء دفاعى كأنها خالية ، ولما فرغت من قولى تلفت حولى وكانت الوجوه ساهمة شاخصة نحوى ، وكان عبد الحميد ينظر إلىّ حزيناً واجماً . وأما أمى وأختى فإنهما كانتا تبكيان بكاء مرًّا .

ونطق القاضى قائلا : « الحكم بعد أسبوع » . هكذا دائماً ! وكان وجهه هادئاً كأنه يقول : « عليكم السلام ». وخرجت من قاعة الجلسة ، ونزعت نفسى من حلقة أهلى وسرت مع حارسى حتى ركبنا العربة وفى قلبى عاصفة . وسارت العربة بى وأنا مطرق لا أنظر حولى حتى وقفت آخر الأمر عند سجن الاستئناف .

٣٠

لم تكن رهبتى من السجن فى هذه المرة مثل الرهبة التى وقعت فى نفسى عندما جئت إلى سجن الاستئناف أول مرة .

وبدأت تستولى علىّ حالة من التجرد والتأمل صرفتنى عن كل شىء ، ووطنت نفسى على أسوأ ما أتوقع ، واتجهت بقلبى إلى الله تعالى

أن يثبت جنانى حتى لا يتزلزل . واستكثرت من الكتب حتى صارت لى مكتبة منوعة أستطيع أن أتنقل فيها كما أشاء ، وكنت أقضى وقتى بين التأمل والقراءة والصلاة ، وما أشقى الذين تخلو قلوبهم من الإيمان إذا ألحت عليهم الكروب .

ولما جاءنى خبر حكم القاضى بعد أسبوع برفض المعارضة واستمرار حبسى لم ابتئس منه بل عزمت على أن أصرف نفسى عن التفكير فى المعارضة حتى لا أزعزع فكرى بالانتظار والتلهف والتساؤل . وجمعت كل إرادتى لأستفيد من وجودى بالسجن ، فكنت أنتهز كل فرصة للتحدث مع زملائى ووجدت فى ذلك ذخراً عظيماً من التأمل .

كنت أشعر فى أول الأمر كأن بينى وبينهم سدوداً منيعة يتحصنون منى وراءها ، أو كأن لهم قواقع ينكمشون فيها كلما أحسوا محاولتى فى الكشف عن ضمائرهم . ولكنى استطعت بعد حين أن أصل إلى قلوبهم وما فيها من صفحات مطوية فى الظلمات . والذين لا يعرفون من الحياة إلا الجانب الوديع الهادئ الآمن لا يعرفون من حقائق الحياة إلا قليلا . فالصفحات المطوية فى أطباق قلوب هؤلاء تروى قصص المآسى التى جفت دموعها ، وتحجر قلبها . وكثيراً ما كنت أسأل نفسى هل ولد هؤلاء هكذا ؟ لا . لا ! لقد ولدوا أطفالا أبرياء كما يولد الأطفال بغير شك . وكان من أقرب نزلاء السجن إلى مودتى ذلك السجين رقم ٩٢ الذى ذكرته من قبل وهو الشاب المتهم بالقتل وكان اسمه نوفل . وكان لا ينقطع عن الضحك والغناء والمزاح مع علمه بأنه لا ينتظر فى الحياة إلا ريثما تنظر محكمة النقض فى أمره . وكان يتحدث عن حكم الإعدام كما

لو كان فكاهة . وقد جمعت بيني وبينه ساعات النزهة فى فناء السجن وكنت أحس نحوه عطفاً عجيباً كما كنت أحس منه عطفاً عجيباً . ولم أستطع أن أدرك السر الذى جعل منه رجلا سفاكاً للدماء مع كل محاولاتى التدسس إلى أغوار قلبه ، وقد عرفت من أحاديثى معه أنه نشأ يتيماً منذ قتل أبوه فى معركة من معارك القبائل بالصعيد ، وأبى أهله أن يدلوا الحكومة على القاتل ليبقى حياً حتى يكبر ابن القتيل فينتقم لأبيه.

وظلت أمه تلقنه عقيدة الانتقام منذ صغره حتى أصبح الثأر عنده إيماناً مقدساً . فلما صار شاباً جعل كل همه أن يتربص بالرجل الذى قتل أباه حتى تمكن من قتله ذات ليلة .

وجاءنى نوفل ذات يوم فى ساعة النزهة وانفرد بى قائلا :

ـ أرجوك أن توصى أحد أصحابك بشراء شمعتين لى .

فضحكت قائلا : أتخاف من الظلام ؟

فقال فى جد : نذر للحسين يا عم سيد !

فظننت أنه سمع شيئاً عن حكم النقض وقلت له :

ـ مبروك ! هل جد شىء ؟

فضحك قائلا : جاءنى الخبر من البلد . جاءنى ولد .

فشعرت بحزن شديد وقلت فى نفسى : مسكين !

وأما هو فاستمر قائلا : حتى لا يشمت بى أولاد عوكل .

فقلت : ومن هو عوكل ؟

فقال فى مباهاة : قاتل أبى .

فقلت : وماذا يهمك ؟

فهز رأسه قائلا : كانت امرأته تشمت بى لأنى لم أخلف ولداً .

فقلت : ألست تخشى مصير هذا الطفل المسكين ؟

فقال : من أولاد عوكل ؟

فقلت : طبعاً، أليست معركة دائمة ؟ كل طفل يأخذ بثأر أبيه .

فقال : ولكن الثأر انتهى عندى . لم يفعل أولاد عوكل وإخوته كما فعل إخوتى وأعمامى . ترك أولاد عوكل أمرهم للحكومة وانتهى الأمر . وحسبوا أن نوفل انتهى وانقطع ولده .

ولكن الحسين جدى ، وزارنى فى المنام يطالبنى بنذره . اصنع الجميل يا عم سيد واشتر لى شمعتين . الحسين جدى والولد سميته حسين . بودى والله يا عم سيد ، بودى لو أطير ساعة واحدة لنجع الساقية وأعود . أوص لى على شمعتين بحق الحسين يا عم سيد .

واضطربت نبرات صوته وهو ينطق بكلماته الأخيرة .

ورفع يده إلى عينيه متأثراً ثم أسرع عنى كأنه يهرب منى .

وأتى عبد الحميد بالشمعتين بعد ثلاثة أيام من ذلك اليوم ليهديهما إلى نوفل ، وكانتا بيضاوين طويلتين منقوشتين من ذلك النوع الذى يكثر استعماله فى الاحتفال بأسبوع الميلاد ، وقد عقد لكل منهما رباطاً من الحرير فى أعلاها . ولكن نوفل المسكين لم يرهما لأن موعد إعدامه كان فى اليوم التالى ، فلم ينزل إلى طابور النزهة فى ذلك المساء .

ولم أبك فى حياتى مثل بكائى المر فى الليلة التالية . فإن ذلك الشاب الذى كان لا ينقطع عن الضحك والغناء والتهريج مع علمه بأن حكم الإعدام معلق فوق رأسه كالسيف ، قد تبدل فجأة إلى حالة فاجعة

من الجزع والثورة منذ علم بأنه رزق ولداً، وقضى الليلة كلها يرسل من غرفته صيحات تشبه زئير الأسد الجريح . وكان فى صوته نغمة جزع وحشىّ تهز أعماق قلبى وتبعث الدموع من عينى . هو واحد من ألوف وألوف ساقتنى المصادفة إلى طريقه أو ساقته المصادفة إلى طريقى ، فلمحت منه لمحة من المآسى الإنسانية التى تنطوى عليها أطباق الحياة المظلمة . ولم أشعر يوماً كما شعرت فى تلك الليلة بأننى لا أعرف من الحياة إلا طرفاً ضئيلا ، وبأننى أكذب على نفسى وعلى غيرى عندما أقول : « أنا الشعب » ، لأننى أغضب وأنطق عندما أحس بالغضب ، ولكن ألوفاً من الألوف لا تستطيع أن تنطق لأنها خرساء . وهناك ألوف من ألوف أخرى من أمثال الطفلين البائسين اللذين وقع بصرى عليهما وأنا محجوز فى قسم البوليس . هؤلاء ينشأون فى العراء ، كأنهم أعشاب البر التى لم يبذر أحد بذورها .

هم لا يقدمون للحياة شيئاً بل يسلبونها أشياء ، ومع ذلك فالراعى لا يعبأ بقطيعه إلا عندما يشعر بالجوع فيذبح خرافه العجاف واحداً بعد واحد . إنه الراعى الأحمق الذى يستحق مصيره إذا فنى قطيعه وهلك هو بعد ذلك جوعاً . . ولكن ما بال القطيع ؟ ما بال القطيع ينتظر طويلا على الراعى الأحمق ؟

قضيت تلك الليلة أحدث نفسى حانقاً حزيناً حتى طلع الصباح الذى حدد لتنفيذ الحكم على نوفل المسكين ورفعت العلم الأسود فوق قلبى وبقيت فى غرفتى كأن ذلك المحكوم عليه بالإعدام أخى من أبى وأمى . واستمرت الدموع تنحدر من عينى برغم كل محاولاتى فى التماسك ، مع أن المسكين كان قد تخفف من كل أشجانه بالموت .

كانت أصداء الصرخات الوحشية التى أرسلها الفتى المسكين فى الليل ما تزال ترن فى سمعى وتصدع قلبى ، وتمنيت لو استطعت البكاء ، ولكنى كنت أختنق بغير دموع . وكانت الليلة التالية من تلك الليالى الحارة الراكدة التى يتعثر فيها الخريف فى شهر سبتمبر ، وزادها شدة لسع البعوض الصغير الذى كان ينتشر مثل سحابة فى الغرفة . واستلقيت كأنى ضال مجهد فى غابة كثيفة لا ينفذ البصر فيها ويتصاعد من خلالها زئير الوحوش . واجتذب نور المصباح بصرى كما كان يجتذب أسراب البعوض الصغير ، وكانت تنبعث منه إلى عينى خيوط ملونة من الضوء تنساب متراقصة وتختلط فيها الحمرة بالزرقة والخضرة وتتشكل فى رسوم هندسية بديعة ، وكلما أغمضت عينى ثم فتحتها خيل إلى أن صوراً ملونة تتطاير حول المصباح وتسبح فى بطء ، وتتواثب كالفراشات ثم تخبو ألوانها شيئاً فشيئاً حتى تزول . فاستغرقت فى النظر إليها وتصورتها كائنات خفية من أرواح جاءت تسبح فى جو الغرفة كالجنيات الصغيرة المرحة التى صورها شكسبير فى القصة التى كنت أقرؤها فى الليلة السابقة . ولم لا ؟ إن الأوهام تخفف عن البؤساء كثيراً مما يعانونه من الأثقال ولو إلى حين . وما معنى الحقيقة التى نتحدث عنها ؟ ألا تكون الحقائق حقائق إلا إذا لمسناها باليد أو ذقناها بالفم ؟ وما زلت مستغرقاً فى تأمل هذه الصور حتى سرى عنى بعض الشىء وبدأت أسأل نفسى : « إلى متى أبقى هنا سجيناً ؟ »

ثم هبت نسمة خفيفة قبل الصباح فلطفت من زمتة الحر وأحسست بأجفانى تسترخى .

٣١

كان الصباح التالى ألطف هواء ، وكانت الساعات التى نمتها كافية لإعادة النشاط إلى جسمى ، فاستقبلت اليوم هادئاً منشرحاً ، وما أعجب طبيعة الإنسان ! إننا ننظر إلى العالم ونحسب أننا نراه خارجنا وما هو إلا فى داخلنا نحن . كانت الغرفة الضيقة هى هى والنافذة الصغيرة ذات القضبان الحديدية والأرض الحجرية الغبراء والسقف الأسود المطأطئ ، كل ذلك كان باقياً لم يتغير ولكن شتان بين صورة ذلك كله فى عينى فى الليلة الماضية وصورتها عند ما طلع الصباح .

ولما جاء حمادة لزيارتى فى الساعة العاشرة استقبلته مشتاقاً مستأنساً إذ لم أره منذ أيام ، ولكنه كان على غير عادته فاتراً حزيناً وبادرنى قائلا :

— أراك فى خير يا سيد أفندى .

فقلت فى دهشة : خير إن شاء الله .

فأجاب منكسراً : مسافر ! راجع لبلدى يا عم . كفاية مصر وما فى مصر .

فقلت : ماذا حدث ؟

فأجاب : لا يا عم ! مالى أنا ومالها ؟ أنا من هنا وهى من هناك ؛ حد الله يا سيد أفندى ؛ كانت ليلة زفت . تصدق يا سيد أفندى أن فطومة تقول لى كل هذا ؟ يا فلاح ؛ يا دون ؛ يا حمار ؛ ولا مؤاخذة يا أستاذ سيد .

فقلت محاولا تخفيف الأمر : أهذا كل شيء ؟

فقال في حزن : لا لا يا سيد أفندي . تبحث لها عن حمار غيري ، أذهب إليها بسيارة محملة بالهدايا وأتحمل وأصبر ويكون هذا جزائي ؟

فقلت : ألا تخبرني ماذا حدث ؟

فقال : اسمع يا سيدي . ذهبت إلى البيت وكانت ست فطومة تستعد للخروج . أتدري مع من ؟ أتعرف الست هدى ؟ النهاية ؛ وحلف الشيخ مصطفى بالطلاق ، وبكت الست فطومة ، ورق قلبي لها واستسمحت الحاج مصطفى حتى قبل أن تذهب بشرط أن أكون معها . ونظرت إلى الست هدى تفحصني من رأسي إلى قدمي ثم قالت : بكل سرور . ورحنا إلى بيت الست هدى في الزمالك ، فيلا أنيقة وحديقة وصالة فخمة وجلسنا ننتظر الضيوف . كانت حفلة يا أستاذ فيها رجال ونسوان وبعد ساعة امتلأت الصالة وصارت هيصة . تعرف من كان الضيف العظم يا أستاذ ؟ سي محمود خلف . يا خبر ؛ وعرفت القصة من عنوانها وبدأت أفهم . وقلت لفطومة : « يلا بنا . . . » وكأني كفرت . قالت : مستحيل ؛ وهات يا فلاح ويا دون ويا حمار أخجلتني ، ومع ذلك قلت لنفسي : « هدئ نفسك يا حمادة » . وبعد ربع ساعة جاءت الست هدى تضحك وتطلب فطومة للمقصف . أي مقصف يا ست هدى ؟ ورنت الضحكة وقالت لي : « تعال معنا يا سي حمادة ! » والبنت تكسف البدر والعيون كلها متجهة إلينا ، وغلي دمي وقلت الأمر لله ؛ هي المرة الأولى والأخيرة وهدئ نفسك يا حمادة . وذهبت ست فطومة وجلست أنظر إليها من بعيد وهي تضحك مع الضيوف ، ولو كانت صاعقة

نزلت على رأسى من السماء كان أهون على يا سيد أفندى . وبعد قليل ذهب محمود إليها وكلمها وضحك معها وأحسيت برأسى تلف ، فوقفت على رجلى وقلت ليلته زفت . ولكن العيون كانت مفتحة لى ، وأقول لك الحق تسمرت فى مكانى . النهاية يا أستاذ فاتت الليلة بالطول أو بالعرض ورجعنا إلى البيت وطول الطريق أخجلتنى يا فلاح يا دون يا حمار يا . يا . لا مؤاخذة يا سيد أفندى . وما صدقت أننا وصلنا إلى البيت وقلت يحرم علىّ دخوله . أنا من هنا وهى من هنا . تبحث لها عن حمار غيرى . من الليلة مسافر إلى دمنهور وربنا يلطف بك وبنا يا أستاذ .

وكنت أنصت إليه فى اهتمام وقلق ، وشعرت بشىء كثير من الضيق والأسف . لم يكن عدول حمادة عن زواج فطومة هو الذى يزعجنى ، بل كان مصير فطومة . بهرتها أضواء المدينة كما تنجذب الفراشة إلى المصباح الذى يحرقها . أهى سوق رقيق جديدة ؟ بخور يحرق للشيطان من جثث فطومة وأمثالها .

وتنبهت إلى صوت حمادة وأنا غارق فى تفكيرى وكان يسألنى قائلا :

ــ ما رأيك يا أستاذ ؟

فقلت غائباً : فى أى شىء ؟

فقال : فى زواج صاحبك عبد الحميد .

فقلت : هل يريد الزواج ؟

فأجاب : أما كنت أقول لك إنى أحب أن أعرف رأيك ؟ إذا كنت تريد أن تزوجه الست منيرة كان بها .

فقلت : وهل هذا من شأنى ؟

فقال : ومن شأن من غيرك ؟

فقلت : ماذا تقصد؟

فقال فى تردد : أريد أن أسأل . المسألة بسيطة . أظن أن عبد الحميد أفندى يريد أن يخطبها . فإذا كنت توافق انتهينا . وأما إذا كان لك رأى آخر . . . أحب أن أعرف لأنى أريد أن أبحث . . .

وتردد لحظة فاتحاً فمه فى ابتسامة بلهاء ، واستمر قائلا فى تعثر : هل ترضى بى أنا ؟ سأبنى لها فيلا والمهر كما تحب ، والأشيا رضا والحمد لله .

فلم أتمالك أن قهقهت من المفاجأة وقلت :

ــ الله يجازيك يا حمادة .

وخبطت على كتفه بيدى قائلا :

ــ ليس هذا من شأنى . منيرة هى صاحبة الرأى الأول والأخير فى نفسها .

واستمرت الضحكة البلهاء على وجه حمادة مدة طويلة ، كما بقيت ضحكتى فى قلبى طوال اليوم حتى جاءت منيرة لزيارتى فى ساعة العصر فكانت موضع فكاهتى معها .

ولست فى حاجة إلى أن أعيد هنا أنى قطعت الأمل فى الخروج من السجن إذ كان المدعى العام يسير فى التحقيق على أكثر من مهله . ومرت الأسابيع تتوالى على وتيرة واحدة . فكنت أقضى الأيام والليالى فى القراءة أو الكتابة أو فى الحديث مع زملائى فى السجن .

ولما بدأت السنة المدرسية سافر عبد الحميد إلى دمنهور ، فصارت

زيارة أمى وأختى مرة واحدة فى كل أسبوع كلما جاء عبد الحميد من دمنهور .

ولم يقطع هذه السلسلة المتصلة من الحياة الرتيبة إلا حوادث قليلة فى مدة الشهور الباقية التى أقمتها فى السجن ، وأولها إتمام النيابة التحقيق فى قضيتى ورفعها إلى قاضى الإحالة الذى أحالها بدوره إلى محكمة الجنايات . وصدر الحكم آخر الأمر بحبسى ستة أشهر لأن القضاء استطاع آخر الأمر أن يجد فى مقالاتى جريمة العيب فى الذات الملكية — ذلك الشىء الذى يمس من قريب أو من بعيد بطريقة مباشرة أو غير مباشرة تصريحاً أو تلميحاً تلك الذات .

وكان أثر الحكم عندى أقرب إلى أن يكون ارتياحاً لأنى كنت أقمت بالسجن خمسة أشهر ولم يبق على من المدة التى حكم بها على إلا شهر واحد . كنت مثل بحار فى سفينة تتخبط فى الضباب وهو يمسك قلبه فى كل خطوة حتى لا يستسلم لليأس . ثم رأى فرجة فى الظلام ولمح الشاطئ أمام عينيه . فمنذ علمت بالحكم تبدل استسلامى إلى استبشار وزال ضغطى على نفسى وكبتى لخلجات أملى ، وبدأت أطلق العنان لأحلامى وسبحات خواطرى ، وكان كل يوم يمر يبعث إلىّ هزة جديدة من التطلع إلى الساعة السعيدة التى عرفت أنها آتية فى موعدها .

ومن واجب الوفاء على لهذه الأيام الأخيرة من إقامتى بالسجن — وقد نقلت إلى سجن مصر — أن أذكر هنا أننى مدين لساعاتها الهادئة بكتابة أكثر فصول هذه القصة التى بدأتها من قبل .وكان هواء الخريف أرفق بى وبدأت الأيام تقصر ، وكان ذلك يتيح لى فراغاً كبيراً للقراءة

والكتابة لأنى فى العادة أكثر إقبالا على العمل فى الليل .

وقد حدث أمر آخر كان له أثر كبير فى نفسى قبل يوم الحرية الموعود بأسبوع واحد ، إذ جاءنى عبد الحميد مع أمى وأختى ، وجرى الحديث بيننا حول ميلادى الجديد بعد خروجى من السجن . وكانت أمى تردد رغبتها فى أن أذهب إلى دمنهور وأنفض يدى من الكتابة التى تقذف بى إلى السجن .

وأما منيرة فكانت تعارض هذا الرأى وترجو أن أقيم فى بيت محترم حتى تستطيع زيارتى بين حين وآخر ، وتتمتع بمشاهد القاهرة التى لم تزرها مرة واحدة فى مدة إقامتى بالسجن . وقد علمت من خلال هذا الحديث لأول مرة أن بريد الأحرار عادت إلى الظهور منذ شهر بعد خروج الأستاذ على مختار من السجن ، فكان من الطبيعى أن أنحاز إلى رأى منيرة فى البقاء بالقاهرة .

وقالت منيرة فى حماسة :

ــ على كل حال لا يليق بنا أن نسافر إلى دمنهور قبل أن تقضى بضعة أيام مع منى .

وتمالكت نفسى حتى لا أصيح أو أثب من مكانى وقلت فى هدوء :

ــ أين ؟

فقالت منيرة : هنا فى القاهرة نسيت أن أعطيك خطابها ــ أين هو يا أمى ؟ هل أخذته منى يا عبد الحميد ؟

فقلت محاولا أن يكون صوتى طبيعياً :

ــ ومتى بعثت بذلك الخطاب ؟

فقال عبد الحميد : طلبت منيرة منى فى الأسبوع الماضى أن أمر على بيت منى لأسأل عنها وعن صحة السيدة الكبيرة ، فأرسلت منى معى هذا الخطاب .

وأخرجه من جيبه وقدمه إلى منيرة .

فقالت ضاحكة : لماذا أخذته منى ؟ كنت أحب أن أقرأه مرة أخرى .

وفتحته وأخذت تنظر فيه وكان قلبى يدق عنيفاً .

وقال عبد الحميد باسما : لم آخذه إلا لأنك قذفت به على مقعد السيارة .

فقالت منيرة : سأقذف به مرة أخرى لأنى لا أفهم منه كلمة .

ومدت يدها نحوى بالورقة الزرقاء ، وكانت مكتوبة بخط صغير أنيق ، تذكرته عندما وقعت عينى عليه . هكذا كتبت لى فيما مضى ورقة صغيرة بمثل هذا الخط تقول لى : « ألف شكر » . وأخذت أقرأ فى صعوبة لأنى كنت أنا الآخر ضعيفاً فى اللغة الفرنسية :

قالت منى تخاطب منيرة بما يقرب من هذا المعنى :

« كنت فى هذه الأشهر الماضية أقاسى متاعب كثيرة ما بين مرض أمى وبعض « مشكلات عملية » أخرى ، لم يسبق لى عهد بها . وكنت أنتظر منك زيارتى ولكنك انقطعت عنى ، حتى خفت أن تكونى مريضة ، فأرسلت أسأل عنك وعلمت أنك سافرت مع الوالدة إلى القاهرة . وكان من الطبيعى أن أفهم من ذلك أنك سافرت للتمتع بمشاهدة العاصمة الجميلة ، فعدت إلى مشاغلى الثقيلة وكنت أتمنى

لو كنت إلى جانبي ، كما كنت أتمنى أحياناً لو كان سيد هنا ليتحمل بعض هذه المتاعب نيابة عني » .

ومن الواضح أني عندما قرأت هذه العبارة أعدت قراءتها مراراً وشعرت بسعادة عظيمة . وقرأت بعد هذا :

« لا يمكنك أن تتصوري برد دمنهور في هذا العام ولا تلك الأمطار التي لا تنقطع في الليل ولا في النهار ، وهذا ما زاد صحة أمي اعتلالا . لهذا لم أحاول أن أعرف شيئاً من أخبارك حتى زارنا الأستاذ عبد الحميد ليسأل عنا ويهدي إلينا تحياتك الكريمة . ولأول مرة عرفت منه السبب المؤلم الذي جعلك تسافرين إلى القاهرة . فأنت مثلي إذن بل أشد مني ضيقاً . أنا آسفة من أجل سيد وإن كان حبسه لا يدعو إلى الخجل ، ولا عار عليه أن يحبس في تهمة صحفية . ولكنها على كل حال كانت مفاجأة شديدة الوقع عليّ وعلى والدتي حتى إنها بكت وكادت تبكيني . ومما يدعو إلى الارتياح أن سيد سيخرج كما علمت بعد أسبوع واحد .

كان الأطباء قد أشاروا على أمي بتغيير الهواء فعرضت عليها أن نسافر إلى القاهرة لنقيم بها بضعة أيام ، فرحبت بالفكرة وأظن أنها ستكون فرصة طيبة لنرى المتهم البريء ونهنئه بالخلاص ، ما دمنا لم نقدر على مواساته في أيامه القاسية . سأكتب إليك بيوم حضوري وإلى اللقاء يا منيرة . وأنا واثقة من أنك ستقومين مقامي في تقبيل يد الوالدة وإبلاغ اعتذاري إلى سيد . . . »

وكان قلبي يثب عنيفاً عند كل كلمة تذكرني مني فيها ، ولم أرفع

رأسى عن الخطاب حتى قرأته مرة أخرى ووقفت عند كثير من فقراته لأقرأها مراراً .

وحاولت أن أكون طبيعياً أيضاً عندما رفعت رأسى آخر الأمر لأعيد الخطاب إلى منيرة ، ولكنى لم أستطع أن أخفى حماستى عندما سألتنى منيرة عن رأيى الأخير فى السفر إلى دمنهور عقب خروجى ؛ فقد أجبتها سريعاً :

ـ لا شك أننا ننتظر هنا .

وقبل أن يودعنى عبد الحميد عائداً إلى دمنهور همس فى أذنى : أحب أن أحتفل بخروجك من السجن بطريقة لا تنسى .

فقلت فى هدوء : هل تكون هنا فى الأسبوع المقبل ؟

فأجاب باسما : هذا يتوقف على إرادتك .

فقلت باسما : ماذا تعنى ؟

فقال هامساً : أعنى أنى أحب أن أسألك هل توافق أن أحتفل بخروجك فى الأسبوع المقبل بطريقة مبتكرة ؟ ما رأيك فى أن أقيم لك احتفالا أقدم فيه شبكة منيرة ؟

فانطلقت منى ضحكة لم أملكها وقلت :

ـ أتسألنى أنا ؟

فقال ضاحكاً : أنا أيضاً دون كيشوت بغير أن أدرى . لم أجرؤ أن أسأل غيرك ؟

فضغطت على يده قائلا : لا تكن أبله .

ولاحظت أنه تحاشى الاقتراب من منيرة وهو منصرف ، كما لاحظت

أن منيرة نظرت إلىّ فى شىء من الارتباك وهى تودعنى .

وامتلأ قلبى بعد انصرافهم بسعادة لا توصف وكنت أردد الدعاء لأختى وعبد الحميد بالسعادة . وبقيت طوال الأسبوع الأخير أطوى فى صدرى الأمنية الكبرى التى أنتظرها — سأخرج من السجن وألقى منى .

٣٢

كما يولد الإنسان ميلاداً جديداً ، خرجت من بين جدران السجن وبدت لى الدنيا فى ألوان زاهية لم يسبق لى عهد بمثلها من قبل . صار الهواء يملأ صدرى عاطراً والضوء يملأ عينى بهيجاً ونضرة الأشجار ترطب قلبى إذا أظلتنى ظلالها . وما كان أسعدنى أن أسير فى الطريق فى ساعات الصباح الباكر ورذاذ المطر يتطاير فى وجهى ، أو عندما كنت أجول فى حدائق الجزيرة فى ساعات العصر والأزهار تتناجى بألوانها الباهرة . من قال إن فى القاهرة شتاء ؟ إنه ربيع باسم ذلك الذى استقبلنى بعد خروجى من السجن وجعلنى أزداد غراماً بهذه الأرض العزيزة . وبعد أن مرت فرحة الأيام الأولى بعد خروجى ، حقق عبد الحميد ما عقد عليه النية من التقدم إلى منيرة ، ولم أسمح لأحد أن يسألنى عن شىء فى أمرها مكرراً فى كل مرة قولى : « ليس هذا من شأنى » .

المرأة هى التى تختار وقد خلقها الله لتختار وعليها وحدها يقع كل العبء فى الاختيار . هى التى ينبغى لها أن توجه حياتها ما دام الله قد وهب لها

عقلا ووهب لها غريزة . النساء ينطقن بوحى الغريزة بأصدق مما تنطق العقول، وليس من الضرورى أن تقول الفتاة : « نعم أرضى » ، فإن ردمويا وحدها تستطيع أن تغنى وترقص وتحرق البخور لنجم الشعرى ثم تسأل قلبها ليهديها ، فينطق لسانها فى صراحة . لم تقل منيرة شيئاً عندما سألها عبد الحميد : « أترضين بى يا منيرة ؟ » . وكانت عند ذلك فى غرفة الجلوس بمنزل عمة عبد الحميد فى اليوم الرابع لخروجى من السجن . وكانت أمى تصلى فى البهو المجاور وكنت أنا غائباً فى أول زيارة للأستاذ على مختار .

وقد أخبرنى عبد الحميد أنها لم تقل له شيئاً بل خجلت وخرجت من الغرفة صامتة . وكان مشفقاً أن يكون قد آذاها أو سبب لها حرجاً، ولكنى كنت واثقاً من رضاها . كان ذلك يبدو واضحاً فى كثير من الأحيان فى الكلمة العابرة والنظرة السانحة ، ولم يخب ظنى عندما سألتها . عندما وجهت إليها سؤالى : « أترضين بعبد الحميد ؟ »

أجابت قائلة : « هذا من شأنك أنت يا سيد » . ثم انصرفت من أمامى .

وكانت سعادة عبد الحميد ظاهرة فى نظرته الشاكرة عندما قلت له « أهنئ نفسى » . وتم الاحتفال بعقد الزواج بعد يومين وكان بسيطاً وسعيداً .

وكانت مقابلتى للأستاذ على مختار صدمة شديدة لم أكن أتوقعها . كنت متوقعاً أن يهب واقفاً ليفتح لى ذراعيه، وهممت أنا بأن أستقبله فاتحاً ذراعى أيضاً كما يفعل الشركاء فى الجهاد عقب المعركة . ولكنى

وجدته رجلا آخر غير الشاب الواثق بنفسه الهادئ المسيطر . كانت نفسه تقطر مرارة وهو يجيبنى عن أسئلتى وقال فى حنق مكتوم :

- لن أقيم فى هذا البلد بعد هذا .

فقلت ملطفاً : هذا شعور مؤقت ، وسيزول بعد قليل لنعيد الجهاد مرة أخرى .

فنظر إلى نظرة حانقة ثم قال :

- من أجل من ؟

فقلت محتجاً : من أجل من ؟ من أجل أنفسنا . من أجلك ومن أجلى ومن أجل كل من يعيش ويتألم . من أجل أبنائنا الذين ما يزالون يتألمون ؛ لا تدع هذا العارض . . .

فقال فى دفعة : عارض ؟ أتسميه عارضاً أيها الرجل وقد كاد يذهب بحياتنا ؟ أما مرضت أنت كما مرضت أنا وقاسيت أنت كما قاسيت أنا ما فى قلوب هؤلاء من وحشية ؟

فقلت فى دفعة أخرى : فليكن يا سيدى . لم تكن هازلين عندما تعرضنا للمعركة . كنا نعلم أنها معركة عنيفة مع قوى طاغية ، بل لقد عزمنا فى بدء الأمر على أن نثير المعركة من أجل هذه القوى الطاغية .

فأشار بيده إشارة يأس قائلا : هى ألفاظ يا سيدى نحاول أن نخدع بها أنفسنا . أتعرف مقدار ما أصابنى من الخسارة ؟ أما عرفت أننى قضيت أسبوعين بين الموت والحياة .

فاندفعت قائلا : وماذا لو لقينا الموت يا سيدى ؟

فضحك ساخراً لأول مرة وقال : هذا شىء آخر . هذا لم يدخل

فى حسابى يا سيدى . لست أريد أن أضللك أو أن أقول كلاماً ضخماً لأخدعك ، لأننى أعرف أنك تفهمنى عندما أقول لك رأيى صريحاً . عندما نقول إننا نريد الجهاد فإننا نقصد أننا نجاهد بآرائنا لا بأجسامنا . أظننا لم نقصد أن نموت الآن يا سيدى .

فقلت : إننا لم نمت بعد .

فقال مشيراً بيده مرة أخرى إشارة اليأس :

ـــ هذا رأيك يا صديقى . وأما أنا فقد عزمت عزما أكيداً على أن أترك هذا البلد فى أول فرصة . لا مقام لى هنا .

فقلت : إلى أين ؟

فقال فى ضيق : لم أفكر بعد . إلى أى ركن من أركان الأرض لأعيش إنساناً .

فأحسست أننى حيال رجل إما أن يكون محطماً فى ساعته تلك ، وإما أن يكون طفلا ، وقلت فى نغمة ساخرة :

ـــ لم تفكر بعد ، ولكنك تعزم عزما أكيداً ؟

فقال فى شىء من الغضب : ماذا نصنع هنا ؟

فقلت : بل ماذا تصنع فى غير هنا ؟ هنا بلادنا ولا مفر لنا من أن تكون هى بلادنا . أى بلد يقبلك كأحد أبنائها ؟

أتقبلك إنجلترا أو فرنسا أو أمريكا أو غيرها لتكون ابناً من أبنائها ؟ لن تكون هناك إلا نزيلا غريباً تقضى أيامك فى فراغ . أم تريد أن تذهب إلى بلد شرقى يمكن أن يكون أقرب إليك ؟ أين ؟ تعيش فى تركيا ؟ فى سوريا ؟ فى العراق ؟ فى السودان ؟ تعيش هناك على هامش الحياة

وأهل تلك البلاد يجاهدون كما نجاهد نحن ؟ هل ترضى أن تكون غريباً بين قوم يجاهدون من أجل أنفسهم وأنت ساكن ؟ أم تريد أن تشارك هؤلاء فى جهادهم وتتخلى عن الجهاد هنا ؟

فسكت ناظراً إلى نظرة حزينة ، وعلمت أنه يعانى صراعاً عنيفاً فى أعماق نفسه ، فأشفقت أن أزيده ضيقاً وسكت آسفاً . وقلت فى نفسى إن الوقت كفيل بإزالة الذكريات الأليمة .

ولكنه لم يلبث أن صدمنى صدمة أخرى أعنف من الأولى عندما قال لى :

ـ على كل حال يا أستاذ سيد ، هذا موضوع آخر . . أما عملنا فى هذه الجريدة فسيستمر طبعاً . وقد أطلب منك قريباً أن تقوم على إدارة الجريدة بدلا منى . سيستمر مرتبك كما كان على أن تكتب للجريدة قصة كلما أردت .

وشعرت بالدم يصعد إلى رأسى . أكتب قصة ؟ الأمر أخطر من أن أكتب قصة ؟ وهل أستطيع أن أكتب كل يوم قصة فى الموضوع الواحد الذى يستولى على كل عقلى وقلبى ؟ ما هو المصير الذى نتجه إليه ؟ وهل يفرغ ذهنى إلى أن أعيش مع الصور فى قصة وأنا أرى الحياة من حولى تفور وتنفجر ولا يدرى أحد ماذا يحدث فيها غداً ؟

وقلت مختصراً : أرجو لك التوفيق يا سيدى .

واستأذنت منصرفاً حتى لا أزيده ضيقاً إذا نطقت بالكلمات التى وثبت إلى طرف لسانى .

وخرجت من عنده والأسف يختلط فى قلبى بالحنق والحيرة والعجب ،

وخطر لى خاطر قوى أن أنقطع عن بريد الأحرار مهما كلفنى ذلك من المتاعب ، بل لقد هم بنفسى وأنا غاضب أن أعيد إليه مرتب الشهور الستة التى بعثت بها الجريدة إلى أمى فى مدة السجن ، ليكون جوابى شافياً لغضبة قلبى . ولكنى لم ألبث أن سريت عن نفسى أثر هذه المقابلة وأقبلت على الفضاء الطلق أعب منه حتى أروى بعد طول تعطشى إليه . وكان عبد الحميد فى إجازة نصف السنة ، ولكنه كان مشغولا عنى برحلاته مع منيرة ، فكنت أخرج وحدى كل صباح قاصداً أحد الأطراف البعيدة لأقضى فيه يوماً بعيداً عن ضجة المدينة لأفكر فيما أستقبل به حياتى الجديدة . نعم كانت حياة جديدة بعد ميلاد جديد . وذهبت يوماً إلى الأهرام مبكراً لأتمتع بجولة إلى جانب الأثر الأشيب الذى يجتذب طلاب الروعة من أركان الأرض . وكان الناس هناك ينتشرون فى الهضبة بعضهم يسير فى جماعات مرحة والبعض الآخر يسير مثنى ، ولم يكن من يسير وحده غيرى . فسرت فى صحبة أفكارى حتى وصلت إلى قريب من الاستراحة الملكية فتنبهت إلى صوت الحارس الذى يزجرنى لأبعد . وقلت فى سرى : فرعون القزم هنا ؟

وثبت إلى صدرى كل مشاعر الحنق الذى كنت أكبتها حتى لا تعذبنى فى أيام سجنى . هذا الرجل الذى تعذبت من أجله يقيم هناك ليتنزه ، ولست أدرى مع من يقيم فى تلك الاستراحة . بنى فرعون خوفو هذا الأثر الخالد لأنه كان يطلب مثوى لروحه وهذا فرعون القزم يطلب استراحة لجسده . وتأملت من بعيد هندسة بناء الاستراحة ونقوش مداخلها فبدت لى كأنها تسخر من نفسها وقلت فى نفسى :

ــ هكذا يزيف طالب المتعة فن القدامى . كان ذلك الفن فى عصره رمزاً للجلال الذى يملأ القلوب عندما كان الناس يؤمنون بشىء جليل فى قلوبهم : ولكنه اليوم لا يزيد على حلية مزيفة . وبدت الاستراحة فى عينى مثل مرقص خليع فى هيكل عبادة . أما كان أولى بفرعون القزم لو بعد قليلا عن الأثر الجليل حتى لا تبدو السخرية واضحة ؟ وأية سخرية ؟ وماذا يصنع كل هؤلاء المنتشرون فى الهضبة سوى أن يسخروا عند أقدام الهرم ولا يشعرون له إجلالا ، ما دام فرعون القزم يضرب لهم المثل فى السخرية ؟ ومن هذه الفتاة ؟ هل أصدق عينى ؟ أهذه فطومة ؟

كانت فطومة تسير على مسافة منى وهى تميل على ذراع محمود خلف عند زاوية الهرم الشمالية وكنت عند ذلك مرتداً من ناحية الاستراحة . ووقفت متردداً بين أن أذهب إليها لأصفعها وبين أن ألتمس لنفسى مكاناً أتوارى فيه . وغلب على الرأى الأخير فاتجهت مسرعاً إلى حرف الهضبة الهابط إلى الغور المنخفض الذى تلوح فيه بركة ماء من بعيد ، فانحدرت متعثراً فوق السفح . ثم بدا لى سخفى فعدت أدراجى واتجهت إلى المنحدر الذى يؤدى إلى محطة الترام . وكان رأسى مشغولا بصورة فطومة الغادة فى ملابسها الأنيقة وحليها الكثير ، وقوامها الرشيق وهى تميل على ذراع محمود . وتلفت قبل أن أهبط فى المنحدر فرأيتهما من بعيد بين الجموع الواقفة تتطلع فى فضول نحو الاستراحة لتخطف نظرة من فرعون القزم . ثم خفضت رأسى كأنى أتحفز لصراع وأسرعت فى حنق متجهاً إلى محطة الترام .

وقضيت مدة سيرى إلى القاهرة مضطرب الفكر بين أحاديث مختلفة تتدافع ليحل بعضها محل بعض فى عنف . ذلك الحكيم الذى صمم بناء الهرم الجليل كان شاعراً عظيما أو فيلسوفاً كبيراً فوق أنه كان فناناً. أى إيمان ذلك الذى كان يحرك قلبه ويجعله يجرؤ على هذا العمل الهائل ؟ وفرعون الصغير يعود فى موكبه ولا يسمح للترام أن يسير حتى يمر الموكب . وفطومة ومحمود يبقيان هناك إلى جانب الهرم ، واخجلاه ! الساخرون الذين لا يرهبون من شىء مقدس ، والأغبياء الذين يقصر ذكاؤهم عن إدراك المعانى الجليلة يمرحون فى تفاهتهم ، ولا يحسون أننا جميعاً فى الطريق إلى الهاوية . وبدلت الترام عند الجيزة بغير أن أفكر وسرت فى ترام آخر بغير أن أفكر . كان ذهنى يدور فى أفكاره المضطربة عوداً على بدء بغير توقف . وتنبهت آخر الأمر عندما قربت من ميدان قصر النيل وكان هناك صف طويل من عربات الترام يسد الطريق . فنزلت لأرى منظراً لم يخطر ببالى ، وكان الناس يتسارعون فى كل اتجاه فى هلع ويقولون : « القاهرة تحترق » ، فأسرعت إلى شارع سليمان باشا وكانت النيران تندلع من شارع البستان والجموع الهائجة تسيل بالطرق فى كل اتجاه .

وجريت إلى ميدان سليمان وكان شعلة من اللهب . ماذا حدث ؟ وجريت إلى شارع قصر النيل فعماد الدين فشارع فؤاد وكنت ألهث من التعب ولا أقدر أن أقف . كنت أريد أن أعرف إلى أين ينتهى الحريق . هل القاهرة كلها تحترق ؟ هل هى ثورة ؟ كان شارع فؤاد أيضاً يشبه حاجزاً من اللهب فى معركة دموية ، والجموع المتدافعة تنساب كمياه

السيل فى كل شعب من الطريق . جموع تقتحم المتاجر وأخرى تتدفق صائحة هائجة . أهكذا تندلع الثورة فجأة ؟ ومررت أمام متجر مانويل الفخم ، وكانت ألسنة اللهيب تطل من نوافذ الطبقات المتتالية كأنها تشير إلى الطريق تطلب الغوث . وأين الإسعاف ؟ ولم يكن هناك أيضاً رجال مطافئ كأن المدينة قد خلت من الحكومة . وانساب نهر من الجموع إلى ميدان الأوبرا ونهر آخر إلى شارع إبراهيم ، وفى مقدمة كل فرع بعض أفراد يسيرون كأنهم طليعة . أهى ثورة مدبرة ؟ لم لا وفرعون القزم يلهو فى الصباح فى مخبئه ؟ وكان قلبى يثب كأنه يتداعى مع الأبنية المنهارة . أهذه هى الثورة ؟ هى جانب لا ينفصل عن الحكم الضعيف المزيف ، الذى لا بد أن ينتهى إلى الثورة . ومع كل ما كان فى نفسى من الهم والغم شعرت بأن شيئاً جديداً قد حدث .

وتذكرت أن أختى وعبد الحميد كانا يعتزمان أن يخرجا إلى المدينة فى الصباح ، فجريت نحو المنزل . لم تكن هناك سيارة لتحملنى ، وكنت متعباً ولكنى اندفعت بقوة مضاعفة .

وبلغت المنزل آخر الأمر ، وهدأت قليلا عندما رأيت أمى وأختى تنتظران فى لهفة بالطبقة السفلى من الدار . وأخذتنى أمى بين ذراعيها ثم ارتميت على كرسى خائر القوى .

٣٢

سافر عبد الحميد ومنيرة إلى دمنهور بعد إقامة أسبوعين أطلقا عليهما اسم أسبوعى الجبن لا العسل، لأنهما لم يخرجا فيهما للنزهة فى أرباض القاهرة فى النهار أو إلى ملاهيها فى الأماسى ، لأن حريق القاهرة لم يدع لهما انشراحاً إلى الجولات التى أعدا خططها . منازه طريق الأهرام وشواطئ النيل ودور التمثيل والسينما وأبهاء الفنادق الكبرى ومقاصف الريف — كل هذه كانت بين محترقة أو مغلقة . وكانت منيرة تخشى الخروج فوق هذا خوفاً أو كما قالت هى جبناً من أن تعترضها ثورة جديدة على حين غرة ، كما اعترضتنى يوم خرجت للنزهة عند الأهرام فى الصباح فإذا هى تثور وتحرق قلب المدينة فى ساعة . وقد أصرا على أن يأخذا أمى معهما بعد أن عجزا عن حملى على الرجوع إلى دمنهور . ولست أخفى أننى ارتحت إلى هذا الرأى ، فما كان من اليسير على أن أتمسك بأمى لتعيش معى وأنا عاطل عن العمل منذ انقطعت عن بريد الأحرار.

ولما بقيت فى القاهرة وحدى وجدتها غير القاهرة الأولى التى أقبلت عليها مملوءاً بالأمل والحماسة . كان فى جيبى ستون جنيهاً بعد أن قاسمت أمى فى الجنيهات المائة والعشرين التى أعادها إلى عبد الحميد،وكان لا بد لى من الاقتصاد فى النفقة لأستكفى بذلك المال الضئيل أطول مدة ممكنة ريثما تسوق إلى الأقدار عملا ليس فى حسبانى .

فاستأجرت غرفة فى فندق صغير فى حى سيدنا الحسين، وكان من السهل على أن أجد هناك ما يناسبنى من الطعام الرخيص . فكانت الأيام تمر بى موحشة فى مدينة تموج كالبحر فى أعقاب عاصفة . كل يوم شائعة عن مخاوف غامضة ، والأرض تتزلزل تحت أقدام الحكومة الجديدة الذى أعقبت حكومة الحريق، وحلقات القهاوى المتواضعة تتناقش فى حنق، وأندية الجمعيات الشعبية تحفل كل ليلة بهواة السياسة . واستعنت على قضاء الوقت الموحش بارتياد تلك المجالس على اختلاف ألوانها ومشاربها، ولم أجد صعوبة فى الاندماج فيها ، فلم يمض إلا أسابيع قليلة حتى كنت من أركانها وأقطابها . وكان الجميع يقولون إننا على حافة هاوية ولا مفر لنا من التردى فيها ، بأس مظلم فى كل مكان، وحيرة مغلقة فى قلبى وسؤال واحد يعاودنى كل صباح وكل مساء « أين أذهب ؟ ». وكانت منيرة تبعث إلى فى كل أسبوع مرة أو مرتين بخطابات لا تزيل وحشتى بل تزيدنى وحشة وانقباضاً، وفى كل خطاب تعيد على عبارة تختم بها حديثها فتقول أحياناً « منى تسلم عليك وتريد أن تراك » . وتقول فى أحيان أخرى « منى تهديك سلامها وتسأل عن صحتك » . فكنت أفرغ من قراءة الخطاب فى شىء يشبه الحنق وأضعه فى جيبى مكرراً فى نفسى إنها تسلم على وتسأل عن صحتى كما يفعل الناس إذا تلاقوا فى الطريق . ثم أزيد على ذلك أقوالا أخرى أشد قسوة لأنى كنت فى تلك الأيام قوى الشعور بأنى عاطل لا أعرف لنفسى وجهة أتجه إليها . ومع كل ما قاسيته من الوحشة والضيق والتعطل لم تسمح نفسى بأن أعود إلى بريد الأحرار ولم أحاول أن أبحث عن عمل آخر . شىء

واحد كان يبعث فى قلبى بعض الراحة وهو اتصالى بجمعية « شبان الفداء » ، التى كانت تعقد جلساتها فى بيت أحد أعضائها الطالب فى كلية الشريعة ، إذ كانت الخطب العنيفة التى تنطلق بغير تحرج ولا تحفظ كأنها قذائف من الرصاص تخفف من حنقى المكبوت . وكان نصيبى منها لا يفوتنى كلما اجتمعنا ، فأفرغ ما فى قلبى من الحنق على الطاغية والطغيان والفاجر والفجور ، غير متورع عن التصريح بأنه الفرعون القزم . ولست أدرى كيف خفيت هذه الأحاديث عن آذان جواسيس الحكم ، فإنها لو بلغتها لما احتاجت النيابة إلى تفسير أو تأويل فى إثبات تهمة العيب التى قضت خمسة أشهر فى إثباتها على فى المرة السابقة . ولكنى كنت فى كل مرة أذهب فيها إلى تلك الجلسات الحامية أعود إلى غرفتى فى أواخر الليل بأعصاب مشدودة تكاد تتمزق . وكان يضايقنى من المجتمعين فى الأندية والقهاوى أنهم لا يستطيعون غضباً إلا إذا تحدثوا عن غلاء الطعام والكساء أو كساد التجارة أو ما يماثل هذا من هموم الحياة ولا يكادون يتحركون لفقدان الكرامة القومية أو الحريات أو العدالة . ولهذا كنت أقترب يوماً بعد يوم من الشعور بالفشل ، وأن الثورة التى آمنت بها وتمنيتها ووقفت كل أملى عليها لا وجود لها فى القلوب . وبدأت أرى أن الثورة التى أرى علاماتها وأحس خفق أجنحتها فى الظلام ليست سوى ثورة أبدان أو ثورة خذلان كتلك التى أحرقت القاهرة . وبدأت أشفق وأتوجس حتى امتلأ قلبى غماً وهماً ويأساً . وفى يوم من الأيام كنت أؤدى فريضة الجمعة فى مسجد الحسين ، ولا أستطيع أن أصف حالى وأنا قائم أصلى . كنت لا أملك دمعى وأنا أقرأ ، وكأن كل عرق

فى بدنى ينتفض من حزن غامض . وكان يستولى على شعور يشبه شعورى عقب وفاة أبى وأنا فتى صغير ، عندما خيل إلىّ أننى أعيش فى فضاء لا وطاء من تحتى ولا غطاء من فوقى . وحاولت جهدى أن أتماسك ولكن الدموع كانت تغلبنى . ولما فرغت من الصلاة رأيت (خضرجى) ساعى مكتبى فى بريد الأحرار جالساً إلى جنبى وسمعته يقول لى « أين أنت يا أستاذ سيد ؟ » . ومضت لحظة طويلة قبل أن أستطيع إجابته قائلا « كيف أحوالك يا أخى ؟ » .

فقال وهو يصافحنى :

ــ « حرماً ! تشجع يا أستاذ ! »

فتذكرت كلمته التى قالها لى يوماً وأنا فى المحكمة وشعرت نحوه بشكر عميق وقلت مجيباً :

ــ جمعاً إن شاء الله ! أشكرك يا صديقى .

وضغط على يدى قبل أن يرسلها وقال :

ــ الأستاذ يسأل عنك كل يوم .

فقلت متكلفاً الهدوء : وكيف حاله ؟

فقال : مسكين يا أستاذ سيد . صار لا يطيق شيئاً . انتهت مجالسه الحافلة التى كانت تؤنس الجريدة ، وفى كل يوم مصادمة مع محرر أو آخر . وأظنه استخرج جوازاً للسفر إلى أوربا . ولم يخل قلبى من الشعور بالأسف والعطف ، وتذكرت كيف كان يكرمنى وكيف كان يشاركنى فى مشاعرى . وقمت مع (خضرجى) خارجين من المسجد فتمسكت به ليتغدى معى . وذهبنا إلى مطعم الدهان كما تعودت أن

أذهب فى كل جمعة كأننى أدخر منه ذخيرة لمدة الأسبوع . وقضينا معاً بضع ساعات سعيدة بين الغداء وبين شرب الشاى فى مقهى الفيشاوى ، ولا أخفى أننى مع كل ما شعرت به من السعادة فى مرافقة خضرجى والتمتع بحديثه ، أحسست فى كثير من اللحظات بما يشبه الخجل من أن يرانى بعض معارفى جالساً مع ساع فى بدلته الصفراء . وقد كبحت هذا الإحساس فى حنق وكررت لنفسى أن هذا الساعى لو وقف أمام الله إلى جنب محمود خلف لكان هو الأكرم مكاناً .

وحدثنى خضرجى حديثاً بسيطاً لم أشعر معه بمضى الوقت ، ووجدته ملمًّا بكثير من أسرار السياسة فزاد قدره فى عينى فوق ما كان له من قدر فى نفسى ، وتبينت أننا لا نلمح حقائق الناس إلا إذا فتحت شدائد الحياة أعيننا . كل منا يعيش فى عالم يغلقه من حوله ويقيم حوله الحواجز من كل ناحية فلا يبصر الآخرين إلا من بعيد ، ولا يميز بعضهم على بعض إلا بمظاهرهم .

واستمر خضرجى ينتقل من موضوع إلى آخر حتى استرعى اهتمامى بقوله عن الأستاذ مختار :

ـ أظنه صار يخشى التورط ، كما يخشى النزول إلى البحر من نجا من الغرق .

فسألته : ماذا تقصد ؟

فمال على المائدة التى بيننا قائلا :

ـ فضيحة الأسلحة ! لا يرضى أن يكتب عنها ، مع أنها تفيد توزيع الجريدة إلى أكثر مما كان قبل إغلاقها .

فقلت : وكيف ذلك ؟

فأجاب : عندما قدمت القهوة منذ يومين لضيفه وجدتهما يتناقشان فى شىء من الحماسة وأمامهما ظرف كبير . فوضعت الفنجانين ولمحت على وجه الأستاذ تلك السحابة التى أعرفها عندما يكون فى حيرة . كان وجهه محتقناً ونظرته تطلب النجدة . ولا تؤاخذنى إذا اعترفت لك أن الفضول دفعنى إلى التجسس ، فعندما خرج الأستاذ يشيع ضيفه فتحت الظرف وقرأت عنوان الملف « فضيحة الأسلحة الفاسدة » .

ولما عاد الأستاذ طلب فنجاناً آخر وأخذ يقرأ الأوراق متمهلا ووجهه يزداد احتقاناً . وعاد الضيف بالأمس ، وكانت بينهما مشادة عنيفة ، وأرسلنى الأستاذ بعدها لأستخرج له جواز سفر إلى أوربا . ألا ترى أنه يخاف من التورط ؟

أين تقيم يا أستاذ سيد ؟

فقلت فى تردد : فى فندق الأميرة الصغيرة .

فقال وهو يهم بالانصراف : سيسره جداً أن يعرف عنوانك . كل يوم يسأل عنك . إلى اللقاء يا أستاذ .

ومضى بعد أن حيانى تحية حارة وشكرنى ، وبقيت وحدى أجتر ما سمعته على مهل مع كأس أخرى من الشاى . وخطر لى أن الأستاذ على مختار ليس وحده الذى يشفق على نفسه من التورط . وأى عاقل لا يخشى أن يذهب إلى السجن بعد أن يذوقه مرة ؟ ذلك السجن الذى يحوّل القاتل الجبار إلى جبان يرتعد هلعاً . ولكنى عدت إلى نفسى أقول إن اللوم علينا إذا تركنا أنفسنا لهذا الخوف ينحرف بنا عن غايتنا ،

فلو خشى المجاهد فى ميدان القتال أن يصاب بجرح مرة ثانية لما عاد إلى الميدان أبداً . والذى ينجو من الغرق مرة لن ينزل إلى الماء إذا لم يقاوم خوفه من الغرق .

وهكذا مضيت فى أفكارى حتى صارت الساعة الخامسة بعد الظهر ، فقمت أسير على قدمى نحو دار بريد الأحرار ، لألقى الأستاذ على مختار .

٣٣

لم نلبث بعد أن لقيت الأستاذ على مختار أن بدأنا المعركة ثانية ، وأخذنا نواجه الموقف فى صراحة . ففى اليوم التالى لعودتى إلى « بريد الأحرار » نشر المقال الذى كتبته بعنوان عريض على أنهار الصفحة الأولى كلها :

« الخيانة القومية الكبرى — فضيحة الأسلحة الفاسدة — نقتل أبناءنا بأيدينا ! »

ولم يخف الأستاذ على مختار شعوره الحقيقى عندما دخلت عليه فى الصباح وكان يقرأ المقال ، إذ قال لى بغير مواربة :

— هى معركة الحياة أو الموت يا أستاذ سيد .

فقلت :

— بل معركة الحياة يا سيدى . وهل تستحق الحياة أن نحرص عليها إذا استمرت هكذا ؟.

فضحك قائلا : كلمة جميلة عندما نسمعها بآذاننا فقط .

فقلت جاداً : بل نجدها جميلة لأننا نؤمن بها . من الطبيعى أن نحب العافية ونتحاشى الآلام والمتاعب ، ولكن من الطبيعى أيضاً أن نخوض معركة .

فقال باسما : قل أيضاً إنها طبيعة مهنتنا . هذه هى الحجة التى تجعلنى ألقى سلاحى . وعلى أية حال لم يصادر عدد اليوم ، وهذا دليل على أن القذيفة أصابت هدفها .

وأدهشنى من الأستاذ على مختار أنه بدأ يتحول إلى شىء يشبه حاله الأولى بعد بضعة أيام ، ونشط من الفتور الذى طرأ عليه وعاد مكتبه فى كل ليلة منتدى سياسياً يضطرم بالثورة .

ولكنه كان مع ذلك لا يخلو من التوجس ، ففى كل صباح يبادرنى عندما أذهب إليه قائلا :

ــ لم يصادر عدد اليوم أيضاً .

وشغلتنى المعركة العنيفة عن كل شىء حتى عن أمى وأختى وعن منى . وعادت الثورة تخفق فى قلبى وتضطرم فى كل مكان ، وكنا نتوقع أن تندلع فى كل صباح . وماذا كان يجعلنا نشفق من الثورة ؟ كان اليأس يدفعنا إلى طلب التغيير ولو إلى حريق أخرى . وكما يحدث للمقاتل إذا حمى القتال فجعله لا يفكر فى شىء غير القتال ، جعلتنا المعركة الصحفية لا نفكر فى شىء سوى الفضيحة المقبلة . فضيحة القطن وفضيحة البورصة وفضيحة تجارة المخدرات وفضيحة الاغتيالات الجهنمية وعشرات أخرى ــ كل واحدة تثير زوبعة قبل أن تهدأ التى

سبقتها . وفى غمار هذه المعمعة كانت منيرة تبعث إلى خطاباتها بغير انقطاع وكل منها ينتهى بالعبارة المألوفة « منى تسلم عليك وتسأل عنك » فأطوى الخطاب فى شىء من الحنق وأضعه فى درج مكتبى وأرسل جواباً قصيراً أرد فيه التحية الجوفاء بمثلها « أرجو أن تبلغى منى سلامى وسؤالى عنها » .

هكذا مضت الأشهر واحداً بعد واحد حتى أتى إلىّ خطاب من منيرة فقرأته مسرعاً وكدت أضعه مع الخطابات الأخرى لولا أنى وجدت تغييراً فى الخاتمة : « منى تسأل عنك وهى متألمة منك » فوضعت الخطاب أمامى ونظرت إلى الفضاء حيث كانت صورة منى . ماذا تنتظرين منى ؟ وأينا الذى يغضب ويتألم ؟ هكذا قلت فى نفسى ونظرت إلى الساعة فوجدتها الحادية عشرة . وقمت لأستأذن فى إجازة قصيرة وأسرعت إلى المحطة لأسافر ، وأخذت معى كتاباً لأقطع على قراءته الطريق حتى لا أحس طول السفر . وذهبت من تو وصولى إلى دمنهور قاصداً إلى بيت منى ، وكانت الساعة الرابعة عندما طرقت الباب . وعرفتنى الخادم ففتحت لى غرفة الاستقبال .

وكان الجو حاراً فخلعت طربوشى ووضعت الكتاب الذى كان معى على منضدة ، ومكثت بضع دقائق أنظر حولى إلى ما فى الغرفة وأنا أفكر فيما أقول إذا لقيت منى . كانت الغرفة كما تركتها آخر مرة ، الصورة الحزينة المجللة بالسواد ، والستائر المقلوبة ، والأوانى المنكسة ، وزادها كآبة شىء من الإهمال فى الترتيب والتنظيف . وكان قلبى ممتلئاً بالإشفاق والحزن عندما جاءت منى مثل زنبقة مشرقة ، وملابسها السود

تجعل على وجهها مسحة من الصفرة . وكان وجهها الباسم وعيناها الصافيتان تقولان مع لسانها « مرحباً . الحمد لله على السلامة ! » ومددت يدى الاثنتين لآخذ يديها وأضغط بهما على صدرى وأنا لا أدرى ماذا فعلت . وكان خفقان قلبى يحول بينى وبين النطق ؛ وقالت منى وهى تجذب يديها :

ـ أهكذا لا تأتى إلينا إلا بإنذار ؟

فقلت فى حرارة : كنت فى الانتظار دائماً .

وتركت يديها وجلست وقلبى يدق عنيفاً .

وقالت فى نغمة اعتذار :

ـ لو عرفت ما كنا فيه هذه الأشهر لما تأخرت هكذا عن الحضور . فى كل أسبوع ننتظر إلى الأسبوع المقبل بغير فائدة .

فقلت : وأنا أيضاً فى كل يوم أنتظر الصباح المقبل بغير فائدة . فى كل يوم أنتظر برقية تنبئ بحضوركم فلا يصل إلى إلا خطاب منيرة تقول لى إنك تسلمين على وتسألين عن صحتى كما يفعل الذين يتقابلون فى الطريق . أهذه هى الإشارة المنتظرة ؟

فضحكت قائلة : إذن فأنت الغاضب لا أنا ! وماذا كنت تريد أن أقول غير أن أسلم عليك وأسأل عن صحتك ؟ أتنتظر أن أرجوك الحضور حالا كما يفعل أصحاب الأعمال ؟

فقلت بصوت متهدج : إذن فأنا أعترف بخطئى . كيف أنت وكيف صحة عمتى ؟

وكنت على وشك أن أسأل عشرات من الأسئلة لولا أنها قادت قائلة :

– هى أكثر زعلا منى .

وقمت معها فدخلنا إلى حجرة السيدة وكانت جالسة على كرسى كبير إلى جوار سريرها ، ومدت إلى يدها قائلة :

– الحمد لله على السلامة ! أنت هنا أخيراً ؟

فقبلت يدها وقلت :

– بل كنت هنا دائماً .

فضحكت ناظرة إلى منى وقالت :

– ومن يقدر عليه فى القول يا منى ؟ تفضل هنا يا سيد .

وأشارت إلى كرسى أمامها . وجلست منى على حرف سرير أمها .

فقلت مبادراً : لست أقول كلمة جوفاء يا سيدتى . فلو أطعت نفسى لكنت فى كل يوم هنا .

وقالت السيدة وهى تمد رجليها متألمة :

– آه يا ولدى ، ما أشد هذه الآلام التى أعانيها . كنا نود تبديل الهواء لعل هذه الآلام تفارقنى ، ولكن كيف أسافر هكذا ، والمشاكل التى لا تنتهى ، والقاهرة التى تحترق ؟ النهاية يا سيد الحمد لله على السلامة ! لقد حزنت والله عندما علمت بما حدث لك ، ولا أدرى ما هذه السياسة التى تعذبون أنفسكم فيها . رحم الله والدك العزيز يا منى كم قلت له أن يبعد عن السياسة ، ولكن الحمد لله على كل حال يا سيد . قولى له يا منى كيف كنا نقول « أين سيد ؟ » .

فقالت منى ضاحكة :

– قبل أن يشرب القهوة يا ماما ؟

وكانت الخادم فى تلك اللحظة داخلة تحمل صينية القهوة ، فأخذت فنجاناً كنت محتاجاً إليه واستمرت السيدة فى حديثها ، وكان كل حديثها أو أكثره عن محمد خلف باشا وولده محمود : الباشا يحسب عشرة آلاف جنيه على التركة ويزعم أنه صرفها لحمادة الأصفر ، مع أن الجميع يعرفون الحقيقة ، وإيراد العزبة البحرية يهبط إلى النصف ، خمسمائة فدان لا يزيد إيرادها على عشرة آلاف جنيه مع أنها من أجود الأطيان . والحديقة مائة فدان لا تأتى بأكثر من عشرين ألفاً : الأسعار هابطة لورثة السيد أحمد جلال خاصة ، والأقطان لا يبيعها بسبعة وعشرين جنيهاً لأن البرلمان سيرفع الأسعار ، ثم ينحل البرلمان والسيد محمود خلف يبقى فى مصر ليمشى على هواه . ومع ذلك فالباشا يطلب تحديد يوم الاحتفال بالعقد كأن السيد أحمد جلال مات من عدة سنين . وإذا طلبنا التأجيل إلى بعد مرور سنة على الوفاة أصر الباشا على تصفية الحساب وأخذ الأطيان ، كل الأطيان ، ثمانمائة فدان من أجود الأطيان ومن البساتين فى نظير ديونه . ومنى تزيد الأمور تعقيداً بإصرارها على الرفض .

ونظرت إلى منى عندما وصلت إلى هذا الحديث وقالت :

ــ انظر يا سيد كيف صارت عقول بناتنا .

وقامت منى خارجة من الغرفة فاستطعت أن أقول :

ــ أظن أن هذه الأمور تحتاج إلى رويـّة ، ولا فائدة من سردها هكذا .

فقالت السيدة : وماذا نستطيع يا سيد ؟ نحن فى يد الباشا .

فقلت : هذا ما أقصده بقولى إن هذه الأمور تحتاج إلى الروية ، حتى لا نضر بمصلحتكم ولا بمستقبل منى .

فقالت : حقاً إن محمود ولد فاسد ، ولكن هكذا الشبان اليوم . وأظنك توافق أن نتصرف بحكمة .

فقلت : المهم أولا أن نفرق بين تسوية المصالح وبين موضوع العقد .

فقالت : اسمع يا سيد يا ابنى . أنت مثل ولدى والسيد أحمد كان يقول إنك شاب عاقل ومثل ولده . ويجب علينا أن نتصرف بحكمة . يعنى يا ابنى نضيع أنفسنا ؟ ما معنى هذا العناد وكلما كلمتها قالت : « يكفينا أقل ما عندنا » ألست توافقنى يا سيد على رأيى ؟

وسكتت السيدة تنتظر جوابى وكنت لا أعرف إلى تلك اللحظة ما السبب الذى حملنى على الإسراع إلى دمنهور هكذا . وشعرت بأنى فى أحرج موقف وقفته فى حياتى . وكدت أصيح قائلا للسيدة : « هل منى جارية ؟ هل تريدين بيعها ؟ »

وقلت بعد صمت طويل :

– المسألة دقيقة يا سيدتى وتحتاج إلى كل حكمتنا . وأول ما يهمنا هو منى نفسها .

فقالت : طبعاً يا ابنى . هذا ما أقوله لها . هى أول ما يهمنا طبعاً ولا نريد إلا أن نختار أحسن شىء لها .

فقلت فى دفعة : هل تختارين لها محمود خلف ؟

فقالت : جهل الشباب يمر يا ولدى .

فقلت : هناك شبان آخرون يا سيدتى . ويحسن أن نفرق بين تسوية المصالح وبين أمر الزواج .

فقالت فى شىء من الغضب : أين هؤلاء الكثيرون يا سيد ؟ أنرضى لها أحد هؤلاء الذين يتقدمون لها ؟ صعاليك تعلموا وتوظفوا بعشرين جنيهاً ، ويتجرأون على التقدم لها؟ ماذا تصنع بهم منى ؟ أتختار أحدهم لتصرف عليه لتجعله إنساناً ثم تقول للناس « هذا رجلى ؟ » .

فأطرقت صامتاً وأظلمت الدنيا فى عينى ، وقمت قائلا :

ـ اسمحى لى الآن يا سيدتى . سأعود للحديث مرة أخرى .

وكنت أقول فى نفسى : لن أدخل هذا البيت بعد هذا .

وقالت السيدة : أين ذهبت منى ؟ هذا ما استفدناه من المدارس والكتب والعصر الحديث . يا حسرة علينا ما كنا نجرؤ على أن نقول كلمة .

ورفعت صوتها تنادى منى .

ثم التفتت إلىّ بنظرة التجاء قائلة :

ـ أرجوك يا سيد أن تساعدنى .

وجاءت منى تنظر إلىّ صامتة واستمرت السيدة تقول : ألست توافقنى يا سيد ؟

وخرجت الكلمات من فمى كأنى أنتزع خيطاً من شوك ، وقلت :

ـ أظن الأمر كله يتوقف على رأى منى .

فقالت السيدة فى نغمة عتاب حانق :

ـ ولكنها فى حاجة إلى النصيحة .

وأطرقت لحظة مفكراً أعيد فى ذهنى كلمة السيدة عندما قالت فى حنق :

« ماذا تصنع به منى ؟ أتصرف عليه ليكون إنساناً وتقول للناس هذا رجلى ؟ » .

وقلت فى نفسى فى حسرة ساخرة :

« ماذا تصنع بى منى ؟ » .

والتفت إلى السيدة وأنا أكثر ثقة فقلت :

ــ أرجو المعذرة يا سيدتى إذا لم أجد نصيحة .

لم أقل رأياً عندما تقدم عبد الحميد لأختى منيرة .

فقالت السيدة : ولكن هذا موضوع آخر .

فقلت فى إصرار : لو رفضت منيرة لكنت أوافقها .

فقالت فى دفعة : ولكن منيرة تستطيع أن تجد كثيرين مثل عبد الحميد يا سيد .

فقلت فى تحد : ومنى ؟

فقالت : كم فى المدينة مثل محمود خلف ؟ بل كم فى البلاد كلها ؟

فقلت فى شىء من الأنفة : اسمحى لى أن أخالف . المقاييس تختلف .

فقالت ووجهها يزداد حمرة : لا وجه للمقاربة يا ابنى .

وتدخلت منى فى الحديث قائلة : لماذا تتعبين نفسك يا ماما ؟ ألم نتفق على ترك هذا الموضوع نهائياً ؟

فقالت السيدة : ما معنى نهائياً ؟ يعنى أن نصفى حسابنا ونضيع ثروتنا ؟

وبدأت بينهما مناقشة طويلة لم أتدخل فيها لأنها تتصل بأرقام لا أعرفها ، وكانت السيدة تنطق بها فى حنق حتى خشيت على صحتها . وكنت فى أثناء هذه المناقشة صامتاً أفكر حانقاً فيما قالته السيدة ، ولكنى لم أستطع أن أظهر ما ثار فى نفسى . كانت كلماتها تصطدم بقلبى كأنها قذائف من الرصاص كلما سمعتها تساوم فى منى . وخرجت مستأذناً أكاد أترنح وقلت وأنا أتكلف الهدوء :

— أرجو لك العافية يا سيدتى .

فقالت منى ضاحكة : النتيجة أننا نسينا ما كنا نريده من سيد . كنا ننتظر حضوره كل أسبوع لنسأله عن رأيه ثم نضيع الوقت فى أحاديث أخرى . ما رأيك فيما يعرضه الباشا علينا . يريد أن يأخذ الأطيان ليستوفى بها دينه . هذا كل شىء .

ووقفت صامتاً لا أدرى كيف أفكر فى تلك المفاجأة . وماذا أعرف فى هذه الشئون حتى أبدى رأيى ؟

فقالت منى مستمرة : ليس المهم أن تقول لنا رأيك فى الصفقة ذاتها ، فهذا أمر يتولاه المحامى والخبير وهما أعلم بهذه الأمور منا . الأمر كله يتعلق بك أنت . هل تستطيع أن تشرف على شئون المحلج إذا اتفقنا على التسوية التى يعرضها الباشا ؟ لست أجنبياً عنه ولا عن الذين فيه وثقتنا فيك مطلقة . ونظرت إلىّ باسمة .

فقلت بغير تفكير :

ـــ دعى لى وقتاً لأفكر .

فقالت : لا حاجة إلى العجلة فى الجواب . أمامنا وقت طويل قبل أن يفرغ الجميع من إجراءات الاتفاق . وستكون معنا غداً بغير شك لأننا ذاهبون جميعاً إلى العزبة ـــ منيرة وعبد الحميد وماما وستعود ماما من هناك سائرة على قدميها . أليس كذلك ؟

ونظرت إلى أمها التى كانت عند ذلك عابسة مطرقة تضع رأسها على يدها .

وخرجت لانصرف صامتاً ولا أدرى أن كنت قد تبيننت عند ذلك ماذا قالت منى لأنى كنت فى جدال عنيف مع نفسى .

وقالت منى ونحن سائران وهى تمسك بذراعى .

ـــ هذه هى اللحظة الموعودة يا سيد ، اللحظة التى تقف فيها إلى جانبى .

ونظرت إلى عينيها وهى ترفع وجهها إلىّ وكانتا مثل البحر الصافى العميق فى يوم من أيام الربيع الهادئة . ودخلنا إلى غرفة الضيوف لأستعيد طربوشى وكتابى فقالت منى :

ـــ لم تقل بعد إنك ستأتى معنا .

وكان وجهها فى عينى كما كنت أراه دائماً مثل زهرة الفول فى فى الصباح إذا جللها الندى ، وعودها الرشيق مثل تمثال رائع ، ولو أطعت نفسى لركعت عند قدميها قائلا لها : « معبودتى ! »

وأخذت يديها فوضعتها بين كفى ورفعتهما إلى صدرى فى لهفة وقلت فى نفس مبهور :

ـــ طبعاً يا منى . وهل أرفض السعادة ؟ هل أستطيع أن أقول لك « لا » ؟ ولكنى أجد فيما تعرضين على شيئاً من المرارة وإن كنت لا أدرى كيف أرفض .

فقالت : أى مرارة ؟

فأجبت فى هدوء : لست أعرف كيف تنظرين إلىّ وأنت تطلبين منى أن أشرف على المحلج . لن أستطيع عند ذلك أن أقول لك الكلمة التى عشت هذه السنين راجياً أن أقولها لك يوماً . لن أجرؤ أن أقولها لك إذا اشتغلت عندك ، ولا فرق بين أن أكون فى المحلج مديراً أو وزاناً .

وتوقفت لحظة ، ثم تهدج صوتى وأنا أستمر قائلا :

ـــ لم يكن لى فى الحياة إلا حلم واحد وهو حبك يا منى .

ورفعت يديها إلى شفتى فقبلتهما فى حرارة .

واندفعت قائلا :

ـــ حبك هو الذى يدفعنى دائماً ويوحى إلىّ ويجعل لى فى الحياة غرضاً . ولست أحب أن أعرضه للسخرية حتى يقول أحد إننى أحب سيدتى ،أو يقول أحد إنك تريدين أن تجعلينى إنساناً وتقول للناس« هذا رجلى » . وأنا آسف إذ أقول لك هذا فإنى أبدو لنفسى جديراً بالسخرية وأنا أقوله .

فأطرقت برأسها ويداها ما زالت على صدرى ومالت حتى مس رأسها كتفى وقالت بصوت منخفض :

ـــ لم تقول هذا ؟

وبغير أن أشعر بما فعلت ضممتها إلى صدرى وقبلت جبينها .

٣٤

تمر علينا أحياناً لحظات طويلة أو قصيرة نكون فيها مثل الريشة فى مهب الرياح المتعارضة لا نعرف لأنفسنا اتجاها ، وهذا ما حدث لى بعد خروجى من بيت منى . لم أدر ماذا أريد ولا ماذا أحس ، وتنازعتنى دوافع متضادة كل منها يجعلنى أشك فى حقيقة آرائى وصدق مشاعرى . منى تسألنى أن أقف إلى جنبها وتقول لى هذه هى اللحظة الموعودة ، وهناك فى القاهرة معركة كبرى فى سبيل الغاية التى آمنت بأن الحياة تناديني من أجلها . وها هى ذى منى تستمع إلى وأنا أقول لها فى أول مرة من حياتى « أنا أعيش من أجل حبك ، وأخشى أن أكون موضعاً للسخرية فتميل برأسها على كتفى قائلة « لم تقول هذا ؟ »

وبقيت صورتها ونغمة صوتها تترددان فى كل كيانى وأنا أتحدث إلى أمى وأختى وأستمع إلى تحياتهما الممزوجة بالعتاب على طول غيبتى عنهما .

ولما جاء عبد الحميد فى ساعة الظهر كانت دهشته عظيمة لزيارتى المفاجئة وسألنى : متى جئت ؟

فقلت : فى قطار الصباح .

فصاحت منيرة : وأين كنت ؟

فأجبت فى نشوة : عند منى . ألم تبعثى إلىّ أنها متألمة منى ؟

وأخذت عبد الحميد لنجلس فى غرفة الجلوس وأفضيت إليه بكل ما قلت وما قيل لى ، فخبط على كتفى قائلا :

ـــ لأول مرة تستحق احترامى .

ودخلنا فى مناقشة طويلة بعد ذلك عندما ذكرت له تنازع أفكارى بين إجابة رغبة منى وبين تلبية نداء المعركة التى تنادينى .

فما كاد عبد الحميد يسمع كلمتى حتى انفجر ضاحكاً وقال :

ـــ لا تكن أحمق بهذا القدر . تستطيع أن تكتب ما تشاء وأنت هنا ، ولكنك لا تستطيع أن تقف إلى جنبها إلا هنا .

والمناقشة تخرج فى كثير من الأحيان إلى مكابرة يندفع إليها كل من طرفيها مع الكبرياء، كأنها معركة يخشى كل منهما الهزيمة فيها. وهذا ما وقع بيننا لمدة ساعتين حتى جاء وقت الغداء وكل منا متمسك بآرائه . ومن العجيب أنى كنت أجادل صاحبى وأنا أحس فى الوقت عينه بسرور خفى كلما وجدت فى حجته قوة ، كأنى كنت أريد من المناقشة أن أقنع نفسى بأن عملى سيكون فى نظر الناس طبيعياً لا موضع فيه للسخرية .

وكان اليوم التالى من أسعد أيام حياتى ، فذهبنا جميعاً إلى العزبة وهى لا تبعد عن دمنهور بأكثر من عشرين كيلومتراً ، وكانت قطعة جميلة من الهندسة والخصب والذوق الجميل ، فى تنسيق طرقها ونضرة زرعها وبهاء المسكن الأنيق الذى بناه السيد أحمد جلال قبل موته بعام واحد . وذهبت مع الأمانى إلى أبعد مذاهبها عندما تخيلت نفسى مقيماً فى ذلك القصر مع منى ومن حولنا ذلك الريف الجميل فى معزل عن الناس جميعاً . ومرحنا فى ذلك اليوم السعيد . كأننا جميعاً عدنا إلى الطفولة حتى إن السيدة الكبيرة وأمى نفسها نسيتا أن للسن أو لآلام المرضى

ضرائب لا بد من الاحتياط لها ، ولكن العاقبة كانت على غير انتظار خاتمة طيبة لليوم السعيد ، فقد عادت أمى من تلك الرحلة بذخيرة من المرح والنشاط كما عادت السيدة الكبيرة تسير على قدميها كما تنبأت منى . والشيء الوحيد الذى عكر بعض صفاء تلك الرحلة أن السيدة استمرت تجادل منى على طول طريقنا فى العودة وتصر على الاحتفاظ بالعزبة مهما كانت الظروف . ولكن منى تخلصت من المناقشة الحادة بضحكتها الوديعة قائلة : نستطيع أن نشترى أحسن منها . ولما عدت إلى القاهرة كانت الدنيا تبدو فى عينى بألوان أخرى غير التى تعودت أن أراها وبدأت أنظر إلى الأمور نظرة جديدة غير التى كنت أنظر بها .

كانت الحكومات تتعاقب فى أسابيع قليلة ، وكل منها لا تدرى أين تضع أقدامها . وسألت نفسى مراراً أين تنتهى هذه المهازل التى يمثلها صغار فى أسماء منفوخة . أساليب واحدة وإن تعددت الأدوار التى يمثلها كل منهم والنتيجة المحتومة واحدة . كنت كل يوم أسأل نفسى « إلى أين نصير ؟ » ولم يكن لهذا السؤال إلا رد واحد : ثورة أخرى مثل التى وقعت فى ٢٦ يناير الماضى . ولم لا ؟ غير أنى كنت أعود دائماً فأقول « وماذا نجنى من مثل تلك الثورة ؟ » وماذا يجنى الجسم العليل الذى تسممت دماؤه من انفجار جلده بالقروح ذات الصديد ؟

والآن تقترب نهاية القصة على فجأة كما تنتهى القصص الرديئة ، وإن كنت أعتذر عن هذه النهاية المفاجئة بأنى لم أتعمدها لأن المقادير هى التى جعلتها تنتهى فجأة . المقادير تصرف شئون الحياة كما تريد هى لا كما يريد الأحياء ، بل إنى أستطيع أن أعتذر عن المقادير نفسها

فأقول إنها لم تدبر لهذه القصة نهاية بل دبرت بداية لقصة جديدة . هكذا الحياة تسير فى سلسلة من القصص التى تنتهى كل منها إلى بداية أخرى . ولا يستطيع أحد أن يعلل حوادث المقادير مهما أوتى من الحكمة ، فكيف أستطيع أنا أن أعللها وما أوتيت من الحكمة شيئاً ؟ كل ما أفخر به أنى آمنت بأن الحياة نادتنى وأن للأقدار حكمة وأننا نتجه فى الحياة كما توجهنا أسرار صغيرة عظيمة أو مواقف تافهه خطيرة ، لا ندرك قيمتها فى لحظتها ولا نعرف أنها هى التى وجهت حياتنا إلا بعد أن نمضى على الطريق ويصبح من المحال علينا أن نعود أدراجنا .

قد يقول البعض إننا نملك مصائرنا وإن الحوادث التى تقع لنا ما هى إلا نتائج محتومة لمقدمات ثابتة . وقد يكون هذا صحيحاً ولكن نهاية هذه القصة تخالف هذه السنة على ما بدا لى ، وما أزال أراها من الأمور الغامضة التى تبعث الدهشة والعجب . ولقد بلغت بى الحيرة أننى عددتها كرامة من كرامات الأولياء أو معجزة من معجزات الإرادة الإلهية . وإلا فكيف كنت أتصور كل ذلك الانقلاب فى الأسابيع القليلة التى قضيتها فى القاهرة بعد عودتى من دمنهور ؟

فقد اتفق وقوع حادثين فى وقت واحد بل فى ساعة واحدة ، وكانت فيهما نهاية القصة .

فى صباح اليوم الثالث والعشرين من شهر يوليه وقعت الحادثتان معا وأنا أسجلهما هنا لأن بهما تنتهى هذه القصة أو بقول آخر تبدأ قصة جديدة .

فأما الحادث الأول فهو أننى كنت جالساً إلى جانب المذياع أستمع

إلى قرآن الصباح وإلى أخبار اليوم الجديد ، فإذا صوت ينطلق معلناً قيام ثورة من الجيش ! الجيش ! الله أكبر ! الجيش الذى كنا نخشى أن يكون هو عماد الطاغية الرهيب ؟

الجيش يعود مرة أخرى ليثبت أنه من أبناء الوطن وأن الطاغية يسخر منه كما يسخر من الأمة ، ويعبث به كما يعبث بالأمة ! إنها لكرامة من الولى الذى جاورته فى هذه الأشهر الماضية وكنت أذهب إليه كل صباح لأؤدى صلاة الفجر بعين دامعة . وقمت مسرعاً لأصلى فى مسجد الحسين ، لأنى فى دهشة المفاجأة آمنت بأنها كرامته . وإلا فكرامة من ؟ الأمة كانت لا تستطيع إلا ثورة مثل التى وقعت فى يوم ٢٦ يناير ولكن هذه ثورة أخرى — ثورة بيضاء تعرف غايتها .

وأما الحادث الثانى فإنى ما كدت أعود إلى شقتى المتواضعة فى باب الخلق حتى وجدت برقية تنتظرنى ! « تم الاتفاق وفى انتظارك اليوم حسب الاتفاق . منى . »

وسرت كما أنا بوضوئى وخشوعى ودهشتى قاصداً إلى المحطة مخترقاً طرق القاهرة المزدحمة بأمثالى من الذين خرجوا إلى الطريق ليسأل بعضهم بعضاً فى دهشة « كيف حدث هذا ؟ » .

وسافرت إلى دمنهور فى قطار الصباح وكنت على طول الطريق أفكر خاشعاً وأسأل نفسى : « كيف يحدث هذا ؟ » واستقبلتنى منى باسمة وفتحت لها ذراعى وكانت هى الأخرى تقول إذ تندفع إلى صدرى : « كيف يحدث هذا ؟ » .


AL-MAAREF
1890 - ١٨٩٠

